سلافوي جيجيك

فلسفة الفوضى

هل ينقذ الدمار البشرية؟

"لا يكفّ عن الإبهار"
Daily Telegraph

ترجمة
عماد شيحة





فلسفة الفوضى

لوحة الغلاف للفنان المكسيكي

Eduardo Ramón Trejo

سلافوي جيجيك

فلسفة الفوضى

هل ينقذ الدمار البشرية؟

ترجمة

عماد شيحة

دار الساقي

Slavoj Žižek, *HEAVEN IN DISORDER*, 2021
Published by arrangement with OR Books LLC, New York.

الطبعة العربية

الطبعة الورقية، 2022
الطبعة الإلكترونية، 2023

ISBN-978-614-03-0265-5

Published 2022 by Dar Al Saqi

Dar Al Saqi

Gable House, 18-24 Turnham Green Terrace, London W4 1QP

Tel: 020 7221 9347

e-mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com
www.saqibooks.com


@DarAlSaqi


دار الساقي


Dar Al Saqi


Dar Al Saqi

مقدمة[1]
ألا يزال الوضع ممتازاً؟

1 يشهد العالم تطورات متسارعة قد لا تترك مسافة للتمحيص والتأمل، وهو الأمر الذي حرص سلافوي جيجيك على فعله بدقة وتناهٍ، في مجموعة كتابات تغطي المرحلة الزمنية منذ 2018 حتى نهاية 2021، ورحيل دونالد ترامب عن كرسي الرئاسة ومجيء جو بايدن، في مؤشر على بداية مرحلة جديدة يرى جيجيك أنها لم تخرج عن سياق الفوضى التي تعم العالم، وسط جائحة لم يتعافَ البشر من تبعاتها بعد. (الناشر)

تُعَدّ عبارة "الوضع ممتاز ما دامت فوضى كثيرة تسود تحت السماء" من أشهر أقوال ماو تسي تونغ. من اليسير إدراك المعنى الذي قصده ماو هنا: عندما يتفكّك النظام الاجتماعي القائم، تتيح الفوضى التي تلي ذلك للقوى الثورية فرصة سانحة للتحرّك بحزم والاستيلاء على السلطة السياسية. أمّا اليوم، فمن المؤكّد أنّ كثيراً من الفوضى يسود تحت السماء مع جائحة كورونا والاحتباس الحراري وبوادر حرب باردة جديدة واندلاع احتجاجات شعبية ومنازعات اجتماعية في أرجاء العالم كافّة، وهي لا تمثّل إلّا عدداً قليلاً من الأزمات التي تحيق بنا. ولكن ألا تزال هذه الفوضى تجعل الوضع ممتازاً، أم أنّ مخاطر التدمير الذاتي مرتفعة للغاية؟ لعلّ خير ما يصف الاختلاف بين الوضع الذي كان في خَلد ماو ووضعنا الحالي تمييز اصطلاحي ضئيل. يتحدث ماو عن فوضى تحت السماء حيث لا تزال "السماء" أو الآخر المتعالي أيًّا تكن هيئته، المنطق الحتمي للسيرورات التاريخية أو قوانين التطوّر الاجتماعي، موجودةً وتنظّم بتكتّم الفوضى الاجتماعية. أمّا اليوم، فعلينا التحدّث عن السماء نفسها بوصفها كائناً في حالة اضطراب. ما الذي أعنيه بذلك؟

في *Divided Heaven* [سماء منقسمة] (1963) لكريستا وولف Christa Wolf، وهي رواية كلاسيكية من أيام جمهورية ألمانيا الديموقراطية تتحدّث عن الآثار الذاتية المترتبة على تقسيم ألمانيا، يقول مانفريد (اختار الغرب) لمحبوبته ريتا عندما يلتقيان للمرّة الأخيرة: "ولكن حتّى لو قُسّمت أرضنا، فلا نزال نتشاطر السماء عينها"، فتجيب ريتا (اختارت الشرق) بمرارة: "لا، لقد قسّموا السماء أوَّلا". تقدّم الرواية بدفاعها (عن الشرق) استبصاراً حصيفاً حول الكيفية التي دوماً كانت فيها انقساماتنا وحروبنا "الأرضية" متأصّلة في نهاية المطاف في "سماء منقسمة"، أي في انقسام محض وأكثر جذرية في صميم الكون (الرمزي) الذي نعيش فيه. إنّ حامل "تقسيم السماء" هذا وأداته هو اللغة بوصفها الوسيط الذي يديم الطريقة

التي نختبر فيها الواقع. فاللغة، وليس المصالح الأنانية البدائية، هي المقسِّم الأول والأكبر. إنّنا (نستطيع) بسبب اللغة "العيش في عوالم مختلفة" عن جيراننا، حتّى لو كانوا يعيشون في الشارع عينه.

ليس الوضع في وقتنا الحالي وضعاً تنقسم فيه السماء إلى عالمين، كما كانت الحال في فترة الحرب الباردة حينما واجهت وجهتا نظر عالميتان إحداهما الأخرى. يبدو اليوم أنّ انقسامات السماء باتت ترتسم باطِّراد داخل كلّ بلدٍ بعينه. في الولايات المتحدة مثلاً هنالك حرب أهلية سياسية وأيديولوجية بين اليمين المتطرّف والمؤسّسة الديموقراطية الليبرالية، في حين ثمّة انقسامات عميقة مشابهة في المملكة المتّحدة كما تجلّت حديثاً في التناقض بين مؤيّدي الانفصال عن الاتحاد الأوروبي ومناهضيه... تتضاءل فضاءات الأرضية المشتركة باستمرار، ما يعكس تقلُّصا مستمراً للفضاء العام المادي، وهذا يحدث في زمن تشير فيه الأزمات المتعدّدة المتداخلة إلى حاجتنا إلى التضامن العالمي والتعاون الدولي أكثر من أيّ وقت مضى.

في الشهور الأخيرة، باتت أكثر وضوحاً غالبيةُ الطرائق المفزعة في كثيرٍ من الأحيان وقد تشابكت بموجبها أزمة جائحة كورونا مع الأزمات الاقتصادية والبيئية والسياسية والاجتماعية المتواصلة. لا بدّ من معالجة الجائحة جنباً إلى جنب مع معالجة الاحتباس الحراري ونشوب التناحرات الطبقية والنزعة الأبوية ومعاداة المرأة وكثير غيرها من الأزمات المستمرة التي تتماشى معها وواحدتها مع الأخرى بتأثير متبادل معقّد. يتعذّر التحكّم في هذا التأثير المتبادل وهو حافل بالمخاطر، ولا يمكننا التعويل على أيّ ضمانة من السماء تجعل الحلّ ممكن التصوّر بوضوح. يجعل مثل هذا الوضع المحفوف بالمخاطر لحظتنا الحالية لحظة سياسية بامتياز: الوضع ليس ممتازاً قطعاً، ولهذا على المرء أن يتحرّك.

إذاً، ما العمل؟ إنّ مطلب لينين Lenin بشأن "تحليل ملموس للوضع العياني" هو اليوم أكثر صحة من أيّ وقت مضى. ليس في إمكان صيغة شاملة تقديم الإجابة؛ ثمّة لحظات تكون فيها الحاجة ماسّة إلى تدابير تدريجية معتدلة، وثمّة لحظات تشكّل فيها المواجهة الجذرية السبيل الوحيد. كذلك هنالك لحظات يكون فيها الصمت الرصين (وزوج لطيف من قفازات الملاكمة) أبلغ من آلاف الكلمات.

1

هل غيّر هجوم المسيّرات على السعودية قواعد اللعبة حقاً؟

حين شنّ المتمردون الحوثيون في أيلول/ سبتمبر 2019 هجوماً بالمسيرات على منشآت معالجة النفط الخام التابعة لشركة Aramco السعودية، أعادت وسائل إعلامنا وكرّرت وصف هذا الحدث بأنّه "تغيير في قواعد اللعبة"، ولكن هل كان ذلك حقاً تغييراً في قواعد اللعبة؟ بلى، بمعنى من معاني الحسّ السليم، بما أنّ الحدث أربك إمدادات النفط العالمية وزاد من احتمال اندلاع نزاع مسلّح أوسع في منطقة الشرق الأوسط. لكن على المرء أن يكون حريصاً على عدم تفويت السخرية اللاذعة في هذا الزعم.

يخوض المتمردون الحوثيون في اليمن حرباً مفتوحة مع السعودية منذ سنوات، وقد دمرت القوات المسلحة السعودية (بإمدادات من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة) عملياً البلد بأسره بالقصف العشوائي للأهداف المدنية. أفضى التدخّل السعودي إلى واحدة من أسوأ الكوارث الإنسانية مع عشرات آلاف القتلى من الأطفال. لكن من الواضح هنا أنّ تدمير بلد بأكمله، كما الحال في ليبيا وسوريا، ليس تغييراً في قواعد اللعبة بقدر ما هو جزء من لعبة جيوسياسية معتادة.

حتّى لو أدنّا التصرّف الحوثي، فهل ستفاجئنا حقاً رؤية الحوثيين وهم يردّون الصاع صاعين بأيّ وسيلة ممكنة بعدما حوصروا وبلغ بهم اليأس أشدّه؟ بعيداً من تغيير قواعد اللعبة إنّ تصرّفهم ليس سوى التتويج المنطقي لهذا التغيير. وبإعادة صياغة واحدة من بذاءات دونالد ترامب التي يعجز عنها الوصف، اكتشفوا أخيراً وسيلةً للإمساك بالسعودية من المكان الذي يوجعها، وهو موضع مؤلم حقاً. أو بإعادة صياغة البيت المشهور من *Beggar's Opera* [أوبرا الشحاذ] لبريخت Brecht "تأسيس مصرف جديد أسوأ من جريمة السطو على مصرف": الإخلال الطفيف بإعادة إنتاج رأس المال أسوأ من تدمير بلد.

ثم إنّ الاهتمام الإعلامي بالهجوم الحوثي الذي "غيّر قواعد اللعبة" صرف انتباهنا بسهولة عن مشاريع تغيير قواعد اللعبة الحقيقية، كالمخطط الإسرائيلي لضمّ مساحات واسعة من الأراضي الخصبة في الضفة الغربية،[2] ما يعني أنّ مجمل الحديث عن "حلّ الدولتين" ليس سوى حديث فارغ هدفه التعتيم على الإنجاز الشرس لمشروع استعماري حديث لا ينتظر فيه فلسطينيي الضفة في أفضل الأحوال إلّا عددٌ من البانتوستانات الخاضعة لرقابة مشدّدة. كذلك، لا بدّ من ملاحظة أنّ إسرائيل تقوم بذلك بتواطؤ صامت من السعودية، وهو برهان إضافي على أنّ محوراً جديداً للشر ينشأ في الشرق الأوسط يضمّ السعودية وإسرائيل ومصر والإمارات العربية المتحدة. هنا على وجه التحديد تتغيّر قواعد اللعبة حقاً!

2 Oliver Holmes, "Netanyahu Vows to Annex Large Parts of the Occupied West Bank," the *Guardian*, September 11, 2019, https://www.theguardian.com/world/2019/sep/10/netanyahu-vows-annex-large-parts-occupied-west-bank-trump

لتوسيع نطاق تحليلنا، ينبغي لنا أيضاً الانتباه إلى كيفية تغيّر قواعد اللعبة في التعامل مع الاحتجاجات التي اندلعت في هونغ كونغ. فوسائل إعلامنا تتجاهل عادةً بُعداً هو الصراع الطبقي الذي يديم احتجاجات هونغ كونغ في مواجهة الجهود التي تبذلها الصين للحدّ من استقلال هونغ كونغ الذاتي. اندلعت هذه الاحتجاجات بداية في المناطق الفقيرة، إذ إنّ المناطق الغنية ازدهرت في ظلّ السيطرة الصينية. ثمّ سُمع صوت جديد. ففي 8 أيلول/ سبتمبر 2019، انطلق المحتجّون نحو القنصلية الأميركية في هونغ كونغ وذكرت وكالة CNN أنّ "لافتة محمولة في المسيرة كُتب عليها بالإنكليزية: من فضلك أيّها الرئيس ترامب حرّر هونغ كونغ، بينما أنشدت مسيرات أخرى النشيد الوطني الأميركي".[3] كذلك ذُكر أنّ مصرفياً في الثلاثين من عمره يُدعى ديفيد وونغ David Wong قال: "نحن نتشاطر قيم الحرية والديموقراطية الأميركية عينها". حريٌّ بأيّ تحليل جدّي لاحتجاجات هونغ كونغ التركيز على كيفية تلقّف احتجاجٍ اجتماعي – لعلّه تغيير حقيقي في قواعد اللعبة – لإدراجه في السردية النمطية عن ثورة ديموقراطية على حكم شمولي.

3 Ben Westcott, Julia Hollingsworth, and Caitlin Hu, "Hong Kong Protesters March to US Consulate to Call for Help from Trump," CNN, September 9, 2019, https://edition.cnn.com/2019/09/08/asia/hong-kong-us-protests-0809-intl-hnk/index.html

ينطبق الأمر عينه على تحليل البر الصيني الرئيسي نفسه، بتقارير وسائل إعلامنا عن كيفية تلقّي معهد يونيريل للاقتصاد (Unirule Institute of Economics)، وهو أحد المخافر الأمامية القليلة المتبقية للفكر الليبرالي، أمراً بالإغلاق، ما بدا أنّه إشارة أخرى على التقلّص المأسوي لفضاء النقاش العام في عهد حكومة الزعيم الصيني شي جين بينغ Xi Jinping. غير أنّ هذا أبعد ما يكون عن ترهيب الشرطة والضرب والاعتقال التي يتعرّض لها الطلاب اليساريون في الصين. تكمن المفارقة في أنّ مجموعات من الطلبة أخذت على محمل الجدّ بأكثر ممّا تقصد الحكومة العودةَ إلى الماركسية، فنظّمت صلاتٍ مع العمال الذين يعانون من الاستغلال الشديد في المصانع المحيطة ببكين. إذ يبلغ التلوث في المصانع الكيميائية على وجه الخصوص أعلى مستوياته وهو خارج السيطرة وتتجاهله سلطة الدولة. ولذلك يساعد الطلابُ العمالَ على تنظيم أنفسهم وصوغ مطالبهم. تُشكّل مثل هذه الصلات تحدًّيا حقيقياً للنظام، بينما يُشكّل الصراع القائم بين الخطّ المتشدّد الجديد لشي جين بينغ والليبراليين المؤيدين للرأسمالية في نهاية المطاف جزءاً من لعبة الهيمنة. فهو تعبير عن التوتّر السائد بين نسختين من التطوّر الرأسمالي الجامح: الشمولي والليبرالي.

في هذه الحالات كافة من اليمن إلى الصين، ينبغي للمرء أن يتعلّم التمييز بين صراعات تُعَدّ جزءاً من اللعبة وتغيّرات اللعبة الحقيقية التي هي إمّا منعطفات تُنذر بالأسوأ تحت قناع استمرارية الحالة الطبيعية للأمور (ضمّ إسرائيل أجزاء واسعة من الضفة)، وإما بشائر أمل في نشوء شيء جديد حقاً. تُشكّل هذه المنعطفات هاجساً لدى وجهة النظر الليبرالية السائدة التي تتجاهل إلى حدٍّ كبير تلك البشائر.

2
من الذي يجعل كردستان همجية؟

منذ أكثر من مئة عام، كتب كارل ماي Karl May أحد أكثر الكتب مبيعاً *Through Wild Kurdistan* [عَبْر كردستان الهمجية]، وهو يدور حول مغامرة بطل ألماني يُدعى كارا بن نمسي Kara Ben Nemsi في تلك البقعة من العالم. ساعد هذا الكتاب الذي حظي بشعبية كبيرة في بناء تصوّر داخل أوروبا الوسطى عن كردستان بوصفها مكاناً لحرب قبلية وحشية، وللاستقامة الساذجة والشرف، وكذلك للشعوذة والخيانة والحرب الوحشية الدائمة: الآخر الهمجي شبه الكاريكاتوري للحضارة الأوروبية. أمّا إذا نظرنا إلى كردستان الحالية، فلا يمكننا إلّا أن نُفاجأ بمدى تعارضها مع هذا التصوّر المبتذل. حينما كنت في تركيا، حيث أُلمّ بالوضع نسبياً، لاحظت أنّ الأقلية الكردية تُشكّل الجزء الأكثر علمانية وحداثة في المجتمع، وأنّها بعيدة عن كلّ أنماط الأصولية الدينية وقريبة من نسوية متطوّرة.

عندما أيّد دونالد ترامب الهجوم التركي على الجيب الكردي في شمال سوريا في تشرين الأول/ أكتوبر 2019، برّر "العبقري المتزن" الذاتي التصنيف خيانته للأكراد بالقول إنّ الأكراد "ليسوا ملائكة"[4]. فالملائكة الوحيدون، من وجهة نظره بالطبع، في تلك المنطقة هم إسرائيل (ولا سيما في الضفة) والسعودية (ولا سيما في اليمن). لكنّ الأكراد، بمعنىً ما، هم الملائكة الوحيدون في تلك البقعة من العالم. فقدر الأكراد يجعل منهم الضحية المثالية للألعاب الجيوسياسية الاستعمارية الجارية: إنّ استقلالهم الذاتي الناجز (أكثر ممّا يستحقون) عبر انتشارهم على طول حدود أربع دول (تركيا وسوريا والعراق وإيران) لا يتوافق مع مصلحة أيّ طرف من الأطراف، بعدما دفعوا كامل الثمن مقابله. ألا نزال نتذكّر قصف صدام حسين الأكراد على أوسع نطاق وتعريضهم للغازات السامة في شمال العراق أواخر ثمانينيات القرن الماضي؟ وفي المدة الأخيرة، أدارت تركيا لسنوات لعبة سياسية عسكرية حسنة الإعداد، فهي تحارب "داعش" رسمياً لكنّها تقصف الأكراد الذين يحاربون "داعش" فعلياً.

[4] Philip Bump, “Trump’s Indifferent to New Fighting in Syria: ‘There’s a Lot of Sand There That They Can Play With,’” the *Washington Post*, October 16, 2019,

https://www.washingtonpost.com/politics/2019/10/16/trumps-indifferent-new-fighting-syria-theres-lot-sand-there-that-they-can-play-with/

في العقود الأخيرة، اختُبرت قدرة الأكراد على تنظيم حياتهم المجتمعية في ظروف تجريبية واضحة المعالم تقريباً. وفي اللحظة التي مُنحوا فيها مساحة للتنفّس بحرية خارج صراعات الدول المحيطة بهم، فاجؤوا العالم. تطوّر الجيب الكردي شمالي العراق بعد سقوط صدام ليصير البقعة الآمنة الوحيدة في العراق بمؤسّسات حسنة الأداء وحتّى برحلات جوية منتظمة إلى أوروبا. أمّا شمالي سوريا، فكان الجيب الكردي المتمركز في روج آفا مكاناً فريداً في الفوضى الجيوسياسية الحالية. حين مُنح الأكراد استراحة من تهديدات جيرانهم الكبار المستمرة، سارعوا إلى بناء مجتمع لا يسع المرء إلّا أن يسميه مجتمع مدينة فاضلة قائمة تؤدّي وظائفها على أكمل وجه. فقد لاحظت عبر اهتمامي المهني مجتمعاً فكرياً مزدهراً في روج آفا حيث دُعيت مراراً وتكراراً لإلقاء محاضرات (توقفت هذه المشاريع فجأةً بسبب التوتّرات العسكرية في المنطقة).

لكنّ ما أحزنني على وجه الخصوص هو ردود فعل بعض زملائي "اليساريين" الذين أزعجتهم حقيقة أنّه تعيّن على الأكراد الاعتماد على الحماية العسكرية الأميركية. ماذا عليهم أن يفعلوا وهم عالقون داخل التوتّرات بين تركيا، والحرب الأهلية السورية، والفوضى العراقية، وإيران؟ أكان لديهم خيار آخر؟ هل عليهم التضحية بأنفسهم على مذبح التضامن المناهض للإمبريالية؟ لم يكن هذا البعد النقدي "اليساري" أقلّ إثارةً للاشمئزاز ممّا ظهر في 2018 عندما توصّلت اليونان ومقدونيا إلى اتفاق لحلّ النزاع على تسمية الأخيرة. هاجم المتطرّفون في كلا البلدين فوراً الحلّ الذي ألزم مقدونيا تغيير اسمها ليصير مقدونيا الشمالية. لقد أصرّ المعارضون اليونانيون على أنّ "مقدونيا" اسم يوناني قديم، وشعر المعارضون المقدونيون بالإهانة لاختزالهم بمسمى مقاطعة "شمالية" في حين أنّهم الشعب الوحيد الذي يلقي أفراده على أنفسهم تسمية "مقدونيين". ورغم النواقص التي تشوب هذا الحل، قدّم نظرة موجزة لنهاية صراع طويل وعديم المعنى عبر تسوية معقولة. لكنّه وقع في "تناقض" آخر: الصراع بين القوى الكبرى (الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي من جانب، وروسيا من جانب آخر). مارس الغرب ضغوطاً على كلا الطرفين لقبول التسوية كي يكون في وسع مقدونيا الانضمام سريعاً إلى الاتحاد الأوروبي و"حلف

شمال الأطلسي"، في حين عارضت روسيا ذلك للسبب عينه أساساً (خوفاً من فقدان نفوذها في البلقان) عن طريق تأييد القوى القومية المحافظة المسعورة في كلا البلدين. إذاً، إلى جانب أيّ طرفٍ علينا الوقوف هنا؟ في رأيي علينا من دون ريب الوقوف إلى جانب التسوية لسبب بسيط هو أنّها الحلّ الواقعي الوحيد للمشكلة. إذ إنّ تأييد روسيا هنا سيعني التضحية بحلّ معقول للمشكلة الوحيدة في العلاقات المقدونية اليونانية في سبيل مصالح جيوسياسية دولية. فهل سيتلقى الأكراد الضربة عينها من "يساريينا" المناهضين للإمبريالية؟

لهذا، سيكون من واجبنا أن نقدم كامل الدعم إلى المقاومة الكردية التي تواجه الغزو التركي، وأن نشجب بصرامة الألعاب القذرة التي تلعبها القوى الغربية. ففي حين تنغمس الدول ذات السيادة المحيطة بالأكراد تدريجياً في بربرية جديدة، يشكّل الأكراد بصيص الأمل الوحيد. ثم إنّ هذا الصراع لا يتعلّق بالأكراد وحدهم، بل يتعلّق بنا أيضاً وبصورة النظام العالمي الجديد الناشئ. إنْ جرى التخلي عن الأكراد، فسينشأ نظام جديد لن يكون فيه مكان للإرث الأوروبي الثمين المتمثّل في التحرّر. إن أشاحت أوروبا بوجهها عن الأكراد، فستخون نفسها وتصبح أوروباستان حقيقية!

3
متاعب في جنّتنا

شنّت وسائل الإعلام الصينية في منتصف تشرين الأول/ أكتوبر 2019 هجوماً يعزّز ادّعاء أنّ "المظاهرات في أوروبا وأميركا الجنوبية هي النتيجة المباشرة للتساهل الغربي مع القلاقل التي وقعت في هونغ كونغ"[5]. وفي تعقيب نشرته صحيفة *Beijing News*، كتب الديبلوماسي الصيني السابق وانغ زين Wang Zhen أنّ "الآثار الكارثية لـ'هونغ كونغ تعمّها الفوضى' بدأت التأثير في العالم الغربي"، أي أنّ المتظاهرين في تشيلي وإسبانيا استمدّوا أفكارهم من هونغ كونغ. وعلى المنوال عينه، اتهمت افتتاحية في *Global Times* متظاهري هونغ كونغ بـ"تصدير الثورة إلى العالم" زاعمةً أنّ "الغرب يدفع ثمن تأييده أعمال الشغب في هونغ كونغ التي سرعان ما أجّجت العنف في أجزاء أخرى من العالم وأنذرت بمخاطر سياسية ليس في إمكان الغرب التحكّم فيها"[6]. وفي مقطع فيديو افتتاحي نُشر في حساب *Global Times* الرسمي على "تويتر"، قال رئيس التحرير هو شيجين Hu Xijin: "هنالك مشكلات كثيرة في الغرب وجميع أنواع تيارات الاستياء الخفية. سيتجلّى كثير منها في نهاية المطاف مثلما تجلّت احتجاجات هونغ كونغ"[7]. والنتيجة التي تنذر بالشؤم: "ربما لا تكون كتالونيا سوى البداية".

5 انظر:

Ben Westcott, "West Is Paying the Price For Supporting Hong Kong Riots, Chinese State Media Says," CNN, October 22, 2019, https://edition.cnn.com/2019/10/21/asia/china-hong-kong-chile-spain-protests-intl-hnk/index.html

6 "HK-Style Violence to Impact Western System," *Global Times*, October 20, 2019, https://www.globaltimes.cn/content/1167409.shtml

7 Westcott, "West Is Paying the Price for Supporting Hong Kong Riots."

رغم أنّ الفكرة التي مفادها أنّ مظاهرات برشلونة وتشيلي استلهمت أفكارها من هونغ كونغ هي فكرة بعيدة الاحتمال، فهذا لا يعني أنّ هذه الاندفاعات في هونغ كونغ وكتالونيا وتشيلي والإكوادور ولبنان، ناهيك بتحرّك gilets jaunes [السترات الصفراء] في فرنسا، لا يمكن اختزالها بعامل مشترك. ففي كلّ حالة من هذه

الحالات، انفجر احتجاج ضدّ قانون أو إجراء (ارتفاع أسعار الوقود في فرنسا، قانون تسليم المطلوبين في هونغ كونغ، ارتفاع أسعار النقل العام في تشيلي، فترات السجن الطويلة للسياسيين الكتالونيين المؤيدين للاستقلال في برشلونة، وما شابه) وتحوّل إلى استياء عام يبدو أنّه كان موجوداً في السابق لكنّه يتربّص وينتظر شرارةً لتفجيره، ما يعني أنّ الاحتجاجات استمرّت رغم إلغاء الإجراء أو القانون.

ثمّة حقيقتان تثيران العجب ولا يمكن إلّا أن تلفتا النظر هنا. أولاهما طريقة لعب الصين "الشيوعية" بتكتّم على تضامن الممسكين بزمام السلطة في أرجاء العالم كافّة في مواجهة الجماهير المتمرّدة، محذرين الغرب من التقليل من شأن الاستياء في بلدانه. مفاد رسالة الصين هنا أنّ الدول جميعها تتشاطر، تحت وطأة التوتّرات الأيديولوجية والجيوسياسية كافّة، المصلحة الأساسية عينها في التمسّك بالسلطة. وثانيتهما هي الجانب المتعلّق بـ"المتاعب في الجنة": الاحتجاجات لا تجري في بلدان فقيرة مقفرة، بل في بلدان الرفاهية (نسبياً على الأقل)، بلدان تُقدَّم عادة على أنّها تجارب ناجحة (اقتصادياً على الأقل). ورغم أنّ هذه الاحتجاجات تشير إلى تنامي أوجه اللامساواة التي تستبعد قصص النجاح الرسمية، فلا يمكن اختزالها بقضايا اقتصادية. إذ إنّ الاستياء الذي تعبّر عنه يشير إلى التوقعات (المعيارية) المتنامية بشأن الكيفية التي يجب أن تعمل مجتمعاتنا وفقها، وهي توقعات تتعلّق أيضاً بقضايا "غير اقتصادية" كالحريات الجماعية أو الفردية، والكرامة، وحتّى الحياة ذات المغزى. بات يُنظر باطّراد إلى ما كان يُقبل حتّى وقت قريب بوصفه حالة طبيعية (حدًّا معيناً من الفقر، سيادة تامة للدولة، وما شابه) بوصفه خطأ مكافحته واجبة.

هذا هو السبب في وجوب أن ندرج أيضاً في سلسلة الاحتجاجات المستمرة الانفجار الجديد للحركات البيئية والنضال النسوي (النضال الحقيقي، النضال الذي يضمّ آلاف النساء العاديّات وليس نسخته المعقَّمة من حركة MeToo الأميركية). دعونا نركّز فحسب على إحدى هذه الحالات. تضمّنت التعبئة النسوية الشاملة في المكسيك ما تُطلِق عليه أليخاندرا سانتيانا أورتيز Alejandra Santillana Ortiz إحدى المنظِّمات "حديثاً عن الحياة، والحياة الكريمة، والغضب العارم"[8]. وتتابع: "ما الذي تعنيه الحياة بالنسبة إلينا؟ ما الذي نشير إليه حينما نتحدّث عن وضع الحياة في مركز اهتماماتنا؟ ليست الحياة من وجهة نظرنا فكرة مجرّدة تعريفية، فهي تتضمّن

بالضرورة الحديث عن الكرامة وعن كلّ ما يتيح تمكين الكرامة". لا نتحدّث هنا عن تأملات فلسفية مجرّدة بشأن معنى الحياة، ولكن عن تبصّرات متجذّرة في خبرات عيانية تبيّن كيف أنّ معظم الأنشطة العادية في الحياة اليومية مثل ركوب مترو الأنفاق محفوفة بمخاطر العنف الوحشي والإذلال:

8 مقابلة أجراها توبياس بووس Tobias Boos مع أليخاندرا سانتيانا أورتيز:

"Graffiti and Glitter Bombs: Mexico's Movement Against Rape," New Frame, October 23, 2019
https://www.newframe.com/graffiti-and-glitter-bombs-mexicos-movement-against-rape/

> كيف يمكن أن يتمتع شخص ما براحة البال وهو يعرف أنّه في مترو أنفاق مدينة مكسيكو، وهو جزء لا يتجزأ من حركة التنقّل في المدينة، اختُطفت آلاف النساء في غضون بضعة أشهر وأنّ ذلك حدث علناً وفي وضح النهار؟ وإن لم تُختطفي، فعليك أن تأخذي في الحسبان الاحتمال المرتفع للغاية في التعرّض للتعدي أو لمواجهة اعتداء عنيف من نوع ما. هذا هو السبب في وجود عربات خاصة بالنساء في القطارات هناك. ورغم ذلك هنالك، رجال يصعدون إلى تلك العربات.

ربما تكون المكسيك حالة قصوى هنا لكنّها مجرّد استقراء لميول موجودة في كلّ مكان. فنحن نعيش في مجتمعات يغلي تحت سطحها عنف ذكوري وحشي، وثمّة أمر واضح هو أنّ الصوابية السياسية ليست السبيل للتغلّب عليه. وما يجعل المكسيك نموذجية أيضاً هو التضامن الخفي بين هذه الوحشية الذكورية المستحكمة وأجهزة الدولة التي نتوقع منها حمايتنا من تلك الوحشية. وكما تقول سانتيانا أورتيز:

> ثمّة نوع من تشكّل مجتمع عنيف دون عقاب تكون الدولة فيه جزءاً من هذا العنف. وقد تورّطت الدولة وموظفوها أو الشرطة تورّطًا مباشراً في عدد كبير من الجرائم المرتكبة في المكسيك في السنوات الأخيرة. أو الدولة تضمن الإفلات المعمّم من العقاب في هذا البلد عن طريق القضاة أو العاملين في الجهاز القضائي.

الرؤية المرعبة لـ"الإفلات المعمّم من العقاب" هي حقيقة الموجة الجديدة من الشعبوية، ولا يمكن مواجهة هذا التواطؤ الفاضح للدولة والمجتمع المدني إلّا بتحشيد شعبي واسع، وقوي بما يكفي لخوض تلك المواجهة. هذا هو السبب في أنّ الاحتجاجات الجارية في أرجاء العالم تعبّر عن استياء متنامٍ لا يمكن توجيهه ليصبّ في طرق التمثيل السياسي القائمة. لكن علينا أن نتجنّب بأيّ ثمن الاحتفاءَ بابتعاد هذه الاحتجاجات عن السياسات القائمة. هنا تنتظرنا مهمة "لينينية" شاقة: كيفية تنظيم الاستياء المتنامي بجميع صوره، بما في ذلك الاحتجاجات البيئية والنسوية، في حركة منسَّقة واسعة النطاق. فما ينتظرنا إن أخفقنا في ذلك هو مجتمعاتٌ تعيش حالات الظروف الاستثنائية الدائمة والقلاقل الأهلية.

4

مخاطر تناول كوب من القهوة مع أسانج

يوم الخميس 21 تشرين الثاني/ نوفمبر 2019، زرتُ جوليان أسانج Julian Assange في سجن بيلمارش، وقد صدمني تفصيل صغير، غير ذي شأن بحدّ ذاته، بوصفه رمزاً لطريقة عمل السجون التي تراعي رفاهيتنا وحقوق الإنسان الخاصة بنا (زوّارا وسجناء). كان الحراس جميعاً في غاية اللطف وأكّدوا مراراً وتكراراً أنّ كلّ ما يفعلونه هو من أجل مصلحتنا. فعلى سبيل المثال، رغم أنّ أسانج يقضي حالياً مدّة عقوبته ولا يزال في السجن بموجب قرار بالحبس الاحتياطي لكنّه يمضي في الحجز الانفرادي ثلاثاً وعشرين ساعة في اليوم، وعليه أن يتناول وجباته كلها وحيداً في زنزانته، وحين يُسمح له بالخروج ساعة واحدة لا يستطيع الالتقاء بباقي السجناء، كما أنّ تواصله مع حارس يرافقه يقتصر على الحدود الدنيا. لمَ هذه المعاملة القاسية؟ كان التفسير المُقدّم إلي متوقَّعا: إنّها من أجل مصلحته الخاصة (بما أنّه خائن يكرهه كثيرون، فقد يتعرض لهجوم إذا اختلط مع الآخرين...). لكنّ الحالة الأشدّ جنوناً لهذه الرعاية من أجل "مصلحتنا" حدثت عندما أحضر مساعد أسانج الذي كان يرافقني كوباً من قهوة وضِع على طاولة حيث كنا نجلس، أنا وجوليان. نزعت الغطاء البلاستيكي للكوب، وارتشفت رشفة، ثمّ أعدت الكوب إلى مكانه على الطاولة من دون وضع الغطاء عليه. فوراً (بعد ثانيتين أو ثلاث) اقترب حارسٌ مني وأومأ بيده (بلطف بالغ، إنّه سجن إنساني إن كان هنالك أيّ سجن تنطبق عليه هذه الصفة) أنّه يتعيّن عليّ إعادة وضع الغطاء على كوب القهوة. أعدته كما طُلب مني مع أنّ الطلب فاجأني قليلاً، فسألت أحد العاملين أثناء مغادرتي السجن عن السبب. ومجدَّدا كانت الإجابة، وهي إنسانية دافئة بالطبع، عبارةً من قبيل: "من أجل مصلحتكم وحمايتكم، يا سيدي. لقد كنت تجلس أمام طاولة مع سجين خطر وكان من المحتمل أن تتعرّض لسلوكات عنيفة وهو يشاهد بينكما كوباً مكشوفاً من القهوة الحارة...". شعرت بدفء يتسلل إلى قلبي لأنّني تمتّعت بمثل هذه الحماية المشدّدة. تخيلوا فحسب أيّ تهديد كان بالإمكان أن أتعرض له لو زرت أسانج في

سجن روسي أو صيني! لتجاهَل الحرّاس من دون شكّ تدبير السلامة النبيل هذا وعرّضوني لخطر محدق!

كانت زيارتي بعد بضعة أيام من إسقاط السويد مطالبتها بتسليم أسانج معترفة بكلّ وضوح، بعد مزيدٍ من الاستماع للشهود، بأنه لا يوجد ما يستدعي الملاحقة القضائية. غير أنّ هذا القرار لم يخلُ من خلفية تُنذر بالشؤم. فعندما تكون هنالك مطالبتان لتسليم شخص ما، يترتّب على القاضي أن يقرّر أيتهما تأتي بالمرتبة الأولى، فإن جرى اختيار قرار التسليم للسويد، فربّما يتعرض قرار التسليم للولايات المتحدة للخطر (من الممكن أن يؤجّل، وقد ينقلب الرأي العام عليه...). أمّا مع المطالبة الوحيدة حالياً من الولايات المتحدة بالتسليم، فالوضع أشدّ وضوحاً بكثير.

إذاً آن أوان طرح السؤال الأساسي: هل احتاجت السويد حقاً ثمانية أعوام لاستجواب بضعة شهود ومن ثمّ إثبات براءة أسانج (ما أدّى إلى تدمير حياته أثناء هذه المدة الطويلة وساهم في تشويه سمعته)؟ الآن وقد تبيّن بوضوح أنّ اتهامات الاغتصاب كانت كاذبة، لم تمتلك أجهزة الدولة السويدية ولا الصحافة البريطانية المتورّطة في تشويه سمعة أسانج فضيلة تقديم اعتذار صريح. أين هم أولئك الصحافيون الذين كتبوا أنّه ينبغي تسليم أسانج للسويد بدلاً من الولايات المتحدة، أو، بالمناسبة، أولئك الذين ثرثروا أنّ أسانج مصاب بجنون العظمة وأنّه لن يكون ثمّة تسليم بانتظاره، وأنّه إن غادر السفارة الإكوادورية، فسيكون حراً خلال أسابيع قليلة يقضيها في السجن، وأنّ كلّ ما عليه أن يخشاه هو الخشية نفسها؟ الزعم الأخير هو من وجهة نظري أحد أشكال أدلّة النفي على عدم وجود الله: إن كان هنالك إلهٌ عادل، فستضرب صاعقة صاحب هذه العبارة الفاحشة، المقتبسة من طرفة مشهورة لفرانكلين ديلانو روزفلت F. D. Roosevelt تعود إلى أيام الكساد العظيم.

وما دام قد سبق لي ذكر الصين، لن أستطيع منع نفسي من تذكير القارئ بما أثار في هونغ كونغ شرارة الاحتجاجات الضخمة التي تواصلت أشهراً: طالبت الصين بأن توافق هونغ كونغ على قانون يلزم سلطاتها تسليم مواطنيها للصين حين تطالب الصين بذلك. يبدو لي الآن أنّ المملكة المتحدة أشدّ إذعاناً للولايات المتحدة من إذعان هونغ كونغ للصين. فالحكومة البريطانية لا تجد ضيراً في تسليم شخص متّهم بجريمة سياسية للولايات المتحدة. بل إنّ لطلب الصين ما يبرّره ما دامت هونغ كونغ في نهاية المطاف جزءاً من الصين لأنّ الصيغة تنصّ على وجود "بلد واحد بنظامين".

لكن من الواضح أنّ العلاقة بين المملكة المتحدة والولايات المتحدة تتمثّل في صيغة "بلدين بنظام واحد" (النظام الأميركي بطبيعة الحال). يُروَّج لخروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي بصفته تأكيداً للسيادة البريطانية. نستطيع الآن بخصوص أسانج أن نرى بالفعل ما تعنيه هذه السيادة، فهي تعني إذعاناً لمطالب الولايات المتحدة.

الآن هو الوقت المناسب كي يُعلِن مؤيدو الخروج من الاتحاد الأوروبي الشرفاء جميعاً رفضهم القاطع تسليم أسانج. لم نعد نتعامل مع مسألة سياسية أو قانونية بسيطة، بل مع ما يتعلّق بالمعنى الجوهري لحريتنا وحقوق الإنسان الخاصة بنا. متى ستفهم عامّة الناس أنّ قضية أسانج هي قضيتهم، وأنّ مصيرهم نفسه سيتأثر إلى أبعد الحدود بتسليمه أو عدم تسليمه؟ علينا مدّ يد العون إلى أسانج ليس بدافع قلق إنساني غامض والتعاطف مع ضحية بائسة، بل بدافع القلق على مستقبلنا.

5

تشريح انقلاب
الديموقراطية و"الكتاب المقدّس" والليثيوم

رغم أنّني كنت من أشدّ مؤيدي إيفو موراليس Evo Morales لأكثر من عقد، عليّ الاعتراف بعد أن قرأت عن البلبلة التي أعقبت انتصاره الانتخابي المتنازع عليه في 2019 بأنّ الشكوك أحاطت بي: هل استسلم أيضاً لإغواء الاستبداد كما حدث لكثيرين من اليساريين الراديكاليين الذين وصلوا إلى السلطة؟ غير أنّ الأمور اتّضحت بعد يوم أو يومين.

صرّحت جانين آنييز Jeanine Añez وهي النائب الثاني لرئيس مجلس الشيوخ ملوّحة بنسخة ضخمة مغلّفة بالجلد من **الكتاب المقدّس** معلنة نفسها رئيساً مؤقّتًا لبوليفيا بما يلي: "لقد عاد **الكتاب المقدّس** إلى القصر الحكومي"[9]، وأضافت: "نريد أن نكون أداة ديموقراطية للاندماج والوحدة". غير أنّ مجلس الوزراء المؤقّت الذي أدّى اليمين الدستورية لمّ يضمّ شخصاً واحداً من السكّان الأصليين. وهذا يوضّح كلّ شيء: رغم أنّ غالبية سكّان بوليفيا هم من السكّان الأصليين أو عرق مختلط، لكنّهم كانوا حتّى صعود موراليس مستبعدين بحكم الأمر الواقع من الحياة السياسية، ومختزلين بغالبية صامتة تقوم على أعمال المجتمع القذرة في الخفاء. لقد كان ما جرى مع موراليس يقظة سياسية لهذه الغالبية الصامتة التي لم تجد مكانها في شبكة العلاقات الرأسمالية. لم تكن قد صارت بعد طبقة بروليتارية بالمعنى الحديث، وبقيت غارقة في هوياتها الاجتماعية القبلية ما قبل الحداثية. إليكم كيف وصف ألفارو غارثيا لينيرا Álvaro García Linera وهو نائب الرئيس موراليس أوضاعهم[10]:

9 Nathan J. Robinson, "Lessons from the Bolivian Coup," *Current Affairs*, November 26, 2019, https://www.currentaffairs.org/2019/11/lessons-from-the-bolivian-coup

10 مقابلة أجراها مارسيلو موستو Marcello Musto مع ألفارو غارثيا لينيرا:

"Bolivian Vice President Álvaro García Linera on Marx and Indigenous Politics," Truthout, November 9, 2019, https://truthout.org/articles/bolivian-vice-president-alvaro-garcia-linera-on-marx-and-indigenous-politics/

> يُنتِج الغذاءَ في بوليفيا مزارعون من السكّان الأصليين، ويبني المساكن عمال من السكّان الأصليين، وينظف السكّان الأصليون الشوارع، وتعهد النخبة والطبقات المتوسطة إليهم رعاية أطفالهم. غير أنّ اليسار التقليدي بدا غافلاً عن ذلك، ولم يشغل نفسه إلّا بالعمال في الصناعات الكبيرة من غير أن يولي أيّ اهتمام بهويتهم الإثنية.

يتعيّن علينا لفهم سكّان بوليفيا الأصليين أن نُدخل في الصورة محنتهم التاريخية بكلّ وطأتها: إنّهم الناجون ممّا قد يُعَدّ أكبر إبادة في تاريخ البشرية، وقد محا الاستعمار الإسباني والإنكليزي للأميركيتين مجتمعاتهما المحلية.

تمثّل ديانة السكّان الأصليين مزيجاً فريداً من الكاثوليكية والإلهة باشاماما Pachamama أو شخصية الأرض الأم. لهذا، فقدت كنيسة الروم الكاثوليك وضعها الرسمي في الدستور البوليفي الحالي (الصادر في 2009) رغم إعلان موراليس أنّه كاثوليكي. تنصّ المادة الرابعة من الدستور على أنّ "الدولة تحترم وتضمن حرية الدين والمعتقدات الروحية وفقاً لنظرتها إلى العالم. الدولة مستقلة عن الدين". وقد كان عرض آنيز **الكتاب المقدّس** اعتراضاً مباشراً على مثل هذه التأكيدات المتعلّقة بثقافة السكّان الأصليين. الرسالة واضحة: تأكيد صريح للتفوق الديني الأبيض، ومحاولة لا تقلّ صراحة لإعادة الغالبية الصامتة إلى مكانتها الأصلية الأدنى. ناشد موراليس من منفاه في المكسيك البابا بالتدخّل، وسيخبرنا ردّ فعل البابا بالكثير. هل سيستجيب فرانسيس كمسيحي حقيقي ويرفض رفضاً لا لبس فيه إعادة كثلكة بوليفيا قسرياً بوصفها تلاعباً سياسياً بالسلطة يخون جوهر المسيحية التحرّري؟

لو وضعنا جانباً الدور المحتمل لليثيوم في الانقلاب (تمتلك بوليفيا احتياطات ضخمة من هذه المادّة الضرورية للبطاريات في السيارات الكهربائية)، فالسؤال الكبير: لماذا تُعَدّ بوليفيا شوكة في خاصرة المؤسسة الليبرالية الغربية؟ الإجابة بالغة الغرابة: الحقيقة المدهشة المتمثّلة في أنّ اليقظة السياسية لقبلية ما بعد الحداثة لم تُسفر عن نسخة جديدة من عروض الرعب التي قدّمتها منظمة "الدرب المضيء" وجماعة "الخمير الحمر". لم يمثّل عهد موراليس قصة اليسار الراديكالي المعتادة في السلطة، من قبيل إفساد الأمور على الصعيدين الاقتصادي

والسياسي، وتوليد الفقر، ومحاولة الحفاظ على السلطة بالتدابير الاستبدادية. من الأدلّة التي تشهد على الطابع غير الاستبدادي لحكم موراليس أنّه لم يجر عمليات تطهير في مؤسستي الجيش والشرطة للتخلّص من خصومه (هذا هو السبب في أنّهم انقلبوا عليه).

لم يكن موراليس وأتباعه مثاليين بطبيعة الحال، وارتكبوا أخطاءً وكانت هنالك تضاربات في المصالح داخل حركته. لكنّ الرصيد الإجمالي رصيدٌ رائع. موراليس ليس تشافيز Chavez؛ لم تكن لديه أموال النفط لتهدئة المشكلات، فتعيّن على حكومته الانهماك في عمل شاق وصبور لحلّ المشكلات في البلد الأكثر فقراً في أميركا اللاتينية. لم تكن النتيجة أقلّ من معجزة: ازدهر الاقتصاد وانخفض معدّل الفقر وتحسّنت الرعاية الصحية، وفي الوقت عينه، واصلت المؤسّسات الديموقراطية العزيزة على الليبراليين عملها. حافظت حكومة موراليس على توازن دقيق بين أنماط الأنشطة المجتمعية للسكّان الأصليين والسياسات الحديثة، مكافِحةً في الوقت عينه في سبيل التقاليد وحقوق المرأة.

لسرد قصة الانقلاب كاملةً في فنزويلا، سنحتاج إلى واشٍ للكشف عن الوثائق ذات الصلة. لكنّ الأمر الجليّ هو أنّ موراليس ولينيرا وأتباعهما كانوا شوكة في خاصرة المؤسّسة الليبرالية تحديداً لأنّهم نجحوا: تولّى اليسار الراديكالي السلطة لعقد ونيّف ولم تتحوّل بوليفيا إلى كوبا أو فنزويلا؛ الاشتراكية الديموقراطية ممكنة.

6

تشيلي
نحو دالّة جديدة

نيكول باريا أسينجو وسلافوي جيجيك

ثمّة حدثان وقعا حديثاً بعثا بارقة أملٍ في عصرنا البائس: الانتخابات في بوليفيا والاستفتاء الشعبي على الموافقة (APRUEBO) على تغيير الدستور في تشيلي. في بوليفيا، عاد حزب إيفو موراليس إلى السلطة بانتخاب لويس آرسي Lucho Arce، وزير الاقتصاد في سنوات موراليس، رئيساً جديداً لبوليفيا. أمّا في تشيلي، فاستُفتي الناخبون التشيليون في 25 تشرين الأول/ أكتوبر على الاختيار بين الموافقة "apruebo"على تغيير الدستور باتجاه تحقيق مزيد من الحريات والعدالة الاجتماعية أو رفض "rechazo" هذا التغيير. في كلتا الحالتين لدينا تداخل نادر بين ديموقراطية "شكلية" (انتخابات حرّة) وإرادة الشعب الجوهرية. وفي حين يختلف ما حدث في بوليفيا عمّا في تشيلي، أتمنى أن يتشاطر البلدان الحصيلة عينها على المدى البعيد.

تثبت الأحداث الجارية في بوليفيا وتشيلي أنّه رغم كلّ التلاعبات الأيديولوجية، ففي إمكان ما تُطلق عليها تسمية "الديموقراطية البرجوازية" أن تنجح أحياناً. غير أنّ الديموقراطية الليبرالية بلغت اليوم حدودها القصوى. فمن أجل أن تنجح عليها أن تتزوّد بـ... ماذا؟ ثمّة ما هو مثير للاهتمام يظهر حالياً في فرنسا في ردّ فعلٍ على انعدام ثقة الجمهور الواسع بمؤسّسات الدولة: انبعاث مجالس المواطنين المحلية التي طبّقها لأول مرّة قُدامى الإغريق. وكما كتب بيتر يونغ Peter Yeung في صحيفة *The Guardian*:

> يعود تاريخ الإكليسيا (ecclesia) أو المجلس الشعبي لمواطني أثينا القديمة إلى عام 621 قبل الميلاد، وقد كان منتدىً يستطيع أيّ مواطنٍ رجلٍ أن يشارك فيه بمعزلٍ عن طبقته الاجتماعية. الآن مع أزمة اجتماعية اقتصادية

تلوح في الأفق بسبب الجائحة، يجري تحديث هذه الأداة الديموقراطية القديمة لتتناسب مع القرن الحادي والعشرين. تتوجّه حالياً بلدات ومدن ومناطق في أرجاء فرنسا إلى مواطنيها للمساعدة في توجيههم نحو مستقبل يتسم بقدرٍ أكبر من المساواة.[11]

[11] Peter Yeung, "'It Gave Me Hope in Democracy': How French Citizens Are Embracing People Power," *The Guardian*, November 20, 2020, https://www.theguardian.com/world/2020/nov///20/it-gave-me-hope-in-democracy-how-french-citizens-are-embracing-people-power

لم تنظّم أجهزة الدولة المحلية هذه المنتديات، فقد نظّمها ذاتياً أعضاء ناشطون في المجتمعات المحلية خارج نطاق الدولة وقد تضمّنت عنصر قوّة من عوامل الحظ والمصادفة. كان عدد المندوبين المختارين عشوائياً 150. نجد إجراءً مماثلاً تماثلاً غامضاً في تشيلي بعد الفوز باستفتاء الموافقة حين اختير 155 فرداً من خارج القوى السياسية المؤسّسية للعمل على وضع مشروع دستور جديد.

يُنسَب إلى مارك توين Mark Twain القول التالي: "إذا كان التصويت سيُحدث أيّ فارق، فلن يدعونا نصوّت". ما من دليل على أنّه قال ذلك حقاً أو كتبه. أمّا أصل القول الأكثر رجحاناً، فهو عمود صحافي كتبه في 1976 روبرت س. بوردن Robert S. Borden في *Lowell Sun*. كتب بوردن في استعراضه نظامَ الولايات المتحدة الانتخابي ما يلي: "هل بدا للمحررين يوماً أنّ مواقف 70 مليون من غير المقترعين المتوقَّعين قد تتفق تماماً مع حقيقة أنّ مفهوم التصويت وانتخاب الممثّلين هو أساساً غير نزيه وزائف؟ إن كان في وسع التصويت أن يغيّر أيّ شيء، فسيكون غير قانوني!".[12] ومع ذلك، نُسب القول إلى توين لسبب وجيه هو أنّه يعكس موقفه بإخلاص. ومع أنّ توين كان أحد المدافعين عن حقوق التصويت للجميع (ضمنهم المرأة) وحثّ الناس على التصويت، كان متشكِّكا للغاية بشأن المكائد التي تمنع الغالبية من التعبير عن إرادتها. على المرء أن يقبل الأطروحة المقتبسة من حيث المبدأ بوصفها صالحةً عموماً لكن عليه أن يبني هذه العمومية على استثناء. بين حينٍ وآخر، وفي حالات نادرة، ثمّة انتخابات واستفتاءات تمتاز بالأهمية. ورغم أنّ هذه الانتخابات هي الوحيدة التي تستحق بأن توصف بأنّها "ديموقراطية"، لكنّها كقاعدة تُفسَّر كعلامةٍ على عدم الاستقرار، وكمؤشّر على أنّ الديموقراطية عرضة للخطر.

12 “Quote on Voting Doesn’t Tally as Mark Twain,” AAP FactCheck, December 19, 2019, https://factcheck.aap.com.au/social-media-claims/quote-on-voting-doesnt-tally-as-mark-twain

قام الانقلاب على نظام موراليس في بوليفيا بشرعنة نفسه بوصفه عودةً إلى ”الحالة الطبيعية“ البرلمانية مقابل خطر ”الشمولية“ التي سيلغي موراليس بموجبها الديموقراطية ويحوّل بوليفيا عبرها إلى كوبا أو فنزويلا جديدة. أمّا الحقيقة، فتتمثّل في أنّ بوليفيا خلال عقد من حكم موراليس أقامت بالتأكيد ”حالة طبيعية“ جديدة موفّقة تجمع بين تعبئة الناس الديموقراطية وتقدٍّم اقتصاديٍ جليّ. وكما بيّن رئيس البوليفيين الجديد لويس آرسي، وهو وزير الاقتصاد في عهد موراليس، فإنّهم تمتّعوا في عقد أثناء حكم موراليس بأفضل سنوات حياتهم. الانقلاب على موراليس هو المسؤول عن تدمير هذه الحالة الطبيعية التي تحقّقت بشقّ الأنفس، وعن إحداث ما استجدّ من بؤس وفوضى. إذاً، مع النصر الانتخابي الذي حقّقه آرسي، ليس على بوليفيا أن تبدأ من الصفر، بل سيكون كافياً بالنسبة إليها العودة فحسب إلى ما كان قائماً قبل الانقلاب والانطلاق من هناك.

أمّا في تشيلي، فالوضع أشدّ تعقيداً. يُعَدّ تشرين الأول/ أكتوبر شهر التشيليين بجدارة. شهرٌ شهد انعطافات جذرية في تاريخ البلد السياسي. ففي 24 تشرين الأول/ أكتوبر 1970 تم التصديق على فوز سلفادور أليندي Salvador Allende، وفي 18 تشرين الأول/ أكتوبر 2019، أعلنت احتجاجات شعبية واسعة نهاية التطبيع المتفجّر مع بينوشيه Pinochet، وفي 25 تشرين الأول/ أكتوبر 2020 (التاريخ عينه بالمناسبة لثورة تشرين الأول/ أكتوبر وفق التقويم الروسي القديم)، فازت حركة ”الموافقة“ على تغيير الدستور التي حملت معها اختفاء الرموز المقترنة بحقبة بينوشيه من الفضاء العام. إذاً، لم يكن تشرين الأول/ أكتوبر مجرد شهر آخر في تقويم تشيلي، فقد ارتبط ارتباطاً عميقاً بضروب قطيعة تاريخية ورمزية قرّر الشعب الاضطلاع بها.

رغم احترام أليندي القواعد الديموقراطية الشكلية كافة، فإنّه نفّذ سلسلة من الإجراءات رأتها الطبقة الحاكمة غايةً في ”التطرّف“. هكذا، نظّمت الطبقة الحاكمة بدعم فعّال من الولايات المتحدة سلسلة من الأعمال التخريبية على الصعيد الاقتصادي، وحين لم تقلّل هذه الأعمال من التأييد الشعبي لأليندي، أطاح انقلاب عسكري بحكومته في 11 أيلول/ سبتمبر 1973 (كارثة 11 أيلول/ سبتمبر الحقيقية).

بعد أربع سنوات من الديكتاتورية العسكرية المحض، عُهد في 1977 بوضع دستور سياسي لتشيلي إلى "لجنة دراسات الدستور الجديد" المؤلّفة من اثني عشر شخصاً عيّنتهم الطغمة العسكرية. وعدّل مجلس الدولة الذي عيّنته الطغمة أيضاً المسوّدة التي وضعتها هذه المجموعة، وفي نهاية المطاف، أجرى الجنرال بنوشيه بنفسه التعديلات النهائية عليها. كان الغرض من هذه الوثيقة ضمان بقاء النموذج المطبّق في البلد، ما يبقي إمكانية الحرّية المستقبلية معلَّقة في ما يخصّ القرارات الاقتصادية التي يمكنها تهديد مثل هذا النموذج.

هكذا، فرض بينوشيه تطبيعه "الديموقراطي" مع الدستور الجديد الذي يضمن على نحو آمن امتيازات الأغنياء ضمن نظام نيوليبرالي. تُعَدّ الاحتجاجات التي اندلعت في تشرين الأول/ أكتوبر 2019 دليلاً على أنّ الطابع الديموقراطي الذي أضفاه بينوشيه كان مجرّد خدعة كما الحال مع كلّ ديموقراطية تتغاضى عنها سلطة ديكتاتورية أو حتّى تروّج لها. ركّزت حركة "الموافقة" التي انبثقت من هذه الاحتجاجات بحصافةٍ على تغيير الدستور. وأوضحت لغالبية التشيليين أنّ التطبيع الديموقراطي الذي نسّقه بينوشيه كان استمراريةً لنظام بينوشيه بأدوات أخرى: ظلّت قوى بينوشيه في الخلفية بوصفها "دولة عميقة" تضمن عدم خروج اللعبة الديموقراطية عن السيطرة. أمّا الآن وقد تحطّم وهم التطبيع الديموقراطي الخاص ببينوشيه، فينتظرنا عمل شاق حقيقي. إذ على النقيض من بوليفيا، لا تمتلك تشيلي نظاماً راسخاً بالفعل لتعود إليه، فسيتعيّن عليها أن تبني بحرصٍ نظاماً طبيعياً جديداً لن تصلح فيه حتّى سنوات أليندي الذهبية لتكون نموذجاً.

هذا الدرب محفوف بمخاطر جمّة. فالفوز الانتخابي مجرّد بداية؛ العمل الشاق الحقيقي يبدأ في اليوم التالي حين تكون الحماسة قد ولّت ويبنى بصبرٍ النظام الطبيعي الجديد للعالم ما بعد الرأسمالي. في الأسابيع والشهور المقبلة غالباً ما سيسمع الشعب التشيلي من أعدائه السؤال الأبدي: "حسناً، الآن وقد نجحتم، هل تستطيعون إخبارنا بما تريدونه على وجه التحديد؟ هل تستطيعون تعريف مشروعكم بوضوح؟". لعلّ الإجابة تتضح من دعابة قديمة من الولايات المتحدة تحكي عن امرأة متمرّسة أرادت تعريف مغفّل على الجنس. عرّته من ثيابه، ودلّكت عضوه قليلاً، وحين اقترب من القذف باعدت رجليها ووجّهت قضيبه نحو فرجها. ثمّ قالت له: "ها نحن ذا، الآن حرّك قضيبك قليلاً نحو الداخل ونحو الخارج، ثمّ نحو

الداخل ونحو الخارج، نحو الداخل ونحو الخارج...". بعد دقيقة أو نحوها انفجر المغفّل غضباً: "هل تستطيعين أخيراً أن تقرّري نحو الداخل أم نحو الخارج؟".

سيتصرّف من سينتقدون تشيلي على غرار هذا المغفّل تماماً: سيطالبون بقرار واضح بشأن شكل المجتمع الجديد الذي يريدونه. لكن من الواضح أنّ انتصار حركة "الموافقة" ليس خاتمة المطاف، أو خاتمة كفاح؛ إنّه بداية سيرورة طويلة وشاقّة نحو بناء نظامٍ طبيعيٍ ما بعد بينوشيه، سيرورة حافلة بكثير من الارتجالات والتقدّم والتقهقر. سيكون هذا الكفاح بطريقة ما أشدّ صعوبة من الاحتجاجات وحملة حركة "الموافقة" على تغيير الدستور. للحملة عدوّ واضح ولم يكن عليها سوى التعبير عن ضروب الظلم والبؤس التي تسبّب فيها هذا العدو، مع أهداف تحرّرية لها طابعٌ مجرَّد مريح: الكرامة والعدالة الاجتماعية والاقتصادية، وما شابه. أمّا الآن، فعلى حركة "الموافقة" تفعيل برنامجها، وترجمته إلى سلسلة من الإجراءات الملموسة، الأمر الذي سيبرز الخلافات الداخلية كافّة التي يجري تجاهلها وسط تآلف الناس الحماسي (بالعودة إلى دعابتنا البذيئة، ينبغي أن يعامل شعب تشيلي خصومه تماماً على شاكلة التعامل مع المغفّل جنسياً، والقول لهم: "لا، لقد بدأنا سيرورة طويلة وممتعة حيث لا توجد خاتمة سريعة، وسنمضي رويداً رويداً نحو الداخل ونحو الخارج، نحو الداخل ونحو الخارج، إلى اللحظة التي يتمّ فيها إرضاء شعب تشيلي إرضاءً تاماً!").

لقد ظهرت بالفعل تهديدات تعترض السيرورة التحرّرية. وكما كان متوقَّعا، يحاول بعض اليمينيين الاستئثار بخطاب الديموقراطية الاجتماعية في مواجهة "متطرّفي" حركة "الموافقة". لكن حتّى داخل الحركة نفسها هنالك بوادر نزاع بين من يريدون البقاء ضمن الديموقراطية التمثيلية التقليدية ومن يريدون تعبئة اجتماعية أكثر جذرية. لا يتمثّل المَخرج من هذا المأزق في التعثّر في نقاشات "مبدئية" مضجرة، بل في الشروع في العمل ووضع مشاريع متنوعة وتنفيذها. دانيال خادويه Daniel Jadue هو الشخص المنشود لتنسيق هذه الجهود، خاصّة بالنظر إلى إنجازاته كرئيس بلدية ريكوليتا. أصبحت أغنية "El Baile de Los Que Sobran" [رقصة من تبقّى] لفرقة Los Prisioneros [السجناء] التشيلية التي لاقت نجاحاً منقطع النظير الشعارَ الموسيقي للمحتجّين الذين احتلّوا الشوارع. أمّا الآن، فتشيلي بحاجة إلى "el trabajo duro de los que sobran" [العمل الشّاق لمن تبقّى]. إن لم يحدث هذا

الشروع بالعمل، فسوف ينجو النظام القديم وعلى وجهه قناع ديموقراطي اجتماعي جديد وستعيد مأساة 1973 (الانقلاب على أليندي) نفسها على هيئة مهزلة ما بعد حداثية ساخرة.

من الخطورة التنبؤ بكيفية انتهاء هذا الصراع. العقبة الأساسية هنا هي إرث الانفتاح التدريجي (الزائف) لنظام بينوشيه الديكتاتوري وليس إرثه بحدّ ذاته، ولا سيما في تسعينيات القرن العشرين، حين خضع المجتمع التشيلي لما يمكن أن نُطلق عليه تسمية ما بعد تحديثٍ سريع: تفشّي مبدأ المتعة الاستهلاكي، إباحية جنسية سطحية، فردانية تنافسية... وما إلى ذلك. أدرك الممسكون بزمام السلطة أنّ مثل هذا الفضاء الاجتماعي المذرّر أكثر فعالية بكثيرٍ من قمع الدولة المباشر للمشاريع اليسارية الراديكالية التي تعتمد على التضامن الاجتماعي: تستمر الطبقات في الوجود "في ذاتها" ولكن ليس "من أجل ذاتها"، أي أرى الآخرين من طبقتي كمنافسين أكثر ممّا هم أعضاء في مجموعة واحدة لديها مصالح تضامنية. يعمل قمع الدولة المباشر على توحيد المعارضة وتعزيز صور منظّمة من المقاومة، في حين أنّ الاستياء الشديد في مجتمعات "ما بعد الحداثة" يتّخذ نمط ثورات فوضوية سرعان ما تنقطع أنفاسها وعاجزة عن بلوغ المرحلة "اللينينية" المتمثّلة في قوّة منظّمة لها برنامج واضح.[13]

13 للاطلاع على تحليل مفصّل لهذا الموضوع، انظر:

Jamadier Esteban Uribe Munoz and Pablo Johnson, "El pasaje al acto de Telémaco: psicoanálisis y política ante el 18 de octubre chileno," to appear in *Política y Sociedad* (Madrid).

ما يمنح بارقة أمل في تشيلي هو وجود مجموعة من السمات المحدّدة سنكتفي بذكر اثنتين منها. أولاهما مشاركة سياسية قوية من محلّلين نفسيين معظمهم من أتباع لاكان Lacan اليساريين الذين أدّوا دوراً مؤثّراً في الاحتجاجات التي اندلعت في تشرين الأول/ أكتوبر 2019، وكذلك في التنظيم الذي أفضى إلى فوز حركة "الموافقة" في الاستفتاء. وثانيتهما أنّ الشعبوية اليمينية الجديدة لم تحرز نجاحاً أبداً في تشيلي (كما الحال في بلدان أخرى مثل بوليفيا، لكن على العكس من البرازيل)، إذ إنّ للحشد الشعبي طابع يساري واضح. هل ترتبط هاتان السمتان بطريقة ما؟

أين يقف التحليل النفسي بالنسبة إلى التغيير الاجتماعي الجذري؟ غالباً ما يحتّل موقعاً ليبرالياً "معتدلاً" وينتابه القلق حيال الأشراك التي تعترض سيرورة تحرّرية جذرية. يقدّم لاكان هنا حالة نموذجية. لقد أظهر بوضوح أنّ التناقض الأساسي في حياتنا النفسية لا يتمثّل في التناقض بين الأنانية والإيثار، بل في التناقض بين مجال الخير بكلّ مظاهره ومجال ما وراء مبدأ اللذة بكلّ مظاهره (الغلوّ في الحب ودافع الموت والحسد والواجب...). من الناحية الفلسفية، قد يكون خير مثال على هذا أرسطو وكانط: أخلاقيات أرسطو هي أخلاقيات الخير، أخلاقيات الاعتدال، التدبير المناسب الموجّه ضدّ ضروب الغلوّ، في حين أنّ أخلاقيات كانط هي أخلاقيات الواجب غير المشروط الذي يفرض علينا التصرّف بما يتجاوز كلّ تدبير مناسب، حتّى لو ترتّبت على تصرّفاتنا كارثة. إذاً، لا عجب أن يجد كثير من النُقّاد في صرامة كانط "تعصًّبا" مسرفاً، ولا عجب في أنّ لاكان استشّف في الإلزام الأخلاقي الكانطي غير المشروط الصيغة الأولى لأخلاقياته الخاصّة بالإخلاص لرغبة المرء. إنّ أخلاقيات الخير هي في نهاية المطاف أخلاقيات السلع، والأشياء القابلة للقسمة والتوزيع والتبادل (مع سلعٍ أخرى).

هذا هو السبب في تشكّك لاكان العميق في مفهوم عدالة التوزيع. فهي تظلّ قائمة على صعيد توزيع السلع ولكن ليس في وسعها حتّى التعامل مع مفارقة الحسد البسيطة نسبياً. ماذا لو كنت أفضّل الحصول على كمية أقلّ إذا كان جاري يحصل على كمية أقلّ من التي أحصل عليها (هذا الوعي بأنّ جاري أكثر حرماناً مني يمنحني متعة إضافية)؟ لهذا، ينبغي رفض مذهب المساواة نفسه بقيمته الإسمية. ففكرة العدالة القائمة على المساواة (وممارستها) تعتمد بقدر ما يُديمها الحس على عملية عكس التنازل المعياري لمصلحة الآخرين: "أنا مستعدٌّ للتخلي عنه على ألا يكون (في وسع) الآخرين (أيضاً) الحصول عليه!" الشر بعيدٌ كلّ البُعد عن أن يكون معارضةً لروح التضحية لكنّه يظهر هنا كأنّه جوهر روح التضحية: استعداد لتجاهل رفاهيتي إذا كان في وسعي عبر تضحيتي حرمان الآخر متعته...

لكنّ ذلك لا يصلح كحجّة عامّة ضدّ مشاريع التحرّر على أساس المساواة كافّة ولكن فحسب ضدّ أولئك الذين يركّزون على إعادة التوزيع. علينا ألّا ننسى أبداً أنّ عدالة التوزيع هي تصوّر ليبرالي يساري (أو اشتراكي ديموقراطي): لا نزال ضمن النظام الرأسمالي للإنتاج بوصفه "النظام الوحيد الناجح حقاً"، ونحاول حصراً تصحيح

فقدان التوازن في توزيع الثروة عن طريق فرض ضرائب كبيرة على الأغنياء. ينبغي أن يكون هدفنا اليوم أكثر جذرية. ومثلما بات أشدّ وضوحاً بفعل الأزمات الحالية (جائحة كورونا والاحتباس الحراري وحرائق الغابات، وغيرها)، فقد بلغ النظام الرأسمالي العالمي حدوده القصوى، وهو يهدّد بدفع البشرية بأسرها نحو هاوية التدمير الذاتي. حالما ندرك ذلك، لن تعود صالحةً النزعة المحافظة الليبرالية المتشائمة التي يدافع عنها جاك آلان ميلر Jacques–Alain Miller. يصدّق ميلر على "الحكمة" المحافظة القديمة ومفادها أنّه من أجل الحفاظ على الاستقرار يتعيّن علينا احترام واتّباع الإجراءات الروتينية التي حدّدها خيارٌ يكون

> تعسفياً واستبدادياً على الدوام. "ما من تقدّمية تصمد"، بل بالأحرى نوع معيّن من مبدأ المتعة يُدعى "ليبرالية التمتّع". على المرء الحفاظ على سلامة روتين الحاضرة وقوانينها وتقاليدها، وقبول أنّ نوعاً من الظلامية ضروريّ للحفاظ على النظام الاجتماعي. "ثمّة أسئلة على المرء ألّا يطرحها. إذا قلبت سلحفاة أليفة على ظهرها، فلن تنجح أبداً في إعادتها إلى وضعية وقوفها على قوائمها".[14]

[14] Nicolas Fleury, *Le réel insensé: Introduction à la pensée de Jacques-Alain Miller* (Paris: Germina, 2010), p. 96 (quotes in the quote from J.-A. Miller).

ليس في وسع المرء ألّا يلاحظ أنّ تشيلي تُقدّم في تسعينيات القرن العشرين "الإباحية" حالة مثالية لهذا النوع من "ليبرالية التمتّع" التي تحافظ على سلامة روتين الحاضرة. وبالفعل، يبيّن ميلر من دون خوف الآثار السياسية المترتّبة على تصوّره للمحلّل النفسي الذي "يشغل موقع شخص ساخر يحرص على تجنب التدخّل في الميدان السياسي. يتصرّف على هذا النحو كي تبقى المظاهر الخارجية في أماكنها مع التأكّد من أنّ الذوات الخاضعة لرعايته لا تعتبرها حقيقية... على المرء أن يحمل نفسه على أن يظلّ مأخوذاً بها (مخدوعاً بها)"[15]. أمّا بخصوص السياسة، فلا يقترح المحلّل النفسي مشاريع لا يستطيع اقتراحها إلّا أن يسخر من مشاريع الآخرين، وهو ما يحدّ من نطاق تصريحاته. الشخص الساخر لا يمتلك مشروعاً رائعاً، فهو ينتظر الآخر كي يتحدّث أوَّلا ثمّ يعمل على إسقاطه في أقرب وقت... فلنقل إنّها حنكة سياسية ليس إلّا.[16]

15 المرجع السابق، ص. 93-94.

16 Jacques-Alain Miller, “La psychanalyse, la cité, les communautés,” *La cause freudienne* 68 (February 2008), pp. 109–110.

يتناسب هذا الأمر، مجدَّدا، على أفضل وجه مع مجتمع من مجتمعات ما بعد الحداثة يقوم فيه أولئك الذين يتولّون السلطة بأمور أكثر أهمية من "اقتراح المشاريع". إنّ اليسار العاجز (أو اليمين المتطرّف) هو من "يقترح المشاريع"، وتتمثّل مهمة المحلّلين النفسيين المتشائمين هنا في التحذير من المخاطر التي تنطوي عليها مثل هذه المشاريع... لكن ما العمل حين تكون السلحفاة (في نظامنا الاجتماعي) مقلوبة على ظهرها أصلاً، وجريحة في وضع لا توجد فيه طريقة لإعادتها إلى وضعها الطبيعي على قوائمها؟ ليس هنالك وقت لتوجيه تحذيرات بشأن مظاهر مربكة، مظاهر تدمّر نفسها بالفعل. ألم يربك محافظ مسيحي مدٍّع هو دونالد ترامب المظاهر بأكثر ممّا فعله اليساريون كافة الذين يعارضونه؟ في مثل هذه اللحظات، حين يكون النظام الاجتماعي في حالة من الفوضى، يميل منظّرو التحليل النفسي إلى الترويج لنوع آخر من التحذير: لا تثقوا بالثوريين الذين يتعهدون إخراجنا من الكارثة نحو نظام جديد أكثر عدلاً. يبدو هذا مطابقاً على أفضل وجه لموقف التحليل النفسي العام الذي تخفي وفقه حتّى أنبل تصرّفاتنا دافعاً شبقياً مازوخياً نرجسياً. تسترجع جاكلين روز Jacqueline Rose خيال فرويد Freud الجامح عن كيفية ظهور الطغيان حينما صعقت ويلات العصر الجليدي أوائل البشر:[17]

17 Jacqueline Rose, “To Die One’s Own Death,” *London Review of Books* 42, no. 22, November 14, 2020, https://www.lrb.co.uk/the-paper/v42/n22/jacqueline-rose/to-die-one-s-own-death

> كان ردّ الإنسان على مثل هذا التقييد الغاشم لدوافعه هستيرياً: نشأة الهيستيريا التحويلية (conversion hysteria) في العصر الحديث التي يكون فيها الليبيدو خطراً ينبغي كبحه. كذلك أصبح الإنسان طاغية، مانحاً نفسه هيمنة غير مقيّدة كمكافأة لقدرته على حماية حياة كثيرين: "كانت اللغة سحراً بالنسبة إليه، وبدت الأفكار كلّية القدرة بالنسبة إليه، فهِم العالمَ وفقاً لأناه". أُحب ذلك. الطغيان هو المرافق الصامت للكارثة، كما يتبيَّن ذلك على نحو صارخ اليوم في سلوك حُكّام بلدان عدّة في أرجاء العالم، ليس آخرهم دونالد ترامب الذي سيصبح قريباً الرئيس السابق لأميركا.

تستخلص روز هنا استنتاجاً عاماً: من العصر الجليدي حتّى مصائب وقتنا القائمة والمقبلة (الجائحة، الاحتباس الحراري، الشتاء النووي الذي سيعقب حرباً عالمية جديدة)، يتمثّل ردّ الفعل الغالب على الكارثة في صعود الطغيان بطريقة أو بأخرى، والمصيبة العالمية تُبرز أسوأ ما في الطبيعة البشرية. وتتابع:

ثمّة اليوم، وسط جائحة تبدو بلا نهاية، دعوات لأشكال جديدة من التضامن في الحياة وفي الموت ولوعيٍ سياسي شامل جديد. ورغم ذلك، كيف يمكن في هذا الواقع الجديد العثور على مكان للجوانب الأشدّ ظلمةً من طبيعتنا البشرية التي تبقى، مثلها مثل عبّاد الشمس المقلوب رأساً على عقب، في مركز مشروع غير مكتمل للتحليل النفسي؟ هذا فشلٌ سيثبت أيّ تحرّك نقوم به في ذلك الاتجاه بأفضل إرادة في العالم أنّه على المدى البعيد بادرةٌ فارغة.[18]

[18] Rose, “To Die One‘s Own Death.”

بينما هنالك حقيقة جوهرية في هذا المنحى من التفكير، نجد أنّه على وجه العملة الآخر لا يقتصر درس التحليل النفسي على تحذيرٍ من السذاجة التحرّرية وتحذيرٍ بشأن القوى التدميرية الشديدة في الطبيعة البشرية (بخصوص تحويل الشيوعية السوفياتية إلى ستالينية). كذلك عبأت الحربان العالميتان اليسار الراديكالي وتمخضتا عن ثورات، مع دخول دولة الرفاهية الاشتراكية الديموقراطية عصرها الذهبي في أعقاب الحرب العالمية الثانية. تذكّروا حصراً الصدمة الناتجة عن خسارة تشرشل Churchill الانتخابات مطلع 1945 في المملكة المتحدة واستبدال كليمنت آتلي Clement Attlee به، وهو زعيم أقلّ جاذبية وأكثر فعالية لـ"حزب العمال" وكان جذرياً للغاية بمعايير اليوم. أليست تشيلي دليلاً على الكيفية التي يمكن أن يفضي بها مزيج من المصائب إلى تعبئة شعبية استثنائية؟ كانت الجائحة (والطريقة التي استغلّتها بها الدولة لسحق الاحتجاجات الشعبية) عاملاً حاسماً في صعود حركة "الموافقة". هنا تبدو البديهية المعهودة بأنّ المصائب تُخرج أسوأ وأفضل ما في داخلنا أقرب إلى الصحة.

إذاً، ما الذي يمكن أن يخبرنا به التحليل النفسي بشأن انتصار تلك الحركة في تشيلي؟ سيكون مفيداً البدء بفكرة لاكان عن الدالّة الحاكمة وتطبيقها على فضاء الأيديولوجيا. لنبدأ بمقارنة بين تشيلي والولايات المتحدة. كانت من أسوأ مفاجآت الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة في 2020 حصول ترامب على عددٍ كبيرٍ من

الأصوات من خارج ما يراه الناس دائرته الانتخابية، وسط السود واللاتينيين (حتّى الفقراء منهم) وكثير من النساء، فضلاً عن حصول بايدن Biden على كثير من أصوات الرجال المسنين البيض الذين كان من المتوقّع أن يصوّتوا بمعظمهم لترامب. يبرهن هذا الانقلاب غير المتوقّع أنّ الجمهوريين هم الآن رغم أيّ شيء حزب الطبقة العاملة أكثر ممّا هم الديموقراطيون، وأنّ الانقسام المتماثل بنسبة 50% في الجسم السياسي للولايات المتحدة لا يعكس مباشرة انقساماً طبقياً، بل هو نتيجة مجموعة بأسرها من الارتباكات والانزياحات الأيديولوجية.[19] الديموقراطيون أقوى بكثيرٍ من الجمهوريين وسط الرأسماليين "الرقميين" الجُدد (Microsoft، Amazon وغيرهما)، كما أنّ المصارف الكبيرة تدعمهم دعماً غير مباشر، في حين أنّ كثيراً من المعدمين في الأرجاء الأفقر من الولايات المتحدة يؤيدون شعبوية الجمهوريين. والنتيجة أنّنا في تشرين الثاني/ نوفمبر 2020 نستطيع أن نقرأ في تقارير وسائل الإعلام الرصينة عناوين من قبيل: "هل يستطيع ترامب حقاً أن يقوم بانقلاب ويبقى في منصبه لولاية ثانية؟"[20]. قبل حقبة ترامب، كانت عناوين كهذه مخصّصة لتقارير ممّا يُدعى دولاً مارقة في العالم الثالث. تحوز الولايات المتحدة الآن شرف أن تصير أوّل دولة مارقة في العالم الأوّل.

19 انظر:

Mike Davis, "Rio Grande Valley Republicans," in *London Review of Books* 42, no. 22, November 19, 2020, https://www.lrb.co.uk/the-paper/v42/n22/mike-davis/short-cuts

20 انظر:

Sam Levine, "Can Trump Actually Stage a Coup and Stay in Office for a Second Term?", *The Guardian*, November 23, 2020, https://www.theguardian.com/us-news/2020/nov/23/can-trump-actually-stage-a-coup-and-stay-in-office-for-a-second-term

في تناقض صارخ مع هذا الانقسام الواضح بنسبة 50%، حصلت حركة "الموافقة" في استفتاء تشيلي على ما لا يقلّ عن 78.27% من إجمالي الأصوات مقابل خيار "الرفض" الذي حصل على 21.73% فقط من إجمالي الأصوات. ما هو حاسم في الأمر أنّ فجوة التصويت الهائلة هذه تتناسب مباشرةً مع تمركز الثروة والامتيازات وتوزيعها، بمجموعة بالغة الصغر من السكان الذين يشكّلون جزءاً من النخبة (خيار "الرفض") ومجموعة غالبية على دراية بهذه اللامساواة الاجتماعية والظلم (خيار "الموافقة"). إذاً، لا تُعَدّ تشيلي فريدةً بسبب خصوصية مدهشة فحسب، بل تحديداً بسبب جعلها الصراع الطبقي واضحاً وضوحاً مباشراً، وهو صراعٌ يجري التعتيم عليه

وتنحيته في الولايات المتحدة وأماكن أخرى. تكمن فرادة تشيلي (استثنائيتها) في صميم عالمية وضعها.

لكن علينا هنا أن نتجنّب الاستغراق في وهم أنّ الأصوات في تشيلي تعبّر عن ميل أكثر "طبيعيةً"، يعكس بأمانة الانقسام الطبقي المهيمن، بينما لا "يعكس" الفرز الانتخابي في الولايات المتحدة بأمانة الانقسام الطبقي لكنّه يخضع لتحريف التلاعبات الأيديولوجية. ما من شيء "طبيعي" في الصراعات الأيديولوجية والسياسية في سبيل الهيمنة، إذ إنّ كلّ هيمنة تُعَدّ نتيجة صراع حصيلته مفتوحة. فانتصار حركة "الموافقة" في تشيلي لا يدلّ فحسب على غياب التلاعبات الأيديولوجية، ولذا في إمكان توزيع الأصوات أن يعكس "بأمانة" الانقسام الطبقي؛ بل إنّ حركة "الموافقة" فازت بفضل كفاح طويل وفعّال في سبيل الهيمنة الأيديولوجية.

يتعيّن علينا هنا استخدام نظرية إرنستو لاكلاو Ernesto Laclau عن الكفاح في سبيل الهيمنة الأيديولوجية بوصفه في نهاية المطاف كفاحاً في سبيل الدالّات الحاكمة، ليس كفاحاً ستهيمن فيه دالّة حاكمة فحسب ولكن عن الكيفية التي ستنظّم فيها هذه الدالّة الحاكمة الفضاء السياسي بأسره[21]. لنأخذ مثالاً واضحاً: علم البيئة، مكافحة الاحتباس الحراري والتلوّث العالميين. يتفق الجميع تقريباً، باستثناء المنكرين (الذين تتزايد ندرتهم)، على أنّ الأزمة البيئية هي قضية من القضايا المركزية اليوم، وأنّها تشكّل تهديداً لجوهر بقائنا على قيد الحياة. يدور الكفاح حول ما يدعوه لاكلاو "سلسلة مكافِئات": ما هي الدالّات الأخرى (موضوعات الصراع السياسي الأيديولوجي) التي سيرتبط بها "علم البيئة"؟ لدينا علم البيئة المرتبط بالدولة (لا تستطيع إلّا دولة قوية التعامل مع الاحتباس الحراري)، علم البيئة الرأسمالي (لا تستطيع إلّا آليات السوق التعامل معه، ويتمثّل المَخرج في فرض ضرائب مرتفعة على المنتجات التي تلوّث بيئتنا)، علم البيئة المناهض للرأسمالية (تمثّل ديناميّات التوسّع الرأسمالي السبب الرئيسي في استغلالنا الجائر للطبيعة)، علم البيئة الاستبدادي (لا يستطيع عامّة الناس فهم تعقيد الأزمة البيئية، ولذا يتعيّن علينا أن نثق بقدرة دولة قوية يساندها العلم)، علم البيئة النسوي (يتمثّل السبب الأساسي لمصاعبنا في السلطة الاجتماعية للرجال الذين هم أكثر عدوانية واستغلالاً)، علم البيئة المحافظ (نحتاج إلى العودة إلى طريقة

عيش تقليدية أكثر توازناً)، وإلى ما هنالك. الكفاح في سبيل الهيمنة ليس مجرّد كفاح لقبول علم البيئة بوصفه قضية جدّية، بل الأهم من ذلك أنّه كفاح في سبيل ما سيعنيه هذا العالم ومدى تقييده باعتبارات أخرى (العلم والنسوية وما شابه).

21 انظر:

Ernesto Laclau, *Emancipation(s)* (London: Verso Books, 2007).

كقاعدة عامّة، يواجه فرض دالّة حاكمة جديدة ما يواجهه "إيجاد تسمية صحيحة" لما نحاول فهمه؛ لكنّ فعل "الإيجاد" هذا هو فعل منتج، يشيد حقلاً رمزياً جديداً. ففي تشيلي، تُمثّل "الكرامة" الدالَّة الحاكمة للاحتجاجات الجارية ولحركة "الموافقة". ليست تشيلي استثناءً هنا. فرغم الفقر والجوع والعنف، رغم الاستغلال الاقتصادي، قامت الاحتجاجات التي اندلعت من تركيا وبيلاروسيا وصولاً إلى فرنسا باستثارة الكرامة باطّراد. مرّة أخرى، ليس هنالك على وجه الخصوص ما هو يساري أو حتّى تحرّري في "الكرامة". إن كان على أحدهم أن يسأل بينوشيه نفسه عنها، فسيثني عليها من دون أيّ شكّ لكنّه سيدرجها في "سلسلة مكافِئات" أخرى تتماشى مع الخطّ الوطني العسكري الذي صان بموجبه انقلابه في 1973 كرامة تشيلي من تهديد يساري شمولي. أمّا من وجهة نظر أنصار حركة "الموافقة"، فإنّ "الكرامة" ترتبط بالعدالة الاجتماعية التي ستحدّ من الفقر وتضمن الرعاية الصحية الشاملة والحريات الفردية والاجتماعية وما شابه. ينطبّق الأمر عينه على "العدالة". سيدافع بينوشيه من دون شكّ عن العدالة، لكن عن نوع العدالة الخاصّة به وليس عن العدالة الاقتصادية القائمة على المساواة. والمقصود بهذه "العدالة" هنا أنّه يتعيّن على الجميع، وبخاصّة أولئك الذين في الحضيض، أن يعرفوا مكانهم المناسب. يُعزى أحد أسباب انتصار حركة "الموافقة" إلى أنّها ظفرت في كفاحها في سبيل الهيمنة، بحيث أنّه إذا ذُكرت "الكرامة" و"العدالة" في تشيلي الآن، فإنّهما تعنيان ما دافعت الحركة عنه.

ذلك لا يتضمّن بطبيعة الحال أنّه يمكن اختزال الصراعات الاقتصادية والسياسية بتنازعات خطابية. فما تتضمّنه بالفعل هو أنّ المستوى الخطابي يمتلك منطقه المستقل، ليس بمعنى أنّ المصالح الاقتصادية لا يمكن أن تُترجَم مباشرة إلى فضاء رمزي فحسب، بل بمعنىً أكثر جذرية هو أنّ الكيفية التي يُنظر بها إلى المصالح الاجتماعية والاقتصادية تتوسّطها بالفعل السيرورات الخطابية. إليكم مثالاً بسيطاً:

حين يعاني بلد ما من المجاعة، يكون الجوع حقيقة لكنّ المهم هو كيفية إدراك هذه الحقيقة. هل يُنسب سببها إلى الممولين اليهود أم تُعَدّ حقيقة من حقائق الطبيعة (سوء الطقس) أم نتيجةً للاستغلال الطبقي؟ مثال آخر: لم يُعَدّ دور المرأة الثانوي في أسرتها وإقصائها من الحياة الاجتماعية ظلماً إلا بعد صعود النسوية. أمّا قبل تلك اللحظة، فتُعَدّ المرأة محظوظة إن اقترنت بزوج محبّ يُحسن رعايتها. لم تكن الخطوة الأولى للنسوية خطوة مباشرة نحو العدالة، بل وعي النساء بحالة الإجحاف التي يعانين منها. وعلى نحوٍ مماثل، لا يحتجّ العمال عندما يعيشون في براثن الفقر بل حينما يدركون فقرهم بوصفه ظلماً تتحمّل مسؤوليته الطبقة الحاكمة وكذلك الدولة.

على من هم مستعدون لتجاهل هذه الاعتبارات بوصفها خطوة نحو "مثالية خطابية" أن يتذكّروا كم كان لينين مهووساً بالتفاصيل في البرامج السياسية، مشدَّدا على الكيفية التي "قد يصبح فيها كلّ خلاف صغير خلافاً كبيراً إذا تمّ الإصرار عليه"[22]، وكيف أنّ وجود كلمة واحدة (أو غيابها) في برنامجٍ ما يمكن أن يغيّر مصير ثورة. لا تُعَدّ هذه الكلمات أفكاراً برنامجية مركزية كبيرة، فهي تتوقف على وضع عياني:

22 V.I. Lenin, *One Step Forward, Two Steps Back*, available at https://www.marxists.org/archive/lenin/works/1904/onestep/

> إنّ كلّ مسألة "تدور في حلقة مفرغة"، لأنّ الحياة السياسية بأكملها سلسلة لا نهاية لها وتتألف من عدد لا يحصى من حلقات الوصل. وتتلخّص براعة السياسي كلّها في إيجاد الحلقة اللازمة والتمسّك بها بقوّة، الحلقة التي هي أشدّ الحلقات استعصاءً على انتزاعها من بين يديه، والتي هي أهم الحلقات في ظرف معيّن، الحلقة التي تعطي الحائز إياها أكبر الضمانات بحيازة السلسلة كلّها.[23]

23 V.I. Lenin, *What Is To Be Done?*, available at https://www.marxists.org/archive/lenin/works/1901/witbd/v.htm

لنتذكّر أنّ شعار لينين في 1917 لم يكن "ثورة اشتراكية" بل "الأرض والسلام"، وهي رغبة جماهير واسعة في امتلاك الأراضي التي تعمل فيها ومشاهدة نهاية للحرب. لا يُعَدّ التاريخ شكلاً من التطوّر الموضوعي، بل هو سيرورة جدلية يتوسّط فيها توسَّطا وثيقاً ترميزها الأيديولوجي لما "يجري فعلياً". لهذا، يغيّر التاريخ الماضي

كما أشار إلى ذلك مراراً وتكراراً والتر بنيامين Walter Benjamin، أي أنّه يغيّر الكيفية التي يكون فيها هذا الماضي حاضراً اليوم، بوصفه جزءاً من ذاكرتنا التاريخية.[24] لنتخيّل أنّ إعادة تطبيع بينوشيه بقيت وأنّ الاحتجاجات التي اندلعت في تشرين الأول/ أكتوبر 2019 قُمعت بسرعة. لنتخيل أيضاً أنّه في سيرورة هذا التطبيع الزائف جرى التخلص من شخص بينوشيه نفسه وأُدين انقلابه. من شأن بادرة تصفية الحساب هذه مع بينوشيه في الماضي أن تعني انتصاراً نهائياً لإرثه: سيبقى هذا الإرث حيًّا في الدستور الذي أرسى أُسس النظام الاجتماعي القائم، وستُختزل ديكتاتوريته بمرحلة تدخّل عنيف وجيزة بين مرحلتين من حياة ديموقراطية طبيعية... لكنّ ذلك لم يحدث، فما حدث في تشيلي في 2019–2020 غيّر التاريخ: سردية جديدة للماضي فرضت نفسها، سردية "أزالت تطبيع" ديموقراطية ما بعد بينوشيه بوصفها استمراريةً لحكمه بأدوات ديموقراطية.

24 انظر:

Walter Benjamin, “Theses on the Philosophy of History,” in *Illuminations* (New York: Mariner Books, 2019).

"نحو دالّة جديدة" تعبير استعمله لاكان في حلقة دراسية عُقدت في 15 آذار/ مارس 1977، في السنوات التي أعقبت حلّه مدرسته معترفاً بفشلها (وفشله).[25] على مستوى النظرية، يدلّ هذا البحث عن دالّة جديدة على أنّه حاول يائساً أن يتخطّى الموضوع المركزي لتعليمه في ستينيات القرن العشرين: الهوس بالواقعي، وهو صميم صدمة/ استحالة تمتُّع يراوغ كلّ ترميز ولا يمكن مواجهته إلّا للحظة في فعل أصيل لقوّة تسبّب العمى. لم يعد لاكان راضياً عن مواجهة فجوة مركزية كهذه أو استحالة كهذه بوصفها خبرة إنسانية نهائية. فقد رأى أنّ المهمة الحقيقية أثناء التحرّك ينبغي أن تتبع مثل هذه الخبرة: ابتكار دالّة حاكمة جديدة ستحدّد موقع الفجوة/ الاستحالة بطريقة جديدة. هذا يعني في السياسة أنّه ينبغي للمرء أن يترك خلفه الشاعرية الزائفة للثورات الكبرى التي تقضي على النظام المهيمن. تتمثّل المهمة الحقيقية في فرض نظام جديد، وهذه السيرورة تبدأ بدالّات جديدة. فمن دون دالّات جديدة، لن يكون هنالك تغيير اجتماعي حقيقي.

25 انظر:

Jacques Lacan, “Vers un signifiant nouveau,” Séminaire du 15.03.77, in *Ornicar?* 17/18.

7
خسارة "العمال" اليساري
تشريح جثة

خسر "حزب العمال" في المملكة المتحدة انتخابات 2019 العامّة لمجموعة من الأسباب. إليكم من وجهة نظري ثلاثة منها.

بما أنّ الانتخابات كانت تتعلّق بمعنىً ما بالخروج من الاتحاد الأوروبي، أول ما يلفت الانتباه عدم التماثل في موقف الحزبين الكبيرين: كرّر المحافظون لازمتهم: "أنجزوا الخروج من الاتحاد الأوروبي!"، في حين كان موقف "العمال" أسوأ ما يمكن. فبمعرفته معرفة تامّة أنّ ناخبيه منقسمون انقساماً شبه متساوٍ بين من يريدون البقاء مع الاتحاد، وبين من يريدون مغادرته، خشي من اختيار أحد الموقفين كي لا يخسر الناخبين المعارضين هذا الخيار. لكنّك إن اخترت الجلوس على مقعدين في الآن عينه، فقد تقع كما يقال في الفراغ الذي يفصل بينهما. وما أضفى مزيداً من السوء على الوضع أنّ موقف كوربين Corbyn كان معروفاً إلى حدٍّ ما: أراد الخروج لكن على نحوٍ مختلف. أراد أن تتحرّر المملكة المتحدة من أنظمة الاتحاد الأوروبي المالية وأنظمته الأخرى لمتابعة تغييرات يسارية أكثر جذرية. كيفما فكّرنا في هذا الخيار، ثمّة أسباب وجيهة للخروج وللبقاء، فقد تجنّب "العمال" نقاشاً مفتوحاً بشأنه، متستّرًا على تردّده بصيغة كارثية: "سنترك الخيار للناس!". لماذا هي صيغة كارثية؟ لأنّ الناس لا يريدون أن يفرض السياسيون عليهم قرارات صعبة. فهم يتوقعون من الزعماء السياسيين أن يبيّنوا لهم مساراً واضحاً، وأن يخبروهم بالخيار الصحيح. وقد فعل المحافظون ذلك.

أمّا السبب الثاني، فهو الحملة المنظمة لتشويه سمعة كوربين الذي صنّفه Simon Wiesenthal Center في 2019 أحد "أكبر المعادين للسامية" (متقدّمًا حتّى على الإرهابيين الفعليين!)، قبل بضعة أيّام من الانتخابات العامّة،[26] وهذه حالة من حالات التدخّل الخارجي تماثل على الأقلّ بقوّتها التدخّل الروسي المزعوم في انتخابات الولايات المتحدة عام 2016. يتنبأ جدعون ليفي Gideon Levy محقًّا[27] بأنّ

الخلط المتهوّر بين انتقاد السياسة الإسرائيلية ومعاداة السامية سيفضي إلى موجة جديدة من معاداة السامية، وفي مستطاع المرء أن يرى بوضوح أين سينتهي هذا الخلط في نهاية المطاف. معاداة السامية، مثلما علّمتنا الماركسية، هي معاداة للرأسمالية مُزاحة عن مكانها؛ هي تُسقِط سبب التناحرات الاجتماعية التي تولّدها الرأسمالية على دخيل خارجي ("اليهود"). يتمثّل الإغواء هنا في اتّخاذ خطوة محتومة إضافية وإدانة أيّ معاداة جذرية للرأسمالية بوصفها شكلاً من معاداة السامية، وعلامات ذلك تتكاثر بالفعل في أرجاء العالم كافّة. هل في وسع المرء أن يتخيل طريقة أكثر خطورة للتحريض على معاداة السامية؟

26 Hana Levi Julian, "Jeremy Corbyn Rated Top Anti-Semite of 2019 by Simon Wiesenthal Center," *Jewish Press*, December 8, 2019, https://www.jewishpress.com/news/jewish-news/antisemitism-news/jeremy-corbyn-rated-top-anti-semite-of-2019-by-simon-wiesenthal-center/2019/12/08/

27 Gideon Levy, "From Now On, Every Palestinian Is an Anti-Semite," *Haaretz*, December 8, 2019, https://www.haaretz.com/world-news/europe/.premium-from-now-on-every-palestinian-is-an-anti-semite-1.8230347

أخيراً وليس آخراً يتمثّل السبب الثالث لخسارة اليسار العمالي في ما أُطلقت عليه تسمية فخ بيكيتي. يقترح توماس بيكيتي Thomas Piketty في كتابه *Capital and Ideology* [رأس المال والأيديولوجيا] مجموعة من الإجراءات الجذرية، وهو يدرك إدراكاً تامًّا أنّ النموذج الذي يقترحه لن ينجح إلّا إذا فُرض على الصعيد العالمي خارج حدود الدول القومية. يفترض هذا النموذج بذلك مسبقاً وجود قوّة عالمية لديها القوّة والسلطة لفرضه. لكن لا يمكن تخيّل قوّة عالمية كهذه ضمن حدود الرأسمالية العالمية في وقتنا الحالي والآليات السياسية التي تنطوي عليها. موجز القول: إن كان لهذه السلطة أن توجد، تكون المشكلة الأساسية قد حُلّت بالفعل. يتّسم مقترح بيكيتي بالطوباوية رغم أنّه يقدّمه بوصفه بحثاً براغماتياً عن حلٍّ ضمن إطار الرأسمالية والإجراءات الديموقراطية. لو فاز كوربين (أو صار، بهذا الشأن، بيرني ساندرز Bernie Sanders رئيساً للولايات المتحدة)، لنتخيل حصراً الهجوم المضاد الكاسح الذي كانت رؤوس الأموال الكبيرة ستشنّه بكلّ مكائدها القذرة... ربما أدرك الناخبون هذه المخاطر الكامنة في انتصار "العمال" وفضّلوا خوض لعبة آمنة.

إنّ التحديات التي نواجهها، من الاحتباس الحراري إلى اللاجئين والتحكم الرقمي والتلاعبات الوراثية الحيوية، تتطلّب على الأقلّ إعادة تنظيم عالمية لمجتمعاتنا. وأيًّا تكن الطريقة التي ستحدث بها إعادة التنظيم هذه ثمّة أمران مؤكّدان: لن تفعلها

نسخة جديدة ما من حزب شيوعي لينيني، ولن تحدث أيضاً ضمن جزء من ديموقراطيتنا البرلمانية. لن تكون مجرّد حزب سياسي يحصل على أصوات أكثر ويسنّ تدابير ديموقراطية اجتماعية.

سيقودنا هذا إلى قصور الاشتراكيين الديموقراطيين المحتوم. بالعودة إلى 1985، أصدر فيليكس غواتاري Felix Guattari وتوني نيغري Toni Negri كتيباً بالفرنسية بعنوان *Les nouveaux espaces de liberté* [الفضاءات الجديدة للحرية]، وتغيّر عنوانه في الترجمة الإنكليزية ليصير *Communists Like Us* [شيوعيون مثلنا]. كانت الرسالة الضمنية لهذا التغيير هي رسالة الاشتراكيين الديموقراطيين عينها: "لا تخافوا؛ نحن أشخاص عاديون مثلكم، ولا نشكّل أيّ تهديد. حين ننتصر، ستستمر الحياة كالمعتاد تماماً...". لسوء الطالع هذا ليس خياراً. لا بدّ من تغييرات جذرية من أجل بقائنا على قيد الحياة، ولن تستمر الحياة كالمعتاد؛ سيتعيّن علينا إجراء تغيير حتّى في أعماق مشاعرنا ومواقفنا.

هذا لا يعني بالطبع أنّ علينا ألّا نؤيد تأييداً تامًّا "العمال" في المملكة المتحدة والاشتراكيين الديموقراطيين في الولايات المتحدة وغيرهم. إن كنّا سننتظر اللحظة المناسبة لإحداث تغيير جذري، فلن تأتي إطلاقاً؛ علينا البدء من حيث نحن. لكن علينا أن نفعل ذلك من دون أوهام مدركين تماماً أنّ مستقبلنا سيطالبنا بأكثر بكثير من الألاعيب الانتخابية والإجراءات الديموقراطية الاجتماعية. نحن في بداية رحلة محفوفة بالمخاطر سيتوقف عليها بقاؤنا على قيد الحياة.

8
بلى، معاداة السامية حيّةٌ ومعافاة، لكن أين؟

نحن الآن وسط عدوان صهيوني عالمي يندرج ضمن ضحاياه كثيرون من اليهود الذين ينتقدون السياسة الإسرائيلية. تُطلق على أحدهم تسمية "المروّج الدعائي لحركة 'حماس'"، وهو جدعون ليفي الذي كتب في صحيفة *Haaretz* في 8 كانون الأول/ ديسمبر:

> يتمّ بأغلبية ساحقة إقرار قوانين تسم معاداة الصهيونية بمعاداة السامية وحركة مناهضة الاحتلال بمعاداة السامية. ورغم خضوعها الآن لأهواء إسرائيل والمؤسّسة اليهودية، لكنّها عُرضة لإشعال نار معاداة السامية حين تُطرح أسئلة حول مدى تدخّلها.[28]

[28] Gideon Levy, "From Now On, Every Palestinian Is an Anti-Semite." *Haaretz*, December 8, 2019, https://www.haaretz.com/world-news/europe/.premium-from-now-on-every-palestinian-is-an-anti-semite-1.8230347

أرى أنّ ليفي "إسرائيلي وطني" حقيقي، مثلما أطلق على نفسه ذات يوم. لقد تنبأ محقًّا بأنّ الخلط المتهوّر بين انتقاد السياسة الإسرائيلية وبين معاداة السامية سيفضي إلى موجة جديدة من معاداة السامية. كيف؟ ترتكب دولة إسرائيل خطأً فادحاً كي ترسي أسس سياستها الصهيونية، إذ إنّها قرّرت التقليل من شأن ما يُدعى معاداة السامية "القديمة" (الأوروبية التقليدية)، وركّزت عوضاً عن ذلك على معاداة السامية "الجديدة" التي يُزعم أنّها "تقدّمية" وتتقنّع مطالبها بانتقاد الصهيونية. على هذا المنوال، ادّعى برنارد هنري ليفي Bernard Henri–Levy (في كتابه *The Left in Dark Times* [اليسار في الأزمنة المظلمة] الصادر في 2008) أنّ معاداة السامية في القرن الحادي والعشرين ستكون "تقدّمية" أو لن تكون. إذا ما مضينا مع هذه الأطروحة إلى نهاياتها، فهي تدعو للعودة إلى التفسير الماركسي القديم لمعاداة السامية بوصفها معاداة غامضة أو مُزاحة عن مكانها للرأسمالية (ينصّب غضبنا على جماعة إثنية محدّدة متَّهمة بإفساد النظام بدلاً من إلقاء اللوم

على النظام الرأسمالي). تُعَدّ معاداة الرأسمالية اليوم من وجهة نظر هنري ليفي وأنصاره شكلاً مقنَّعا من معاداة السامية.

ما أجده مقلقاً على وجه الخصوص هو جمع المحافظين المسيحيين في الولايات المتحدة بين موقف قوي مؤيد للرأسمالية وبين ولع مكتشف حديثاً بإسرائيل. كيف في مستطاع هؤلاء الأصوليين المسيحيين، الذين هم بحكم الطبيعة معادون للسامية، أن يؤيدوا بحماسة حالياً السياسة الصهيونية لدولة إسرائيل؟ هنالك طريقة واحدة للإجابة عن هذه الأحجية: ليس الأمر أنّ الأصوليين المسيحيين قد تغيّروا، بل إنّ الصهيونية نفسها، في كراهيتها اليهود الذين لا يتماهون كلًّيا مع سياسة دولة إسرائيل، أصبحت على نحو مفارق معادية للسامية. وهذا ما قاله أخيراً رودي جولياني Rudy Giuliani عن جورج سوروس George Soros:

> لا تقولوا لي إنّني معادٍ للسامية إذا عارضته. لا يكاد يُعَدّ سوروس يهودياً. أنا يهودي أكثر من سوروس. ربما أعرف عن الكنيس أكثر منه، فهو لا يرتاد الكنيسة، ولا يذهب إلى... كنيس. إنّه لا يتبع أيّ كنيس. إنّه لا يؤيد إسرائيل، بل هو عدوّ لإسرائيل. لقد انتخب ثمانية مدّعين عامين [على مستوى المقاطعات] من دعاة الفوضوية في الولايات المتحدة. إنّه إنسان رهيب.[29]

29 Olivia Nuzzi, “A Conversation with Rudy Giuliani Over Bloody Marys at the Mark Hotel,” *New York Intelligencer*, December 23, 2019, http://nymag.com/intelligencer/2019/12/a-conversation-with-rudy-giuliani-over-bloody-marys.html

في عرض مماثل لمعاداة السامية المستترة دعماً للموقف المؤيد للصهيونية، استخدم ترامب في خطابه أمام المجلس الإسرائيلي–الأميركي في كانون الأول/ ديسمبر 2019 الصور النمطية المعادية للسامية لوصف اليهود بأنّ المال حافزهم وأنّهم ليسوا موالين لإسرائيل بما يكفي. في هذه المناسبة، يوضّح عنوان تقرير مجلة *Vanity Fair* كلّ شيء: ”ترامب يمضي بعيداً في معاداة السامية في قاعة مليئة باليهود“. وفقاً للتقرير ترامب

> بدأ مجدَّدا ذكر التعابير الجاهزة البالية حول ”الولاء المزدوج“، قائلاً إنّ هنالك يهوداً ”لا يحبون إسرائيل بما يكفي“. بعد هذا الإحماء، خاض مباشرة في الصورة النمطية المتعلّقة باليهود والمال، قائلاً للمجموعة: ”كثيرون منكم

> يعملون في مجال الأعمال العقارية، بما أنّني أعرفكم جيداً. أنتم قتلة متوحشون، ولستم طيبين إطلاقاً". "لكن عليكم أن تصوّتوا لي؛ ليس لديكم أيّ خيار. لن تصوّتوا لإليزابيث وورن. هذا ما أستطيع قوله لكم. لن تصوّتوا لفرض ضرائب على الثروة. بلى، دعونا ننتزع 100% من ثرواتكم!". وتابع: "لا أروق لبعضكم، وبعضكم في الحقيقة لا يروقون لي إطلاقاً. سيتعيّن عليكم أن تكونوا من أكبر الداعمين لي لأنّهم سيخرجونكم من أعمالكم في غضون 15 دقيقة إذا استولوا عليها. لذلك لست مضطراً إلى أخذ وقت أطول بخصوص هذه المسألة".[30]

[30] Bess Levin, "Trump Goes Full Anti-Semite in Room Full of Jewish People," *Vanity Fair*, December 9, 2019, https://www.vanityfair.com/news/2019/12/donald-trump-anti-semitic-remarks

يوشك المرء على الشعور بإحراج مربك عند مواجهته مثل هذه التصريحات. تنتفي الحاجة هنا إلى تعقيد "نقد الأيديولوجيا". فما كان ينبغي أن يكون ضمنياً يُعلن صراحة. من غير الممكن أن يكون مسار التفكير أكثر وضوحاً: أنتم يهود، ولا تهتمون في النتيجة إلّا بالمال، وأنتم تهتمون بأموالكم أكثر من اهتمامكم ببلدكم، ولذلك أنا لا أروق لكم ولا تروقون لي، ولكن سيتعيّن عليكم انتخابي إذا أردتم حماية أموالكم... الأحجية هي: لماذا يستجيب كثيرون من الصهاينة بإيجابية لرسالة ترامب رغم ذلك؟ مرّة أخرى، ليس هنالك سوى جواب مناسب واحد: لأنّ الصهيونية نفسها معادية للسامية بمعنىً ما.

تلعب إسرائيل هنا لعبة خطرة. منذ مدّة اضطرت محطة Fox News، الصوت الرئيسي ليمين الولايات المتحدة المتطرّف وأشدّ مؤيدي النزعة التوسعية الإسرائيلية، إلى تخفيض منزلة أكثر مستضيفيها شعبية، وهو غلين بيك Beck Glen الذي صارت تعليقاته المعادية للسامية صريحة. وعندما وقّع ترامب الأمر التنفيذي المثير للجدل بشأن معاداة السامية أثناء احتفال البيت الأبيض بعيد الأنوار اليهودي في كانون الأول/ ديسمبر 2019، كان بين الحضور جون هاغي Hagee John، وهو مؤسّس المنظمة المسيحية الصهيونية Christians United for Israel [مسيحيون متحدون من أجل إسرائيل] ورئيسها الوطني. على رأس جدول الأعمال المسيحي المحافظ المعتاد (يرى هاغي في بروتوكول كيوتو مؤامرة هدفها التلاعب باقتصاد الولايات المتحدة؛ ففي روايته الذائعة الصيت *Jerusalem Countdown* [العد التنازلي

للقدس] كان رئيس الاتحاد الأوروبي عدوّ المسيح)، أطلق هاغي تصريحات معادية للسامية حُكماً: لقد حمّل اليهودَ أنفسهم المسؤولية عن الهولوكوست. وصرّح بأنّ اضطهاد هتلر لليهود كان "خطّة إلهية" لقيادة اليهود إلى تشكيل دولة إسرائيل الحديثة، كما أنّه وصف اليهود الليبراليين بأنّهم "مسمومون" و"أعمياء روحياً"، واعترف بأنّ الهجوم النووي الاستباقي على إيران الذي يفضّله سيفضي إلى موت معظم اليهود في إسرائيل (الطريف أنّه يزعم في روايته أنّ هتلر ولد من سلالة "يهود ملعونين قتلة مارسوا أعمال الإبادة الجماعية"). مع أصدقاء كهؤلاء، لا تحتاج إسرائيل إلى أعداء.

في حين أنّ الصراع بين الصهاينة المتشدّدين واليهود المنفتحين على حوار حقيقي مع الفلسطينيين يُعَدّ حاسماً، علينا ألّا ننسى خلفية هذا الصراع: صحيح أنّ فلسطينيي الضفة يتعرّضون لإرهاب بدني وإداري يومياً (إحراق المحاصيل وتسميم الآبار) ولتلاعب الأنظمة العربية المحيطة بهم... لكنّ النزاع الحقيقي ليس نزاعاً بين "اليهود" و"العرب"، كما أنّه ليس ضرباً من ضروب الدراما النفسية ليهود منقسمين يكون الفلسطينيون فيها مجرّد صوت في الخلفية. ليس هنالك مَخرج من دون صوت فلسطيني أصيل.

9
تصرّف عقلانيّ تماماً... في عالم مجنون

تمثّل ردّ الفعل الليبرالي المهيمن على اغتيال الولايات المتّحدة الجنرال سليماني في كانون الثاني/ يناير 2020 في أنّه تصرّف جنوني، واستعراض طائش للقوّة الغاشمة دون اعتبار للتأثيرات البعيدة المدى، ولذلك، يتعيّن الآن على جميع قوى العقل والاعتدال العمل يداً بيد لمنع وقوع كارثة... خلاصة القول، الشعار هو: لا حرب مع إيران!

لكن ماذا لو كان الاغتيال تصرًّفا يناسب بمعنىً ما كلا الطرفين وفي النتيجة عقلانياً تماماً من وجهة نظر كلّ منهما؟ ماذا لو كانت الولايات المتحدة والسعوديون وإسرائيل ترغب في دفع إيران إلى انتقام شامل سيبدو في نهاية المطاف تبريراً لهجوم شامل على البلد يمنعها في النتيجة من حيازة قنبلة نووية وكذلك تبريراً للقضاء عليها بوصفها عامل خطر في الشرق الأوسط؟ أمّا بالنسبة إلى إيران، فعلى المرء أن يتذكّر فحسب أخبار الشهرين المنصرمين التي أخفاها التوتّر الجديد مع الولايات المتحدة: المظاهرات الحاشدة التي أطلق شرارتها ارتفاعُ أسعار الوقود والتي عبّرت عن استياء واسع النطاق شمل الفقراء الذين كانوا لولا ذلك من مؤيدي النظام. وقد أسفر هذا عن أكثر الاضطرابات السياسية دموية منذ اندلاع الثورة الإسلامية قبل أربعين عاماً، بما لا يقلّ عن 180 قتيلاً، وربما مئات آخرين، عندما أُخمدت الاحتجاجات الغاضبة في حملة قمع رسمية استخدمت البطش الغاشم.[31] قارن كثيرون موجة القتل الأخيرة بمذبحة الجمعة السوداء 1978 في ساحة جاله بطهران، التي أدّت إلى سقوط الشاه محمد رضا بهلوي بعد عام على أيدي الثوريين الإسلاميين الذين يحكمون البلد حالياً. هكذا، تنغلق الدائرة الآن... مع التوتّر الدولي الجديد، باتت النخبة الحاكمة التي راحت تفقد شرعيتها بسبب تصاعد المحن الاقتصادية قادرةً على حشد الجماهير مرّة أخرى لعرض الحماسة الوطنية على نطاق واسع.

[31] Farnaz Fassihi and Rick Gladstone, “With Brutal Crackdown, Iran Is Convulsed by Worst Unrest in 40 Years,” *New York Times*, December 3, 2019,

https://www.nytimes.com/2019/12/01/world/middleeast/iran-protests-deaths.html

كيف وصلنا إلى هذه النقطة؟ ثمّة حاجة إلى استعادة الأحداث الماضية: اليوم تُحصَّل الديون القديمة؛ خطايا الماضي التي نجمت عنها فوضى الحاضر تواصل مطاردتنا. اقتُرفت الخطيئة الأصلية في 1953 حينما رتّبت وكالة الاستخبارات الأميركية انقلاباً في إيران للإطاحة بالنظام التقدّمي المعتدل بقيادة رئيس الوزراء مصدّق. لعلّه كان الانقلاب ما بعد الحداثي الأول. نُظّم كمهرجان شعبي، حتّى أنّ الوكالة استأجرت أهمّ رجلين من رجال العصابات في حي الأقليات جنوب طهران لحشد الناس في احتجاجات على مصدّق. استطاع الشاه بهذا الانقلاب أن يفرض تحديثه العلماني السلطوي، فاسحاً المجال أمام رجال الدين المسلمين لتنظيم السخط الشعبي.

ثمّ تحوّل التركيز إلى العراق عندما لعبت الولايات المتحدة لعبة مزدوجة. دعمت في البداية سراً صدّام حسين في عدوانه على إيران بُعيد ثورة الخميني، عندما ظنّ صدّام أنّ في مستطاعه استغلال الفوضى في إيران للاستيلاء على حقول نفطها الغنية الواقعة في الجنوب الغربي. ثمّ بعد فشل هذه الإستراتيجية الذريع التفت إلى الكويت، فهاجمت الولايات المتحدة العراق نفسه واحتلّته من دون خطة عملية دقيقة لما ينبغي عمله بعد ذلك. تمثّلت النتيجة الرئيسية لـ"تحرير" الولايات المتحدة العراق في أنّه بدلاً من أن يكون العراق متراساً في وجه إيران صار الآن خاضعاً سياسياً للهيمنة الإيرانية.

بدأت المرحلة الثالثة بصعود تنظيم "داعش". بما أنّ "داعش" السُّني استهدف الشيعة، وبما أنّ إيران الشيعية تُمثّل تهديداً رئيسياً بالنسبة إلى إسرائيل، دعمت إسرائيل مباشرة "داعش" (أو "تساهلت معه") في مواجهة "حزب الله" في جنوبي لبنان وسوريا. كذلك، لعبت تركيا هذه اللعبة. إذ لو فرضت تركيا على مناطق سيطرة "داعش" النوع عينه من الحصار المطلق الذي فرضته على مناطق سيطرة الأكراد في سوريا، ناهيك بإظهارها تجاه الأكراد المسلحين النوع عينه من "غضّ النظر المتسامح" الذي أظهرته تجاه "داعش"، لانهار التنظيم أسرع. وعلى نحو مشابه، رحّبت السعودية بصمت بحرب "داعش" على الإسلام الشيعي. أتاح هذا الترحيب لإيران التدخّل كمنقذٍ للعراق من "داعش" الذي اقترب من ببغداد بالفعل (نظّم

سليماني نفسه الدفاع عن المدينة). هذا هو الثمن الذي يدفعه المرء عندما يكون حلفاؤه دولاً مثل السعودية وتركيا.

عندما يوضع اغتيال سليماني في سياقه التاريخي يمكن فهمه في النتيجة ليس كتصرّف جنوني، بل كتصرّف عقلاني تماماً في عالم قد أصابه الجنون. هذا الجنون الأساسي هو ما ينبغي لنا تناوله بدلاً من التشاجر بشأن تدابير التحكّم الثانوية التي قد تصبّ مزيداً من الزيت على النار.

10
رابحون وخاسرون من الأزمة الإيرانية

من أنواع الدعابات التي أفضّلها الدعابات الطبية الأميركية التي تتبع هذه الصيغة: "الأخبار السيئة أوَّلًا، ثمّ الأخبار الحسنة..". إليكم دعابة غير مستساغة إلى حدٍّ ما: بعد أن أُجريت للزوجة عملية طويلة وخطرة، يقترب الزوج من الطبيب ويستفسر عن النتيجة. يشرع الطبيب في القول: "نجت زوجتك؛ ستعيش على الأرجح أكثر منك. لكن هنالك بعض المضاعفات: لن يعود في إمكانها التحكّم في عضلات شرجها، ولذلك سيتسرب الغائط منه باستمرار. كذلك، سيكون هنالك تدفّق مستمر من هلام أصفر كريه الرائحة من مهبلها، ولذلك لن تكون ممارسة الجنس متاحة. فضلاً عن أنّ فمها سيصاب بعجز وظيفي وسيتساقط الطعام منه..". عندما لاحظ الطبيب ملامح الذعر التي راحت تظهر شيئاً فشيئاً على وجه الزوج، ربّت بمودة على كتفه وابتسم: "لا تقلق، كنت أمزح فحسب! كلّ شيء على ما يرام، لقد ماتت أثناء العملية".

كتب لي صديقي العزيز كامران بارادران Kamran Baradaran ليخبرني أنّ هذه الدعابة تقدّم وصفاً رائعاً للوضع الحالي في إيران الذي يتجنّب بصعوبة حرباً شاملة مع الولايات المتحدة بعد اغتيال الجنرال الإيراني قاسم سليماني أخيراً في هجوم طائرة مسيّرة. في البداية، أتت سلسلة من الأخبار السيئة التي تصف العملية الناجحة (اغتيال سليماني): تشكيك حلفاء الولايات المتحدة في هذا التصرّف، وحشود غاضبة في احتجاجات مناوئة للولايات المتحدة، وتهديدات بانتقام إيراني قد يُطلق شرارة حرب واسعة النطاق... ثمّ استعادة توازن (هشّ ومؤقّت)، لكنّ هذا الحلّ الظاهري يشبه الجزء المضحك في دعابتنا: "لا تقلق، الأزمة كانت مجرّد دعابة! كلّ شيء على ما يرام"، عدا أنّ شيئاً لم يُحلّ، وأنّ الألعاب الجيوسياسية المخزية التي تضعنا في أزمة دائمة استؤنفت.

يبدو كأنّ اغتيال سليماني أفاد كلا الطرفين. فقد أدّى في إيران إلى تعبئة شعبية واستعراض ظافر للوحدة، وطمس مؤقّتا الصراعات الداخلية. أمّا بالنسبة إلى

الولايات المتحدة، فبدا أنّه شقّ درباً نحو حرب ستقضي على التهديد الإيراني. والآن نرى أنّ أحداً لم يشأ أن تندلع حرب.

ما الوضع في إيران حالياً؟ في كانون الثاني/ يناير 2020، أثار إسقاط طائرة الخطوط الجوية الدولية الأوكرانية مجدَّدا اضطرابات شعبية باتت الآن تهدّد جوهر أسس الثورة الخمينية، كما أنّ مشروعيتها الأساسية، وليس مجرّد هيمنة المتشدّدين، أصبحت موضع مساءلة علنية. أمّا محاولة النظام استخدام التوتّر مع الولايات المتحدة كوسيلة لحشد السكّان في دعمه، فكانت لها نتائج عكسية والنظام عُرضة للخطر أكثر من أيّ وقت مضى. هكذا، لم يُفد إسقاط الطائرة الأوكرانية غير المتوقّع إلّا إستراتيجية ترامب: ليس عليه أن يشنّ حرباً على إيران ما دامت غارقة في مشكلاتها الخاصّة.

لكن في واقع الحال، وأيًّا تكن النتيجة النهائية للأزمة الإيرانية، الولايات المتحدة لا تفقد بسرعة سيطرتها على العراق فحسب، بل إنّها تُدفع تدريجياً خارج معظم الشرق الأوسط. يتكرّر الآن في ليبيا حلّ الأزمة "الزائف" مع الأكراد في سوريا، إذ فرضت تركيا وروسيا سلاماً إلى حدّ يسيطر فيه كلّ منهما على الجانب الخاص به، وفي كلتا الحالتين، تنسحب الولايات المتحدة بصمت من أداء دور فعال. تتمتّع روسيا وتركيا حالياً بموقعٍ مثالي لممارسة الضغوط على أوروبا: يتحكم البلدان في إمدادات النفط إلى أوروبا، وكذلك في تدفّق اللاجئين، وفي إمكانهما استخدام ذلك كوسيلة للابتزاز.

لكن ماذا لو كان ترامب يريد الحرب؟ ثمّة دلائل مشؤومة تشير إلى أنّ الإجابة هي نعم. فترامب يهدّد حالياً بنقل الحرب الجمركية من الصين إلى الاتحاد الأوروبي، ومن الواضح أنّ ما يوحّد ترامب وروسيا وتركيا هو كرههم لاتحاد أوروبي قوي. وأيّ أوروبا تلك التي تزعج ترامب وبوتين وأردوغان وباقي الشعبويين الأوروبيين؟ إنّها أوروبا التي تتمتّع بوحدة عابرة للحدود القومية، أوروبا التي تعي على نحو غامض ضرورة تجاوز تقييدات الدول القومية من أجل مواجهة تحديات لحظتنا الحالية، أوروبا التي تسعى جاهدة أيضاً لتظلّ وفيّة بطريقة ما لشعار التنوير القديم بالتضامن مع الضحايا، أوروبا التي تعي حقيقة أنّ البشرية اليوم واحدة، وأنّنا جميعاً على "المركبة الفضائية التي تُدعى الأرض" عينها، وأنّ بؤس الآخرين هو مشكلتنا أيضاً. تقع أوروبا داخل كمّاشة هائلة بين أميركا من جانب وروسيا من جانب آخر، وتريد كلتاهما

تقطيع أوصالها، إذ إنّ ترامب وبوتين يؤيدان خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي ويدعمان المشـكّكين في أوروبا في كلّ بقعة، من بولندا إلى إيطاليا.

في النتيجة إن أوروبا هي الخاسـر الأكبر من أزمة الشـرق الأوسـط المسـتمرة، أكثر بكثير من الولايات المتحدة.

11
هل خسرت أميركا قيادتها الأخلاقية؟
كيف تصير الولايات المتحدة نظاماً رباعي الأحزاب

في شباط/ فبراير 2020، وأثناء ترويج هاريسون فورد Harrison Ford فيلمه الجديد في مدينة مكسيكو، قال إنّ ”أميركا قد خسرت قيادتها الأخلاقية وصدقيتها“[32]. حقاً؟ متى تنكّبت الولايات المتحدة عناء قيادة العالم أخلاقياً؟ هل في ظلّ ريغان أم بوش؟ لقد خسرت ما لم تتمتّع به يوماً، ما يعني أنّها خسرت التوهّم (”صدقية“ الزعم) بالتمتّع بقيادة العالم. مرحلة ترامب هي التي أظهرت بجلاء ما كان دوماً حقيقة بالفعل. ففي 1948، مستهلّ الحرب الباردة، صاغ جورج كينان George Kennan هذه الحقيقة بصراحة فظّة:

[32] Ed Mazza, “Harrison Ford: America Has Lost Its Moral Leadership and Credibility,” HuffPost, February 6, 2020, https://www.yahoo.com/huffpost/harrisonford-us-leadership-095232005.html

> نمتلك (الولايات المتحدة) 50% من ثروة العالم، لكنّ عدد سكّاننا يعادل 6.3% من سكّان العالم. في هذا الوضع، يتمثّل عملنا الحقيقي في المرحلة المقبلة في... الإبقاء على حالة التباين هذه. ولفعل ذلك علينا أن نتخلص من العواطف كلها... وأن نتوقف عن التفكير في حقوق الإنسان ورفع معايير العيش وإشاعة الديموقراطية.[33]

[33] George Kennan in 1948, quoted in John Pilger, *The New Rulers of the World* (London: Verso Books, 2002), p. 98.

هنا نعثر على المعنى الذي قصده ترامب بعبارة: ”أميركا أوَّلا!“ بعبارات أشدّ وضوحاً وأكثر صدقاً. لذا علينا ألّا ننصدم عندما نقرأ أنّ ”إدارة ترامب التي تعهّدت حينما تولّت السلطة أن تضع حدًّا ‘للحروب التي لا نهاية لها’ تتبنّى الآن أسلحة تحرّمها أكثر من 160 دولة وتجهّزها للاستخدام في المستقبل، إذ إنّ القنابل العنقودية والألغام المضادة للأفراد والمتفجرات الفتاكة التي تشتهر بتشويه وقتل

المدنيين بعد مدة طويلة من انتهاء القتال قد صارت جزءاً لا يتجزأ من خطط الحرب المستقبلية الخاصة بوزارة الدفاع“[34].

[34] John Ismay and Thomas Gibbons-Neff, “160 Nations Ban These Weapons. The US Now Embraces Them,” the *New York Times*, February 6, 2020, https://www.chicagotribune.com/nation-world/ct-nw-nyt-land-mines-cluster-bombs-20200209-iljfzz33zndsda5cbo2tqnlfmq-story.html

لكنّ أولئك الذين يتحسّرون على خسارة القيادة الأخلاقية الأميركية لا يكترثون لمثل هذه الحقائق. فأسلوب ترامب هو ما يشغل بالهم. إذ إنّ ترامب يجسّد الشخصية الجديدة لمعلّم سياسي بذيء بوقاحة في ازدراء القواعد الأساسية للياقة والانفتاح الديموقراطي. أخيراً قال بيت وينر Pete Wehner الذي شغل منصباً رئيسياً في البيت الأبيض أثناء عهد الرئيس جورج دبليو بوش: ”كان لدينا رؤساء يتمتّعون بهذا القدر أو ذاك من الأخلاقية، لكن لم يكن لدينا في أيّ يوم من الأيام رئيسٌ يستمتع نفسياً بتحطيم المعايير الأخلاقية أو بتقويض صدقية الأخلاق كمفهوم“[35]. لقد بيّن المنطقَ الكامن وراء تصرّفات ترامب آلان ديرشويتز Alan Dershowitz (أحد المدافعين عن شرعنة التعذيب، من بين أمور أخرى) الذي كان في كانون الثاني/ يناير 2020 قد

[35] John Harwood, “Trump’s Historical Place Defined by His Amorality,” CNN, February 12, 2020, https://edition.cnn.com/2020/02/12/politics/amorality-presidency-donald-trump/index.html

> زعم في قاعة مجلس الشيوخ أنّه لو اعتقد أحد السياسيين أنّ إعادة انتخابه تحقّق المصلحة القومية، فأيّ إجراء يتخذه لتحقيق هذه الغاية لا يخضع بحكم التعريف للمساءلة. ”وكذلك إن قام أحد الرؤساء بفعل يعتقد أنّه سيساعد على انتخابه من أجل المصلحة العامّة، فلا يمكن أن يكون ذلك نوعاً من أنواع المقايضة التي تستدعي عزله“.[36]

[36] Stephen Collinson, “Republican Theory for Trump Acquittal Could Unleash Unrestrained Presidential Power,” CNN, January 30, 2020, https://edition.cnn.com/2020/01/30/politics/impeachment-analysis-republican-reaction/index.html

يتوضّح هنا بجلاء طابع السلطة القائمة خارج أيّ رقابة ديموقراطية جادّة.

لكن ماذا عن الحجّة الكلاسيكية للمظاهر، وهي أنّ للمظهر، حتّى لو تظاهرنا رياءً بأنّه أخلاقي، رغم ذلك واقعيته الخاصّة به وهي ترغمنا على التصرّف بطريقة محدّدة، أفضل من الفحش المباشر؟ قد يغرينا التظاهر بالأخلاقية أن نكون أكثر

أخلاقية بقليل بصورة فعلية، أو كما يقولون في برنامج معالجة الإدمان على الكحول: "تظاهر بفعل ذلك حتّى تفعله". كما أنّ المسافة الفاصلة بين المظهر والواقع تُمكّن المرء من اتّخاذ موقف نقدي إزاء الواقع، إلى درجة أنّ النقد الماركسي لـ"الحرية الشكلية" قائم على رؤية أنّ المجتمع "البرجوازي" ليس وفياً لتعاليمه الخاصّة بالحرية والمساواة، كما أنّ مثل هذا النقد ينظر إلى الأيديولوجيا الحاكمة بجدّية تفوق جدّية نظرتها إلى نفسها... تكمن المشكلة في أنّه حالما ندخل مجال الفحش المتهكّم البحت، تفقد مثل هذه الإستراتيجية النقدية الراسخة أساسها؛ لا يعود ممكناً العودة إلى اللياقة القديمة، بكلّ ريائها، وتنتهي اللعبة.

ما يمكن تمييزه في النقاشات الأخيرة بشأن عزل ترامب هو تفكيك المضمون الأخلاقي الشائع الذي يجعل الحوار الذي يميل إلى المناظرة والجدال ممكناً. تدخل الولايات المتحدة في حرب أهلية أيديولوجية لا توجد فيها أرضية مشتركة يمكن أن يحتكم إليها طرفا النزاع. فكلّما أسهب أحد الطرفين في توضيح موقفه، تصبح استحالة أيّ حوار واضحةً، حتّى لو كان حواراً جدالياً. ينبغي ألّا تسحرنا اللمسات المسرحية لإجراء العزل (على سبيل المثال، رفض ترامب مصافحة بيلوسي Pelosi، وتمزيق بيلوسي نسخة خطابه بشأن حالة الاتحاد)، لأنّ النزاع الحقيقي ليس بين الحزبين بل داخل كلّ منهما.

تُحوّل الولايات المتحدة نفسها من دولة ثنائية الأحزاب إلى رباعية الأحزاب. حالياً هنالك أربعة أحزاب حقاً تحتل الفضاء السياسي: جمهوريو المؤسّسة وديموقراطيو المؤسّسة وشعبويو اليمين البديل والاشتراكيون الديموقراطيون. وثمّة بالفعل عروض لتشكيل تحالفات عبر الخطوط الحزبية: لمّح جو بايدن أواخر 2019 إلى أنّه قد يعيّن جمهورياً معتدلاً كنائب للرئيس، في حين أشار ستيف بانون Steve Bannon إلى مثله الأعلى المتمثّل في التحالف بين ترامب وساندرز. الفارق الكبير هو أنّ شعبوية ترامب تؤكّد ببساطة هيمنتها على المؤسّسة الجمهورية في حين أنّ الانقسام داخل "الحزب الديموقراطي" يصبح أشدّ، ولا عجب في ذلك ما دام الصراع بين المؤسّسة الديموقراطية وجناح ساندرز هو الصراع السياسي الحقيقي الوحيد المستمر.

إذاً نحن نتعامل مع تناحرين: أحدهما بين ترامب والمؤسّسة الليبرالية (هذا ما يدور حوله إجراء العزل)، والآخر بين جناح ساندرز في "الحزب الديموقراطي"

والآخرين جميعاً. كان التحرّك نحو عزل ترامب محاولة يائسة لاستعادة القيادة الأخلاقية للولايات المتحدة وصدقيتها، وتمريناً هزلياً في الرياء. هذا هو السبب في أنّه ينبغي ألّا تخدعنا كلّ الحماسة الأخلاقية للمؤسّسة الديموقراطية، ففحش ترامب الصريح أبرز ما كان موجوداً بالفعل فحسب. يرى معسكر ساندرز هذا الأمر بوضوح: ما من سبيل للعودة للخلف، ولا بدّ من إعادة ابتداع الحياة السياسية للولايات المتحدة جذرياً.

بعد تعداد إجراءات ترامب المناهضة للعمال والمناهضة للتكافل كافّة يلفت جوليان زيليزر Julian Zelizer الانتباه إلى كيفية انتهاك ترامب بصورة منتظمة القواعد غير المكتوبة لممارسة السلطة السياسية: "حين يتعلّق الأمر بالسلوك اللائق، يلتزم جميع الرؤساء مجموعة محدّدة من المبادئ التوجيهية غير المكتوبة. لقد ألقى الرئيس بكلّ ذلك من النافذة. قام بتطبيع شكل مسموم من الخطاب الرئاسي يقوّض ثقافتنا المدنية"[37]. يستنتج زيليزر محقًّا أنّ ديموقراطيي التيار السائد المهووسين بخطر تسمية مرشّح راديكالي يغفلون في الوقت عينه النقطة الأساسية: "حين يتعلّق الأمر بالسياسة العامّة وممارسة السلطة السياسية، ما من مرشّح، حتّى عضو مجلس الشيوخ ساندرز، يقترب من مضاهاة راديكالية الرئيس الحالي". فجميع محاولات "تليين" ترامب، ومن ضمنها جلسات الاستماع المتعلّقة بإجراء العزل، دفعته بالأحرى إلى النهاية القصوى من الراديكالية الخاصة به. الدرس الذي عليهم أن يتعلموه هو أنّ راديكالية ترامب تظلّ راديكالية هدفها حماية النظام القائم. وكما يُقال، يقوم ترامب بتغيير بعض الأمور لتظلّ مبدئياً على حالها. لقد فات أوان العودة إلى التهذيب "السويّ" القديم. الطريقة الوحيدة للفوز فعلياً على ترامب هي فعل عكس ما يفعله تماماً وأن نتحلّى باللياقة ومكارم الأخلاق، وفي الوقت عينه ندمج ذلك بتغييرات جذرية في مضمون تصرّفاتنا. لقد آن أوان إسماع صوت الأغلبية الأخلاقية الحقيقية.

37 Julian Zelizer, “The Most Radical 2020 Candidate,” CNN, February 16, 2020, https://edition.cnn.com/2020/02/15/opinions/most-radical-2020-candidate-trump-zelizer/index.html

ولكن هل ساندرز بديل حقيقي أم، كما يزعم بعض "اليساريين الراديكاليين"، مجرّد ديموقراطي اجتماعي (معتدل إلى حدّ ما) يريد إنقاذ النظام؟ الإجابة أنّ هذه المعضلة معضلة زائفة. فقد استهلّ الاشتراكيون الديموقراطيون في الولايات

المتحدة تحرًّكا جماهيرياً لاستنهاض جذري جديد، ومصير تحرّكات كهذه ليس مُقدَّرا سلفاً. هنالك أمر واحد مؤكّد: أسوأ موقف يمكن تخيّله هو موقف بعض "اليساريين الراديكاليين" الغربيين الذين يميلون إلى شطب الطبقة العاملة في البلدان المتطوّرة بوصفها "أرستقراطية عمالية" تعيش على استغلال العالم الثالث وأسيرة أيديولوجيا عنصرية فاشية. التغيير الجذري الوحيد، من وجهة نظر هؤلاء اليساريين، يمكن أن يأتي من "البروليتاريا المترحّلة" (المهاجرين وفقراء العالم الثالث) بوصفها عاملاً ثورياً (ربما بالصلة مع بعض مثقفي الطبقة الوسطى المعوزين في البلدان المتطوّرة). ولكن هل هذا التشخيص صحيح؟ بلى، فالوضع اليوم يتّسم بالعالمية، ولكن ليس بالمعنى الماويّ التبسيطي حيث يتكوّن الوضع من أمم برجوازية وأمم بروليتارية متعارضة. فالمهاجرون شبه بروليتاريين، ووضعهم محدّد للغاية. لا يتعرض كثير منهم للاستغلال بالمعنى الماركسي وليس مُقدَّرا عليهم بناءً على ذلك أن يكونوا عوامل تغيير جذري. ولذلك، أرى أنّ هذا الخيار "الجذري" سيكون انتحارياً بالنسبة إلى اليسار. عوضاً عن ذلك أنا على ثقة بأنّه يجب دعم ساندرز دون قيدٍ أو شرط.

ستكون المعركة ضارية. يعيد منتقدو ساندرز مراراً وتكراراً أنّه لا يستطيع الفوز على ترامب انطلاقاً من برنامجه اليساري المغالي، وأنّ تركيزنا الأساسي ينبغي أن ينصبّ على التخلص من ترامب. الرسالة الحقيقة الكامنة في هذه الحجّة هي: إن كان الخيار بين ترامب وساندرز، فنحن نفضّل ترامب... حتّى لو رُشّح ساندرز بمعجزة وحتّى لو فاز (بمعجزة أكبر) بالرئاسة، فسيؤدّي ذلك إلى هجوم مضاد مرعب. أمّا لويد بلانكفين Lloyd Blankfein، الرئيس التنفيذي السابق لبنك Goldman Sachs، فقد قال إنّ ساندرز سوف "يدمّر" اقتصاد الولايات المتحدة.[38] لم يكن ذلك تصريحاً محايداً بشأن حقيقة ما، وإنما تعبير عن رسالة حقيقية مفادها: "أفضّل تدمير اقتصادنا على فوز ساندرز". ولكنّنا لا نملك خياراً هنا. علينا أن ننخرط بالنضال ونحن على وعيٍ تامٍّ بالمياه المضطربة التي تنتظرنا.

38 Dominic Rushe, "'This Is What Panic Looks Like': Sanders Team Hits Back After Wall Street Criticism," *The Guardian*, February 13, 2020, https://www.theguardian.com/us-news/2020/feb/13/sanders-campaign-criticizes-panic-from-wall-street-elite-after-new-hampshire-win

12

نداء من أجل يسار محافظ باعتدال

مع تواصل إضرابات عمال النقل العام الفرنسي طوال 2020، شرع بعض المعلّقين في التنبؤ بأنّ فرنسا تقترب ممّا يشبه لحظة ثورية. ورغم أنّنا بعيدون عن ذلك، فالأمر المؤكد هو أنّ النزاع بين الدولة (الداعية إلى تشريع موحّد جديد للتقاعد) والنقابات العمالية (ترفض أيّ تغيير يمسّ ما تعتبره حقوقاً اكتسبتها بشقّ الأنفس) لا يفسح مجالاً للتسوية.

بالنسبة إلى أحد اليساريين من السهولة بمكان التعاطف مع العمال المضربين الذين يريد ماكرون Macron حرمانهم شروط تقاعدهم التي حقّقوها بشق الأنفس. لكن حريّ بالمرء أيضاً أن يلاحظ أنّ عمال النقل في السكك الحديدية وعمال النقل العام الآخرين هم من بين الذين لا يزال في إمكانهم تحمّل أعباء الإضراب. فلديهم عقود عمل دائمة لدى الدولة، كما أنّ مجال عملهم (النقل العام) يمنحهم موقعاً قوياً للتفاوض، وهذا سبب نجاحهم في اكتساب مثل هذا النظام الفعّال للتقاعد. يتمحور إضرابهم المستمر تحديداً حول الاحتفاظ بهذا الموقع المتميّز. ما من ضير بطبيعة الحال في النضال للإبقاء على عناصر في دولة الرفاهية اكتُسبت بشقّ الأنفس وتميل الرأسمالية العالمية اليوم إلى الاستغناء عنها. تكمن المشكلة في أنّه من وجهة نظر (لا تقلّ وجاهة) يتبناها أولئك الذين لا يتمتعون بهذا الموقع المتميّز (العمال المؤقّتون، الشباب، المتعطلون عن العمل، وما شابه)، هؤلاء العمال الذين يستطيعون تحمّل أعباء الإضراب عن العمل لا يمكن إلّا أن يظهروا كعدوّ طبقي يساهم في أوضاعهم البائسة، كشكل جديد لما دعاه لينين "الأرستقراطية العمالية". في وسع من يتولّون السلطة التلاعب بيسر بهذا اليأس والتصرّف كأنّهم يكافحون الامتيازات غير المنصفة نيابة عن العمال المعوزين حقاً، ومن ضمنهم المهاجرين.

فضلاً عن ذلك ينبغي ألّا ننسى أنّ عمال النقل العام يوجّهون مطالبهم لحكومة ماكرون، وأنّ ماكرون يدافع عن النظام الاقتصادي والسياسي القائم بأفضل صوره.

فهو يجمع ما بين واقعية اقتصادية ذرائعية ورؤية واضحة إزاء الاتحاد الأوروبي، فضلاً عن معارضته الحازمة للعنصرية المناوئة للمهاجرين والتحيّز الجنساني بصوره كافّة. تُمثّل الاحتجاجات نهاية حلم ماكرون. لنتذكّر أنّ الحماسة بشأن تقديم ماكرون حلماً جديداً ليس بالقضاء على التهديد الشعبوي اليميني فحسب، بل كذلك بتوفير رؤية جديدة لهوية أوروبية تقدّمية دفعت فلاسفة متعارضين بقدر تعارض يورغن هابرماس Jürgen Habermas وسلوتردايك Sloterdijk لتأييد ماكرون. لنتذكّر كيف أنّ كلّ انتقاد يساري لماكرون وكلّ تحذير بشأن التقييدات الحتمية لمشروعه قد رُفضت بوصفها دعماً "موضوعياً" لمارين لوبين Marine Le Pen. أمّا اليوم ومع الاحتجاجات المستمرة في فرنسا، فإنّنا نواجه بقسوة الحقيقة المرّة لحماسة موالاة ماكرون. ربّما كان ماكرون أفضل ما في النظام القائم، لكنّ سياساته تقع داخل الإحداثيات الديموقراطية الليبرالية للتكنوقراطية المستنيرة.

إذاً، ما الخيارات السياسية التي تتجاوز ماكرون؟ هنالك سياسيون يساريون مثل جيرمي كوربين وبيرني ساندرز يدعون إلى ضرورة المضيّ بخطوة حاسمة أبعد ممّا قام به ماكرون، نحو تغيير الإحداثيات الأساسية للنظام الرأسمالي القائم بينما تظلّ رغم ذلك ضمن الحدود الأساسية للرأسمالية والديموقراطية البرلمانية. لكنّهم سيقعون لا محالة في ورطة: ينتقدهم اليساريون الراديكاليون لأنّهم ليسوا ثوريين حقيقيين، ولأنّهم لا يزالون يتمسكون بوهم أنّ التغيير الجذري ممكن بالسبل البرلمانية المعهودة، في حين أنّ الوسطيين المعتدلين أمثال ماكرون يحذرونهم من أنّ الإجراءات التي يدعون إليها ليست مدروسة بتروٍّ ومن شأنها أن تؤدّي إلى فوضى اقتصادية (تخيلوا ردّ الفعل الفوري للأوساط المالية والتجارية لو أنّ كوربين فاز في انتخابات المملكة المتحدة في 2019...). يبدو بمعنىً ما أنّ كلا الانتقادين صحيح. تكمن المشكلة في عدم صلاحية أيٍّ من المواقف التي صيغت هذه الانتقادات على أساسها. يشير الاستياء الشعبي المتواصل بوضوح إلى حدود سياسات ماكرون، في حين أنّ الدعوات "الراديكالية" إلى الثورة ليست متماسكة بما يكفي لتعبئة السكّان، وغالباً ما تخفق في وضع رؤية واضحة عن النظام الجديد الذي ينبغي فرضه.

إذاً المفارقة أنّ الحلّ الوحيد (أقلّه في الوقت الحالي) يتمثّل في الانخراط في سياسات ساندرز وكوربين، فهما الوحيدان اللذان أثبتا قدرتهما على إحراز تحرّك

جماهيري حقيقي. علينا أن نعمل بأناة، وأن ننظّم أنفسنا لنكون مستعدين للتحرّك حال نشوب أزمة جديدة، سواء أكانت كارثة بيئية غير متوقّعة أم انفجاراً عنيفاً للسخط الشعبي القائم. ينبغي ألّا يسعى اليسار الراديكالي للتورّط في مؤامرات خبيثة للاستيلاء على السلطة في لحظة الأزمة (كما فعل الشيوعيون في القرن العشرين). ينبغي أن يعمل تحديداً على منع الذعر والارتباك عندما تأتي الأزمة. ينبغي أن تقودنا بديهية واحدة: "اليوتوبيا" الحقيقية ليست احتمال تغيير جذري، بل حالة الأمور وهي تستمر إلى أجل غير مسمّى. "الثوريون" الحقيقيون الذين يقوّضون أسس مجتمعاتنا ليسوا إرهابيين أو أصوليين دخلاء، بل ديناميّات الرأسمالية العالمية عينها.

ينطبق الأمر نفسه على الثقافة. كثيراً ما نسمع أنّ الحرب الثقافية الدائرة هي صراع بين المتمسّكين بالتقاليد الذين يؤمنون بمجموعة ثابتة من القيم وبين المؤمنين بالنسبوية ما بعد الحداثية الذين يرون القواعد الأخلاقية والهويات الجنسية وما شابه حصيلة ألاعيب السلطة العارضة. ولكن أهذه هي الحال حقاً؟ إنّ ما بعد الحداثيين الأقصويين هم نفسهم اليوم محافظون. حالما تفقد السلطة التقليدية قوّتها الجوهرية من غير الممكن العودة إليها، وكلّ شكل من العودة ليس سوى تلفيق من تلفيقات ما بعد الحداثة. هل يسنّ ترامب قيماً تقليدية؟ لا، فنزعته المحافظة هي أداء ما بعد حداثي، رحلة تباهٍ هائلة. بتلاعب ترامب بـ"القيم التقليدية" ومزجه الإحالات إلى التقاليد بالبذاءات الصارخة هو يُعَدّ رئيساً ما بعد حداثي أقصوياً، في حين يُعَدّ ساندرز شخصاً أخلاقياً عفا عليه الزمن.

هذا ما قصدّته باليسار "المحافظ باعتدال": يسار يترك خلفه هوس ما بعد الحداثة بالتجاوزات الهامشية ويقدّم نفسه بلا خجل بوصفه صوت الغالبية الأخلاقية. اليوم أكثر من أيّ وقت مضى لم يعد الناس المحترمون العاديون أعداء لنا.

13
غابات الأمازون تحترق... ما المشكلة؟

ما إن شرعت أنباء احتراق غابات الأمازون الاستوائية في الاختفاء من عناويننا الإخبارية البارزة، حتّى علمنا في منتصف تموز/ يوليو 2020 أنّ ما يقارب أربعة آلاف حريق غابات اندلعت في البرازيل في غضون يومين من تطبيق الحكومة حظراً على الإحراق المتعمّد لغابات الأمازون. لا يمكن هذه الأرقام إلّا أن تثير القلق. فنحن بتدمير غابات الأمازون الاستوائية نقتل "رئات كوكبنا الأرضي" ونُسرّع ما يبدو أنّه مسيرتنا المحتومة نحو الانتحار الجماعي... لكن إذا أردنا جدًّيا مواجهة التهديدات التي تحيق ببيئتنا، فإنّ ما علينا تجنّبه هو على وجه التحديد استقراءات سريعة كتلك التي تسحر مخيلتنا. منذ عقد أو عقدين تحدّث الجميع في أوروبا عن موت الغابات (Waldsterben). كان الموضوع حاضراً في تغطيات المجلات الأسبوعية الشعبية، وهنالك استقراءات مفادها أنّ أوروبا ستكون خالية من الغابات في غضون نصف قرن. لكن توجد الآن في أوروبا غابات أكثر من أيّ وقتٍ في القرن العشرين، وأصبحنا ندرك مخاطر بيئية أخرى. وفي حين يتعيّن أن نأخذ التهديدات البيئية بمنتهى الجدّية، علينا أن نكون أيضاً على دراية تامّة بأنّ التحليلات والتوقّعات في هذا المجال غير مؤكدة. إذ إنّنا لن نعرف على وجه اليقين ما يحدث إلّا بعد فوات الأوان. علينا تجنّب الوصول السريع إلى استقراءات والمساهمة في إشاعة "بيئة خوف"، افتتان مرضي بكارثة محدقة، لا تساعد إلّا من ينكر الاحتباس الحراري.

تحظى بيئة خوف كتلك بكلّ الفرص لتتطوّر إلى أيديولوجيا مهيمنة للرأسمالية العالمية، أفيون جديد للجماهير يحلّ محلّ الدور المتراجع للدين. تستولي بيئة الخوف هذه على وظيفة الدين الأساسية، ألا وهي إقامة سلطة لا تخضع للمساءلة وتفرض حدوداً. الدرس الذي تفرضه هذه البيئة هو محدوديتنا ورسالتها بأنّنا مجرّد نوع واحد على كوكب الأرض، مندمج بمحيط حيوي يتجاوز آفاقنا تجاوزاً هائلاً. ففي استغلالنا الموارِدَ الطبيعية نقترض من المستقبل. ووفقاً لذلك علينا معاملة أرضنا باحترام بوصفها في نهاية المطاف أمراً مقدَّسا ينبغي ألّا نميط اللثام عنه كلًّيا، قدرةً

علينا أن نثق بها لا أن نهيمن عليها. وفي حين أنّنا لا نستطيع اكتساب سيادة كلّية على محيطنا الحيوي، فإنّ في مقدورنا للأسف إخراجه عن مساره والإخلال بتوازنه ليخرج عن طوره ويزيلنا من الوجود في هذه العملية. لهذا السبب، ورغم أنّ علماء البيئة يطالبون باستمرار بتغيير نمط حياتنا جذرياً، يكمن وراء هذا المطلب موقف معاكس: انعدام ثقةٍ كليٍّ بالتغيير والتطوّر والتقدّم. ذلك لأنّه قد تكون لكلّ تغيير جذري نتيجة غير مقصودة تتسبّب في كارثة.

حتّى حين نتغلب على خوفنا ونعلن استعدادنا لتحمّل مسؤولية الدمار البيئي، يمكن أن يكون ذلك مجرد حيلة خادعة نسعى بها إلى تجنّب أبعاد التهديد الحقيقية. ثمّة ما يبعث طمأنينة مخادعة في سهولة تحمّل مسؤولية التهديدات التي تحيق ببيئتنا. يروق لنا الإحساس بالذنب ما دام الأمر يتوقّف في هذه الحالة علينا. إن كان في وسعنا التحكّم في الكارثة، يمكننا ببساطة إنقاذ أنفسنا بتغيير حياتنا. ما يصعب علينا قبوله حقاً (أقلّه في الغرب) هو أن نُختزل بالدور السلبي البحت لمراقب عاجز ليس في وسعه سوى الجلوس ومشاهدة تكشّف مصيره. ولتجنّب مثل هذا الوضع، نميل إلى الانخراط في نشاط هوسّي محموم، إعادة تدوير الورق المستعمل وشراء الأغذية العضوية وما إلى ذلك، لمجرّد أن نؤكّد لأنفسنا أنّنا نقوم بفعل ما، ونُساهم بشيء ما. مثلنا في ذلك مثل مشجع كرة القدم الذي يؤيد فريقه أمام الشاشة في البيت، فيهلّل استحساناً ويصرخ استهجاناً ويقفز عن مقعده بإيمان خرافي مفاده أنّ ذلك سيؤثّر بطريقة ما في نتيجة المباراة.

صحيحٌ أنّ الشكل النموذجي للولع الإنكاري الوثيق الصلة بعلم البيئة هو: "أعرف تمام المعرفة (أنّنا جميعاً مهدّدون)، لكنّني لا أصدّق ذلك حقاً (لذا لست مستعدًّا لفعل أيّ شيء مهم من ناحية تغيير نمط حياتي)". لكن هنالك أيضاً شكل معاكس من الإنكار: "أعرف تمام المعرفة أنّني لا أستطيع حقاً التأثير في سيرورة قد تؤدّي إلى خرابي لكن من المؤلم للغاية بالنسبة إليّ قبول هذا الأمر، فلا أستطيع مقاومة الرغبة الملحّة في فعل شيء ما حتّى لو كنت أعلم أنّه في نهاية المطاف عديم المعنى". أليس لهذا السبب نشتري الأغذية العضوية؟ من يعتقد حقاً أنّ التفاح "العضوي" نصف الفاسد وباهظ الثمن هو أفضل صحياً؟ المقصد هو أنّنا بشرائنا له لا نشتري ونستهلك منتجاً فحسب، بل نقوم بفعل ذي معنى، ونظهر حرصنا ووعينا البيئي، ونشارك في مشروع جماعي كبير.

تتعامل الأيديولوجيا البيئية السائدة معنا بصفتنا مذنبين بداهةً، مدينين دائماً للطبيعة الأم. نتعرض لضغط مستمر من قوّة الأنا الأعلى البيئي الذي يخاطبنا في فردانيتنا: "ما الذي فعلته اليوم لتسدّد دَينك للطبيعة؟ هل وضعت صحيفتك في سلة إعادة التدوير المناسبة وجميع زجاجات الجعة وعلب الكوكا كولا؟ هل ركبت سيارتك في حين كان في وسعك ركوب دراجة أو وسيلة نقل عام؟ هل شغّلت التكييف بدلاً من مجرّد فتح النوافذ؟". يسهل تمييز الرهانات الأيديولوجية لإضفاء الطابع الفردي هذا: لقد استغرقت في تفحصي الذاتي بدلاً من طرح مزيد من الأسئلة العالمية ذات الصلة المتعلّقة بحضارتنا الصناعية بأسرها.

إذاً يُفسح علم البيئة المجال بسهولة لضروب من التعمية الأيديولوجية: كذريعة لظلاميات عصر جديد (الإشادة بـ"بارادايمات (paradigms)" ما قبل حداثية، وما شابه)، أو لاستعمار جديد (تحت ستار شكاوى العالم الأول بشأن كيف أنّ التنمية السريعة لبلدان العالم الثالث تُمثّل تهديداً لنا جميعاً)، أو كمسألة شرف "للرأسماليين الخضر" (قم بشراء الأخضر، تسوّق المحلي... كأنّ أخذ البيئة في الحسبان يسوّغ الاستغلال الرأسمالي). تتجلّى هذه التوتّرات كافّة في ردود الفعل السائدة على إحراق غابات الأمازون الاستوائية.

ثمّة خمس إستراتيجيات رئيسية تُستخدم للتعمية على أبعاد التهديد البيئي الحقيقية: (1) التجاهل البسيط: إنّها ظاهرة هامشية لا تستحق انشغالنا، فالحياة تتواصل وسوف تعتني الطبيعة بنفسها (2) في مستطاع العلم والتكنولوجيا إنقاذنا (3) اتركوا الحلّ للسوق (ضرائب مرتفعة على الملوِّثين، وما إلى ذلك) (4) التشديد على المسؤولية الفردية بدلاً من اتّخاذ تدابير منهجية واسعة: لا بدّ أن نفعل ما يمكننا لإعادة التدوير وتقليل الاستهلاك، وما شابه (5) الدعوة إلى العودة للتوازن الطبيعي، نحو حياة أكثر تقليدية واعتدالاً عن طريق نبذنا الغطرسةَ البشرية، وأن نصبح مجدَّدا أبناء مطيعين للطبيعة الأم. لعلّ هذه الإستراتيجية الأخيرة هي الأسوأ؛ كامل البرادايم القائل إنّ إخراج الطبيعة الأم عن مسارها عبر غطرستنا هو أمر خطأ. فحقيقة أنّ مصادرنا الأساسية للطاقة (النفط والفحم) هي مخلّفات كوارث سابقة حدثت قبل ظهور البشرية هو تذكير واضح بأنّ الطبيعة الأم ليست أكثر من عاهرة باردة وقاسية...

هذا بالطبع لا يستتبع بأيّ حال وجوب أن نسترخي ونثق بالقدر. وعدم وضوح ما يجري في نُظمنا البيئية يجعل الوضع أكثر خطورة. الأهم من ذلك، كما يتضح بسرعة، أنّ الهجرات البشرية تتداخل على نحوٍ متزايد مع الاضطرابات البيئية كالاحتباس الحراري. تأخذ الأزمة البيئية وأزمة اللاجئين بالتداخل في إنتاج ما يُطلِق عليه فيليب ألستون Philip Alston، أحد مقرّري الأمم المتحدة الخاصين، بجدارة تسمية "تفرقة عنصرية بيئية". لقد قال في تقرير صدر عام 2019 إنّنا "سنواجه خطر سيناريو 'تفرقة عنصرية بيئية' حيث يدفع الأثرياء للهرب من ارتفاع درجات الحرارة والجوع والنزاعات بينما يُترك باقي العالم للمعاناة"[39]. أولئك الذين يتحمّلون مسؤولية أقلّ عن الانبعاثات العالمية يتمتّعون أيضاً بقدرة أقلّ على حماية أنفسهم.

39 مذكور في:

Damian Carrington, "'Climate Apartheid': UN Expert Says Human Rights May Not Survive," the *Guardian*, June 25, 2019, https://www.theguardian.com/environment/2019/jun/25/climate-apartheid-united-nations-expert-says-human-rights-may-not-survive-crisis

إذاً، يأتي السؤال اللينيني: ما العمل؟ ليس هنالك حلّ "ديموقراطي" بسيط للفوضى العويصة التي نعيشها. غالباً ما تُطرح الفكرة القائلة إنّ على الناس أنفسهم أن يقرّروا (لا الحكومات والشركات فحسب)، غير أنّها تطرح سؤالاً مهماً: حتّى لو لم تشوّه مصالح الشركات فهم الناس، فما الذي يؤهّلهم لإصدار حكم على مثل هذه المسألة الحسّاسة؟ فضلاً عن أنّ التدابير الجذرية التي يدعو إليها بعض علماء البيئة يمكنها هي نفسها التسبّب في كوارث جديدة. لنأخذ فكرة إدارة الإشعاع الشمسي: نشر الرذاذات بكميات كبيرة وبصورة متواصلة في غلافنا الجوي من أجل عكس أشعة الشمس وامتصاصها، ومن ثم تبريد الكوكب. تتضمن المخاطر المقترنة بإدارة الإشعاع الشمسي انخفاض غلّة المحاصيل وتبدّلات في الدورة المائية لا يمكن إصلاحها، ناهيك بـ"المجهولات المجهولة" الكثيرة الأخرى التي تنبثق من حقيقة أنّنا لا نستطيع تخيل كيفية أداء توازن أرضنا الهشّ وظائفَه في الواقع، وبأيّ طرق غير قابلة للتوقع، كالهندسة الجيولوجية، يمكن أن تُخلّ به.

لكن ما يمكننا عمله على الأقل هو ترتيب أولوياتنا بصورة صحيحة والإقرار بعبثية ألعابنا الحربية الجيو–سياسية عندما يكون كوكبنا نفسه الذي تُشنّ الحروب في سبيله عُرضة للتهديد. ينبغي إيقاف اللعبة السخيفة المتمثِّلة في إلقاء أوروبا اللوم على البرازيل وإلقاء البرازيل اللوم على أوروبا. توضّح التهديدات البيئية أنّ عصر الدول

القومية ذات السيادة يقترب من نهايته. هنالك حاجة إلى هيئة عالمية قوية تمتلك القدرة على تنسيق الإجراءات الضرورية. ولكن ألا تشير الحاجة إلى مثل هذه الهيئة إلى التوجّه صوب ما أُطلقت عليه في يومٍ من الأيام تسمية "الشيوعية"؟

14
تغيير جذري، وليس تعاطفاً

اختتمت بيا كليمب Pia Klemp، قبطان سفينة Iuventa لإنقاذ المهاجرين في البحر الأبيض المتوسط، شرحها سبب قرارها رفض ميدالية Grand Vermeil التي منحتها مدينة باريس لها في 2019 بالشعار التالي: ”وثائق وسكن للجميع! حرية التنقّل والإقامة!“[40]. إذا كان المطلب هنا، اختصاراً لقصة طويلة، أن يكون لكلّ شخص الحق في الانتقال إلى بلد يختاره/ تختاره وأنّ على كلّ بلد واجب توفير الإقامة له/ لها، فنحن نتعامل مع رؤية مجرّدة بالمعنى الهيغلي الحرفي: رؤية تتجاهل السياق المعقد للكلّية الاجتماعية. من غير الممكن حلّ المشكلة على هذا المستوى: يكمن الحلّ الحقيقي الوحيد في تغيير النظام الاقتصادي العالمي الذي ينتج المهاجرين. إذاً تتمثّل المهمة في التراجع قليلاً عن الانتقاد المباشر والتوجه نحو تحليل لتناقضات الوضع العالمي الجوهرية، مع التركيز على الكيفية التي يساهم فيها موقفنا النقدي نفسه في الظاهرة التي ينتقدها.

[40] “Pia Klemp Refuses the Grand Vermeil Medal Awarded to Her by the City of Paris,” Redazione Italia, August 21, 2019, https://www.pressenza.com/2019/08/pia-klemp-refuses-the-grand-vermeil-medal-awarded-to-her-by-the-city-of-paris/

عندما يحاجج المحافظون أمثال مارغريت تاتشر Margaret Thatcher ضدّ حبّ المرء المفرط لجاره، ويزعمون أنّه ينبغي أن يبقى هذا الحب ضمن حدود معقولة، هم يغيّرون بذلك تغييراً جذرياً وضع الوصية القائلة: ”أحبب جارك“. فالأمر ”المستحيل“ المقدّر له أن يعمل على غرار صيغة كانط الشهيرة، ”تستطيع فعل ذلك لأنّ عليك فعله!“، يتحوّل إلى ”ينبغي ألّا تفعل إلّا ما تستطيع فعله، من دون الإخلال فعلاً برفاهيتك التي اكتسبتها بشقّ الأنفس!“، ويصبح اعتباراً إستراتيجياً ”واقعياً“. ما أحاجج فيه هنا ليس ”تخفيف“ الوصية براغماتياً بقدر ما هو، خلافاً لذلك، شحذها على نحوٍ أكثر جذرية. كي يحبّ المرء جيرانه حقاً في محنتهم لا يكفي أن يتصدّق عليهم بسخاء من فتات موائد الأغنياء بل ينبغي أن يزيل الظروف نفسها التي تسبّب محنتهم.

في نقاش تلفزيوني جرى أخيراً[41]، قدّم غريغور غيسي Gregor Gysi، وهو شخصية رئيسية في "حزب اليسار" الألماني، إجابة وجيهة إلى متحدّث رسمي باسم مناهضة الهجرة أصرّ بشراسة على أنّه لا يشعر بمسؤولية تجاه الفقر والأهوال في بلدان العالم الثالث وأنّه بدلاً من إنفاق الأموال على هذه البلدان، ينبغي لدولنا ألّا تتحمّل المسؤولية إلّا عن رفاهية مواطنيها. كانت فحوى إجابة غيسي: إذا لم نتحمّل مسؤولية فقراء العالم الثالث (ولم نعمل وفقاً لذلك)، فسيأتون إلينا هنا (هذا بطبيعة الحال وعلى وجه التحديد ما يرفضه بشراسة مناهضو الهجرة). يُعَدّ هذا الردّ رغم تهكمه ولا أخلاقيته كما قد يبدو مناسباً أكثر بكثير من الردّ الإنسانوي المجرّد. تناشد المقاربة الإنسانوية سخاءنا وإحساسنا بالذنب ("علينا أن نفتح قلوبنا لهم، ولا سيما أنّ السبب الرئيسي لمعاناتهم هو العنصرية الأوروبية والاستعمار")، وغالباً ما تقترن هذه المناشدة بمنطق اقتصادي غريب ("تحتاج أوروبا إلى المهاجرين كي تواصل توسّعها على الصعيد الاقتصادي") وبخطاب منمق بشأن السكّان أكثر ملاءمة لليمين ("معدلات الولادة الخاصة بنا تتهاوى، إنّنا نفقد حيويتنا"). الرهانات الخفية لهذه العملية واضحة: دعونا نتعامل بانفتاح مع المهاجرين... لكن كتدبير منفصل فحسب لتجنّب التغيير الجذري الذي نحتاج إليه فعلاً وللإبقاء على نظامنا الرأسمالي الليبرالي. أمّا المنطق الذي يدعم إجابة غيسي، فهو النقيض تماماً: التغيير الاقتصادي الاجتماعي الجذري هو الوحيد القادر فعلاً على حماية هويتنا، نمط حياتنا.

41 متاح على الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=bM0AIh3buig

من أعراض الشخصية "اليسارية العالمية" السائدة كيفية رفضها أيّ حديث عن "نمط حياتنا" أو التباينات الثقافية بوصفها موقفاً من مواقف هنتنغتون Huntington الرجعية، يحجب الهوية الأساسية (أو بالأحرى يهدمها) لكلّ شخص في الرأسمالية العالمية، ويطالبنا في الوقت عينه باحترام الهويات الثقافية الخاصّة بالمهاجرين، أي بألّا نفرض عليها معاييرنا الثقافية. يتمثّل اللوم المقابل الواضح في عدم تماثل "نمطنا" "ونمطهم" في الحياة ما دام نمطنا هو المهيمن. هذا رأيٌ وجيه لكنّه يتجنّب جوهر المشكلة: الطابع العمومي في النضال من أجل التحرّر. صحيح أنّ اللاجئ من أوجه عدّة "جارٌ" بامتياز، جارٌ بالمعنى الحرفي الوارد في **الكتاب**

المقدّس: الآخر مختزلاً بحضوره العاري. يمثّل اللاجئون، مجرّدين من ممتلكاتهم وبيوتهم ومواقعهم المحدّدة في المجتمع، عموميةَ أن يكون المرء إنساناً، إذ يشير مدى ارتباطنا بهم إلى مدى ارتباطنا بالإنسانية. فهم لا يختلفون عنّا بمعنى أنّ الجماعات كافّة يختلف بعضها عن بعض؛ إنّهم بمعنىً ما يشكّلون الاختلاف بوصفه كذلك. لكنّ العمومية والخصوصية تتطابقان هنا بطريقة هيغلية صحيحة. إذ إنّ اللاجئين يأتون عُراة مادياً فحسب، ولهذا، يبدون لنا أكثر تشبُّثا بهويتهم الثقافية. يُنظر إليهم بوصفهم عالميين بلا جذور، ولكن بوصفهم في الوقت عينه عالقين في هويتهم الخاصة.

المهاجرون المترحّلون ليسوا بروليتاريين رغم مزاعم آلان باديو Alain Badiou وآخرين بأنّ "البروليتاري المترحّل" هو الشخصية النموذجية للبروليتاريا في وقتنا الحاليّ. ما يجعل البروليتاريين بروليتاريين هو حقيقة أنّهم مُستغَلّون، وأنّهم العنصر الحاسم في تحديد سعر رأس المال، فعملهم يخلق فائض القيمة. ومن الواضح أنّ هذا الأمر يتعارض مع اللاجئين المترحّلين الذين لا يُنظر إليهم بوصفهم عديمي القيمة فحسب، بل "عديمي القيمة" حرفياً بوصفهم بقية الرأسمال العالمي العديم القيمة: غالبيتهم لا تُدرَج في عملية وضع سعرٍ لرأس المال. يحلم اليساريون والرأسماليون على حد سواء بموجة جديدة من اللاجئين تُدمَج في الماكينة الرأسمالية كما حدث في ستينيات القرن العشرين في ألمانيا ثمّ في فرنسا، ويبررون ذلك بأنّ "أوروبا تحتاج إلى المهاجرين". لكنّ الأمر لا يصلح هذه المرّة إذ لم يندمج المهاجرون اجتماعياً إلى حدّ بعيد ولا يزال معظمهم "دخلاء". تضفي هذه الحقيقة مزيداً من المأسوية على وضع اللاجئين المهاجرين العالقين في حالة إهمال اجتماعي، وهو مأزق تعرض الأصولية مَخرجاً زائفاً منه. وفي ما يتعلّق بحركة رأس المال العالمي، يوضع اللاجئون في موقع فائض الإنسانية، وهو صورة طبق الأصل عن فائض القيمة، وليس في وسع أيّ مساعدة إنسانية أو انفتاح أنّ تجد حلاً لهذا التوتّر؛ لن يفي بالغرض إلّا إعادة هيكلة الصرح الدولي بأسره.

أمّا بالنسبة إلى الليبراليين اليساريين، فيُنظر إلى الحجّة الداعية إلى تغيير الوضع في بلدان العالم الثالث من أجل إزالة ظروف الفقر والحرب التي يهرب منها اللاجئون بصفتها ذريعة ماكرة (إلى حدٍّ ما) لمنع المهاجرين من القدوم إلى بلداننا. الردّ على

هذا الطرح واضح: على نحو متماثل تماماً، يُعَدّ "فتح قلوبنا" للاجئين طريقة ماكرة (إلى حدٍّ ما) لعدم فعل أيّ شيء لتغيير الوضع العالمي الذي يؤدّي إلى وجودهم.

إنّ زيف الإنسانوية هو الزيف عينه الذي نجده في رفض نزعة مركزية الإنسان (anthropocentrism) التي ينادي بها علم البيئة المتقدّم، فثمّة رياء متقدّم فيها. كلّ الحديث بشأن كيف أنّنا (البشرية) نشكّل تهديداً للحياة بأسرها على الأرض هو في الحقيقة مجرّد قلق على مصيرنا. فالأرض في حدّ ذاتها غير مبالية. وحتّى لو دمّرنا الحياة بأسرها على الأرض، فلن يكون ذلك سوى كارثة من الكوارث التي تصيبها ولن تكون الأكبر. عندما نقلق بشأن البيئة، نحن نقلق بشأن بيئتنا الخاصّة. نريد أن نضمن نوعية حياتنا وسلامتها. أمّا أنصار علم البيئة المتقدّم الذين يطرحون أنفسهم كممثِّلين للكائنات الحية كافّة، فيشغلون موقعاً زائفاً مشابهاً لموقع الليبراليين المناهضين للمركزية الأوروبية البيضاء الذين يحتفظون لأنفسهم بموقع العالمية في حين يرفضون بلا هوادة هويتهم الثقافية ويطلبون من "الآخرين" التمسّك بهوياتهم.

الدرس العام الذي ينبغي تعلّمه هنا هو أنّ على المرء أن يتجنّب بأيّ ثمن الاستسلام للعاطفة الإنسانوية الرخيصة لمن يُعَدّون مسحوقين. لهذا السبب وحده، يستحق فيلم Parasite [المتطفّل] (كوريا 2019، إخراج بونغ جوون هو Bong Joon–ho) المشاهدة. ما يتجنّبه الفيلم هو أيّ مثلَنة وعظية للمسحوقين بأسلوب المخرج فرانك كابرا Frank Capra. لا بدّ أن نعارض هنا المحتوى والشكل: على مستوى المحتوى، لا شكّ في أنّ عائلة بارك التي تنتمي إلى الطبقة العليا متفوقة أخلاقياً، فهي مراعية لمشاعر الآخرين ومتعاطفة ومفيدة بينما يتصرّف المستضعفون فعلياً مثل الطفيليات: يتطفلون ويتلاعبون ويستغلون... لكنّ عائلة بارك، على مستوى الشكل، من أصحاب الامتيازات الذين يستطيعون تحمل تكاليف رعاية الآخرين ومساعدتهم، بينما تدفع المستضعفين ظروفُهم المادية نحو تصرّفات لا تتّسم بالدماثة. ينطبق الأمر عينه على الشكوى الشائعة المناهضة للنسوية على ألسنة الرجال: "أعامل النساء برقة وطريقة غير متسلّطة لكنهنّ عدوانيات بشدّة تجاهي..."، من المؤكّد أنهنّ عدوانيات ما دامت العدوانية غالباً ما تكون الطريقة الوحيدة من وجهة نظرهنّ لمواجهة خضوعهنّ السابق. وكقاعدة عامّة، ليس في وسع أحدٍ غير أولئك الذين في القمة تقديم اللطف والتعاطف.

إذاً الحلّ لا يكمن في لعب لعبة الإنسانية، بل بالأحرى في تغيير الوضع الذي تقتضيه الإنسانوية في المقام الأول. كما عبّر عنه أوسكار وايلد Oscar Wilde في مقالته "The Soul of Man under Socialism" [روح الإنسان في ظلّ الاشتراكية]:

> يجدون (الناس) أنفسهم محاطين بفقر فاحش، بقبح فاحش، بجوع فاحش. من المحتّم أن يؤثر فيهم ذلك كلّه بقوّة. وبناء على ذلك سيضعون لأنفسهم بجدّية وعاطفية بالغتين، وبنيّات مثيرة للإعجاب، رغم أنّها مضلّلة، مهمة معالجة الشرور التي يشاهدونها. لكنّ علاجاتهم لا تشفي المرض. إنّها تطيل أمده فحسب. حقيقة الأمر أنّ علاجاتهم جزء من المرض. فهم يحاولون حلّ مشكلة الفقر مثلاً بإبقاء الفقراء على قيد الحياة أو بتسلية الفقراء في حالة انتمائهم إلى المدرسة المتقدّمة جداً. لكنّ ذلك ليس حلّاً. إنّه مفاقمة للصعوبة. يتمثّل الهدف الصحيح في اختبار المجتمع وإعادة بنائه على أساس أنّ الفقر سيكون مستحيلاً. وقد حالت فضائل الإيثار في الواقع دون تحقيق هذا الهدف.[42]

[42] Oscar Wilde, "The Soul of Man under Socialism," (1891), https://www.marxists.org/reference/archive/wilde-oscar/soul-man/

15
ترامب في مواجهة فرقة Rammstein

هنالك أمر غريب للغاية حدث أخيراً في عالم الولايات المتحدة الأكاديمي:

> أعلنت وزارة التعليم في رسالة الأربعاء (16 أيلول/ سبتمبر 2020) إلى رئيس جامعة برينستون أنّها كانت تحقّق في الكلّية بحثاً عن ثغرات في ممارساتها غير التمييزية... يأتي التحقيق بعد أن أرسل رئيس الجامعة كريستوفر لودفيغ إيسغروبر Christopher L. Eisgruber في 2 أيلول/ سبتمبر رسالة إلى طلاب الكلّية بشأن جهودها المتواصلة في مكافحة العنصرية المنهجية. "لا تزال العنصرية والضرر الذي تسبّبه للملونين مستمرة في برنستون كحالها في مجتمعنا، أحياناً بقصدٍ واعٍ ولكن في كثير من الأحيان عبر الافتراضات غير المترويّة والصور النمطية، والجهل أو قلة الاكتراث، والموروث العام لقرارات الماضي وسياساته"، كما كتب إيسغروبر. تستشهد رسالة وزارة التعليم بهذه الجملة كدليل على "العنصرية المسلّم بها" في برينستون، ويساورها القلق إزاء تأكيدات الكلّية لعدم التمييز بأنّها "ربما كانت مخطئة" وأنّ الكلّية انتهكت الباب السادس من قانون الحقوق المدنية لعام 1964. [43]

[43] Elinor Aspegren, “Department of Education Launches Investigation into Princeton University over ‘Admitted Racism,’” *USA Today*, September 18, 2020, https://www.yahoo.com/news/department-education-launches-investigation-princeton-005054478.html

إنّ رسالة وزارة التربية ملتبسة بطبيعة الحال. فإذا قرأناها قراءة سطحية، نجد أنّها دعوة أخرى للأنا الأعلى لإجراء تحقيق أعمق في آثار العنصرية، ولا يسع المرء إلّا أن يوبّخها على شدّة حذلقتها. إذ إنّ صياغة رسالة إيسغروبر، العنصرية "لا تزال مستمرة في برنستون كحالها في مجتمعنا، أحياناً بقصدٍ واعٍ ولكن في كثير من الأحيان عبر الافتراضات غير المترويّة والصور النمطية"، هي جزء من الخطاب المنمّق الليبرالي المعتاد: "مكافحة العنصرية لم تنتهِ إطلاقاً، فهنالك على الدوام أشكال

خفيّة من العنصرية لا تزال حيّة"، تعني أن الادّعاء بعدم وجود عنصرية في مجتمعاتنا يثير الريبة تلقائياً، فهو يُعَدّ في حدّ ذاته علامةً على العنصرية. تأخذ رسالة وزارة التعليم هذا الاعتراف البلاغي المحض حرفياً وتطالب باتّخاذ مزيد من الإجراءات. وهذا شبيه بإقرار مؤلف كتاب من أكثر الكتب مبيعاً بأنّ كتابه ليس مثالياً بأيّ حال، ثمّ يقوم صحافي باستجواب المؤلف: "إن كنت تعلم أنّه غير مثالي، فلماذا نشرته بحالته هذه؟ لماذا لم تواصل العمل عليه؟". ولكن أليست هذه القراءة الحرفية لاستعارة بلاغية بحدّ ذاتها إشارة إلى أمر آخر؟ أليس واضحاً أنّ التوبيخ الحقيقي لجامعة برينستون موجّه إلى وجود عنصرية في الحياة الجامعية بل لحقيقة أنّ إيسغروبر اعترف صراحة بوجودها؟ إذاً الرسالة الموجّهة إلى الجامعة هي: مارس العنصرية بتكتّم ولكن لا تعترف بها علناً (باختصار، النصيحة عينها التي قد يقدّمها أحد مناصري ترامب بتكتّم إلى ليبرالي صائبٍ سياسياً).

في مثال آخر على التنظيم الصائب سياسياً، يُظهر مشروع قانون جرائم الكراهية في اسكتلندا بوضوح تحيّزه المتعالي. فالكلام الذي يحضّ على الكراهية، وفقاً لهذا القانون، في المنازل ومن ضمنه الأحاديث التي تحرّض على الكراهية على مائدة العشاء ينبغي أن تلاحق قضائياً. وكما ذكرت صحيفة *The Times*، أشار حمزة يوسف، سكرتير مجلس الوزراء لشؤون العدل، إلى أنّه "سيكون على الصحافيين ومخرجي المسرح أيضاً أن يَمثلوا أمام المحاكم إذا كان عملهم يُعَدّ إذكاءً متعمداً للتحيّز"[44]. لاحظوا ليس المعنى الضمني في ضرورة أن يتضمّن الضبط الاجتماعي أحاديث مائدة العشاء فحسب، بل كذلك الفعل "يُعَدّ". فالعامل الحاسم ليس نية المتكلّم ولكن تصوّر المراقب الصائب سياسياً ورأيه.

44 Mark McLaughlin, “Hate Crime Bill: Hate Talk in Homes ’Must Be Prosecuted,” the *Times*, October 28, 2020, https://www.the times.co.uk/article/hate-crime-bill-hate-talk-in-homes-must-be-prosecuted-6bcthrjdc

إليكم مثالاً ثالثاً مشابهاً: القرار الذي اتّخذته أربعة متاحف رئيسية للفن في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة في أيلول/ سبتمبر 2020 لتأجيل معرض "Philip Guston Now" [فيليب غاستون الآن] أربع سنوات، وهو معرض استعادي خُطط له منذ مدة طويلة لأحد أبرز فنّاني أميركا ما بعد الحرب. في "تصرّف جبان من تصرفات الرقابة"، زعم National Gallery of Art في واشنطن وTate Moderng في لندن وMuseum of Fine Arts في بوسطن وMuseum of Fine Arts في هيوستن "أنّ

رسوم غاستون عن أعضاء منظمة Ku Klux Klan وغيرهم عدائية بوضوح وتتّسم بسخرية سوداء ولا يمكن عرضها إلى أن يحين الوقت الذي نعتقد فيه أنّ الرسالة العظيمة للعدالة الاجتماعية والعدالة العنصرية التي تحتّل مكان الصدارة في أعمال فيليب غاستون يمكن تأويلها بقدرٍ أكبر من الوضوح“[45].

[45] Clare Hurley, Blatant Censorship: Retrospective of American Painter Philip Guston Delayed Four Years, WSWS, October 5, 2020, https://www.wsws.org/en/articles/2020/10/06/gust-o06.html

تُعَدّ هذه الرقابة إشكالية مركّبة. فهي تعتمد على افتراض مسبق مفاده أنّ هنالك تفسيراً وحيداً لا لبس فيه لعمل من أعمال الفن، وما هو أشّد إشكالية أنّها تعرض موقفاً غاية في التعالي إزاء الناس العاديين. لنقلها صراحة: مفاد الفكرة أنّ أعمال غاستون مناهضة للعنصرية من دون أيّ شكّ ومناصرة للعدالة الاجتماعية، لكن ”رسوم غاستون عن أعضاء جماعة Ku Klux Klan عدائية بوضوح وتتّسم بسخرية سوداء“ ولا يمكن عرضها حالياً. لمَ لا يمكن عرضها؟ من الذين يمكن أن تؤذيهم إن كانت كلّها مناهضة للعنصرية ”بوضوح“؟ أعتقد أنّ الإجابة مركّبة. لا يمكن القول إنّ غاستون يستحوذ على ثقافة السود. كلا، إنّه ”يستشهد“ بأسوأ ما في ثقافة البيض بطريقة تجعلها مرئية بكلّ خصائصها المثيرة للاشمئزاز. يكمن ارتياب مُشاهد صائب سياسياً في أنّه حتّى لو كانت الحقيقة (مناهضة غاستون للعنصرية) واضحة، فقد يكون هنالك مشاهدون سُذّج تخلب ألبابهم الصور التي حشدها غاستون إلى حدّ أنّهم قد يتماهون معها ويفوّتون التهكّم والسخرية الانتقادية. إنّه أيضاً أسلوب قديم استخدمه منذ عقود الليبراليون الصائبون سياسياً في أوروبا، عندما كانت الموسيقا وما يرافقها من مقاطع مرئية (استخدمت صوراً وألحاناً عسكرية ”فاشية“) لفِرقٍ مثل فرقتي Rammstein وLaibach في أوجها. أعرب الليبراليون عن مخاوفهم من أنّ بعض المستمعين العاديين السُذّج سيرون عروض هذه الفِرق ترويجاً مباشراً للفاشية غير مدركين للسخرية وللبُعد النقدي فيها (بقي ”الخوف“ الليبرالي مستمراً، رغم أنّ البحوث كافّة أظهرت بوضوح أنّ جماهير هذه العروض تكاد تقتصر على اليساريين، أو أنّ فرقة Rammstein في ألمانيا أوضحت أنّها تفضل ”اليسار“، وهو حزب على يسار الديموقراطية الاجتماعية).

لكنْ ثمّة عنصر آخر يؤثّر في منع معرض غاستون: انعدام الثقة بالصور في حدّ ذاتها. يسلك النقّاد هنا سلوك اللاوعي الفرويدي، إذ لا وجود للإنكار. ليس مهماً حقاً

كيفية ارتباطك بصور غاستون، فمجرد حقيقة إظهارها على مستوىً أعمق يلغي الرسم الهزلي أو البُعد النقدي الواضحَين. ثمّة مستوىً يُدرَك فيه هذا الارتباط، بطبيعة الحال (في الفن الإباحي ناهيك بذكر أفلام إزهاق الأرواح)، لكنّ إظهاره ضروري إذا أردنا أن نقوّض بفعالية تأثير الظاهرة المصوّرة الشبقي. فمن دون إظهاره، لا يمكننا حقاً تقويضه من الداخل؛ سنبقى على مستوى الأقوال المجرّدة الخالية من الحياة. هنا تكمن قوّة عروض فرقة Rammstein: هم يعرضون التقاليد الفاشية بطريقة كاريكاتورية مبالغ فيها فتصير السخرية من هذه التقاليد محسوسة. قام غاستون بعمل مشابه ولكن على مستوىً مختلف: حدّد مكان أيديولوجيا جماعة Ku Klux Klan في البؤس اليومي لمؤيديها.

بإنكار كايوين فيلدمان Kaywin Feldman، مدير National Gallery of Art في واشنطن، نجاعةَ البُعد النقدي في أعمال غاستون، برّر قرار تأجيل المعرض بالإصرار على أنّنا

> بحاجة إلى احترام استجابة المشاهدين والتسليم بأنّ الصور تحريضية. إنّ رمز عضو Ku Klux Klan، بغضّ النظر عن نيّات الفنان، هو رمز الإرهاب العنصري الذي وقع على أجساد وعقول الأشخاص السود والسمر من مؤسّسي بلدنا. فحجّة مجرّد إخبارهم بما عليهم أن يفكّروا فيه لا تفلح حين يتعلّق الأمر بتصوير الجماعة.[46]

46 Julia Halperin, “Why Did the National Gallery Postpone Its Guston Show?” Artnet, October 6, 2020, https://news.artnet.com/art-world/kaywin-feldman-philip-guston-interview-1913483.

إذاً، الفكرة مرة أخرى هي أنّ رسوم غاستون عن Ku Klux Klan ”تحرّض“ وفعل التحريض هنا مماثل لما يُدعى ”رسالة تحذيرية“: ”تحذير معلن بأنّ محتوى نصٍّ أو مقطعٍ مرئي أو ما شابه قد يتسبّب في إزعاج بعض الأشخاص أو الإساءة إليهم، بخاصّة أولئك الذين عانوا في السابق من صدمة تتصل بهذا الأمر“.[47]

47 McKhelyn Jones, “Political Correctness, Trigger Warnings and What to Do about Them,” *The Review*, https://www.uvureview.com/news/front-page/recent/opinions/political-correctness-trigger-warnings

ما ينبغي توضيحه هنا هو: إذاً، لماذا لا تضاف ”رسالة تحذيرية“ كتلك على مدخل معرض غاستون؟ سيكون ردّ فيلدمان أنّها تُعادل فحسب إخبار الجمهور بما عليه أن

يعتقد، إذ ”إنّها لا تفلح حين يتعلّق الأمر بتصوير الجماعة“. وهذا ببساطة غير صحيح في هذه الحالة. فصور غاستون تحدّد مكان رموز Ku Klux Klan في بؤس الحياة اليومية البغيض لأحد أعضاء الجماعة، مصوًّرا ما كان سيدعوه هيغل نظرة وصيف عضو في الجماعة (في وسع المرء أن يتخيل تماماً احتجاج أحد أعضاء الجماعة على الحطّ من قدر نضالها النبيل!)؛ إنّها تعمل كمكافئ يساري للوحة تصوّر مارتن لوثر كينغ Martin Luther Kin مثلاً بطريقة كاريكاتورية وهو يمارس الجنس بشغف مع عشيقة في غرفة نُزل بينما تجثم حزمة من الملاحظات بشأن خطبته التالية فوق مائدة قريبة انسكب عليها الكحول (كما نعرف الآن، كان لكينغ عشيقات). مَن ”تحرّضه“ لوحة كهذه سيكون من أتباع كينغ، وليس من خصومه البيض... في كلتا الحالتين، لن يُطلب من المشاهدين التفكير، إذ إنّ اللوحة نفسها تثير مباشرة اشمئزازهم. تلك هي النقطة الأساسية التي تفوت نُقّاد فرقة Rammstein اليساريين من أمثال توماس بليزر Thomas Blaser الذي يكتب:

> إنّ المقطع المرئي لأغنية “Ausländer” لفرقة Rammstein الألمانية يبتغي ذلك من الناحيتين: نقد الاستعمار والسياحة الجنسية، لكن يستطيع نازيو اليمين الجُدد أن يتمتعوا أيضاً بصنع الأيقونات الفاشية... حتّى إن كان المعنى مثيراً للسخرية. ففي ديموقراطية الاستهلاك الشامل، يُقدّم الجمهور تفسيراته الخاصة. تفيد التقارير بأنّ نازيي اليمين المتطرّف الجُدد ينجذبون إلى التكوين المشهدي الحربي الفاشي الجديد، مثلهم في ذلك مثل أولئك الذين يتمتعون ”فحسب“ بالمشهد. يستطيع الفاشيون الحقيقيون تجاهل الدهاء الساخر للعرض وكلمات الأغاني والانغماس رغم ذلك في المشهد الذي يحتفي بالجماليات الفاشية، ومن ضمنها الأشخاص السود بوصفهم متوحشين سُذَّجا سعيدين. في هذا الدور، تنضّم الجماهير السائدة بوصفها من مشاهدي السخرية السوداء إلى المتطرّفين من اليمين المتطرّف والنازيين الجُدد.[48]

48 Thomas Blaser, “Is Rammstein Racist?” *Africa Is a Country*, July 26, 2019, https://africasacountry.com/2019/07/racism-comes-in-different-guises

خطأ هذه القراءة واضح. فعندما تعرض Rammstein التقاليد الشمولية، لا يحتاج المشاهد اكتشاف أيّ "دهاء ساخر"؛ هذه التقاليد تبدو غريبة في حضورها الطاغي البالغ السخف وفائض المتعة المزعج إزعاجاً مثيراً للاشمئزاز. أمّا عن الحقيقة الواضحة المتمثِّلة في أنّ تصوير الأشخاص السود في المقطع المرئي لأغنية "Ausländer" يتماشى مع الصور النمطية لعنصرية البيض، فهذا صحيح بالطبع لأنّ الأغنية ليست عن السود الحقيقيين وإنّما عن السود بوصفهم جزءاً من التخيلات الوهمية لعنصرية البيض. الهدف هو تدمير هذه التخيلات الوهمية من الداخل، عبر عرض سخافاتها المثيرة للاشمئزاز.

هنالك حدّ فاصل دقيق للتمييز بين البُعد الذي تُحدثه فِرق مثل Rammstein والنأي التهكمي الذي يمارسه دونالد ترامب إزاء مجموعات اليمين المتطرّف العنيفة. لم يكن هنالك أيّ نأيٍ عندما أعادت Rammstein إنتاج التقاليد النازية؛ لقد أفرطت في التماثل معها وبهذه الطريقة قوّضتها من الداخل. أمّا ترامب، فعندما سُئل عن المجموعات اليمينية المتطرّفة التي تشيع العنف أو نظريات المؤامرة حاول النأي بنفسه رسمياً عن مظاهرها الإشكالية وأشاد في الوقت عينه بتوجّهها الوطني العام. هذا النأي كاذب بطبيعة الحال، حيلة بلاغية محض. يتمثّل توقّع ترامب الضمني في أنّ هذه المجموعات ستتصرّف وفق دعوات العنف الضمنية التي تحفل بها خطاباته. نجد مثالاً نموذجياً عن ذلك في إجابة ترامب عندما سئل عن العنف الذي تروج له جماعة Proud Boys اليمينية المتطرّفة وتمارسه. وفقاً لما أفاد به موقع Snopes: "في غضون دقائق بعد أن أمر رئيس الولايات المتحدة دونالد ترامب Proud Boys، وهي جماعة يمينية متطرّفة يتبنّى أعضاؤها فكرة تفوق البيض، عبر شبكة التلفزة الوطنية في 29 أيلول/ سبتمبر 2020 بالتراجع والتأهب، قام أعضاء من الجماعة المقتصرة على الرجال بالتوجّه إلى وسائط التواصل الاجتماعي الهامشية للاحتفال بما اعتبروه لحظة 'تاريخية' لاندفاعتهم الأيديولوجية في مواجهة اليساريين"[49]. هذا هو ترامب في أفضل حالاته (إن كان ممكناً الصفح عن استعمالي لهذا التعبير الإشكالي هنا). لقد أمرهم فعلاً بالتراجع، أي بالكفّ عن العنف، لكنّه أضاف "والتأهب"، أي الاستعداد، لماذا؟ التلميح واضح ولا لبس فيه: للتصدي بعنف لأيّ انتقال للسلطة إلى الديموقراطيين.

49 Jessica Lee, "Who Are the Proud Boys Trump Told To 'Stand Back and Stand By'?" *Snopes*, October 7,

2020, https://www.snopes.com/news/2020/10/07/proud-boys-explained/

في النتيجة المفارقة واضحة: نأي ترامب التهكمي عن دعاة تفوق البيض الذين يساندوه هو أشدّ خطراً من التماهي المفرط لفرقة Rammstein مع الفاشية، الذي يقوضها من الداخل.

16

يومٌ من أيام العار حقاً!

في 29 تشرين الأول/ أكتوبر 2020، عُلّقت عضوية جيرمي كوربين في "حزب العمال" البريطاني. جاء القرار بعد استكمال تحقيق أجرته "لجنة المساواة وحقوق الإنسان" (EHRC)، وهي هيئة لمراقبة ضروب المساواة في المملكة المتحدة، بشأن معاداة السامية في "العمال" وجد أنّه كان ممكناً معالجة المشكلة بقدر أكبر من الفعالية "لو أنّ القيادة اختارت ذلك".[50] عُلّقت عضوية كوربين لقوله ردًّا على التقرير إنّ معاداة السامية في الحزب "بولغ فيها بشدّة لأسباب سياسية".[51] أجّج فعل التطهير هذا نزاعاً علنياً بين قائد الحزب الجديد كير ستارمر Keir Starmer وأعضاء البرلمان المؤيدين لكوربين، ومن بينهم جون ماكدونيل John McDonnell.

50 Dan Sabbagh, "Key Findings of the EHRC Inquiry Into Labour Antisemitism," *The Guardian*, October 29, 2020, https://www.theguardian.com/politics/2020/oct/29/key-findings-of-the-ehrc-inquiry-into-labour-antisemitism

51 انظر:

Jessica Elgot and Peter Walker, "Labour Suspends Jeremy Corbyn over EHRC Report Comments," *The Guardian*, October 29, 2020, https://www.theguardian.com/politics/2020/oct/29/labour-suspends-jeremy-corbyn-over-ehrc-report-comments

علّق ستارمر بأنّ تقرير اللجنة يرقى إلى "يوم من أيام العار" بالنسبة إلى الحزب. ولكن ماذا لو كان هذا يوماً من أيام عار "العمال" لسبب مختلف تماماً، ألا وهو تعليق عضوية كوربين أصلاً؟ وماذا لو أنّ فعل التطهير بحقّ كوربين لم يكن بسبب معاداته السامية (غير الموجودة أصلاً) وإنّما بسبب موقفه الحاسم تجاه الرأسمالية الذي كان الاتهام بمعاداة السامية غطاء له؟ قبيل شهر من ذلك، أمرت وزارة التعليم المدارس في إنكلترا بعدم استخدام مصادر من منظمات "تُعرب عن رغبة في القضاء على الرأسمالية" لأنّ معاداة الرأسمالية تفضي إلى "معارضة حرية التعبير ومعاداة السامية وإجازة نشاط غير قانوني".[52] بقدر معرفتي هذه هي المرة الأولى التي يصدر فيها أمر صريح كهذا بحظر موقف معادٍ للرأسمالية، ولم يحدث أمر كهذا حتّى في أحلك أوقات الحرب الباردة. لا بدّ أن يلاحظ المرء الكلمات المستخدمة: "رغبة

في القضاء على الرأسمالية"؛ ليس نية أو خطة أو برنامجاً إنّما مجرد رغبة، ما يمكن إسقاطه بطبيعة الحال على أيّ قول ("صحيح، أنت لم تقل ذلك، لكنّك ترغب فيه حقاً...)". تُعَدّ الأوامر مريبة للغاية أيضاً في تلميحها أنّ الرغبة في القضاء على الرأسمالية هي بحدّ ذاتها معادية للسامية. تتمثّل المفارقة بطبيعة الحال في أنّ ذلك الحظر بحدّ ذاته معادٍ للسامية في معناه الضمني الكامن بأنّ اليهود هم في جوهرهم رأسماليون. لا بدّ أن نلاحظ كيف يتحوّل هنا الزعم المعتاد بأنّ معاداة السامية هي معاداةٌ للرأسمالية في غير محلّها (اليهودي كناية عن الرأسمالي المستغِل): الهيمنة اليهودية هي سرّ الرأسمالية... عملية التطهير المؤسف بحقّ كوربين هي في المحصلة مجرّد الحلقة الأحدث في سلسلة الدعاية الحالية المناهضة لليسار التي تسم بوسم "معاداة السامية" كلّ فاعل يأخذ على محمل الجد انتقاده للنظام القائم، من بيرني ساندرز إلى يانيس فاروفاكيس Yanis Varoufakis.

52 Mattha Busby, "Schools in England Told Not to Use Anti-Capitalist Material in Teaching," MSN, September 27, 2020, https://www.msn.com/en-gb/news/uknews/schools-in-england-told-not-to-use-anti-capitalist-material-in-teaching/ar-BB19t30k

كتب جان بول سارتر Jean–Paul Sartre أنّه إن هاجمك طرفا نزاع سياسي بسبب النصّ عينه، فهي واحدة من علامات قليلة بأنّك على الدرب الصحيح. هوجمتُ في العقود الأخيرة (غالباً بسبب النصّ عينه) بتهمة معاداة السامية، وصولاً إلى الدعوة إلى محرقة جديدة، وبسبب الدعاية الصهيونية الغادرة (انظر مقالة أندرو جويس Andrew Joyce في تشرين الثاني/ نوفمبر 2019 في المجلة الإلكترونية (Occidental Observer)[53]. لذا أعتقد أنّ لديّ الحقّ بالتعليق على الاتهامات الموجّهة إلى "العمال" وكوربين بشأن تساهلهما المزعوم مع معاداة السامية.

53 Andrew Joyce, "Slavoj Žižek's Pervert's Guide to anti-Semitism," *Occidental Observer*, November 20, 2019, https://www.theoccidentalobserver.net/20/11/2019/Slavoj-Žižek-perverts-guide-to-anti-semitism/

أرفض قطعياً معاداة السامية بأشكالها كافّة، ومن ضمنها الفكرة القائلة إنّ في مستطاع المرء "تفهّمها" أحياناً (كما في "بالنظر لأفعال إسرائيل في الضفة، ينبغي ألّا يتفاجأ المرء إذا تمخّضت عن ردود فعل معادية للسامية"). ولأكون أكثر تحديداً، أرفض النسختين المتناظرتين للحجّة الأخيرة: "لا بدّ أن نتفهّم معاداة الفلسطينيين العرضية للسامية ما دام الفلسطينيون يعانون كثيراً"، وكذلك "لا بدّ أن نتفهّم

الصهيونية العدوانية في ضوء المحرقة اليهودية“ (ينبغي للمرء أيضاً أن يرفض النسخة التوفيقية: ”كلا الطرفين لديه وجهة نظر عليه توضيحها، فدعونا نجد طريقاً وسطاً...“).

على المنوال عينه، يجب علينا أن نكمل وجهة النظر الإسرائيلية المعتادة بأنّ النقد (المسموح به) للسياسة الإسرائيلية يمكن أن يفيد كغطاء لمعاداة السامية (غير المقبولة) مع نقيضها الذي لا يقلّ وجاهة: غالباً ما تُستحضر تهمة معاداة السامية لتشويه سمعة الانتقادات المبرّرة تماماً للسياسات الإسرائيلية. أين بالضبط يتحوّل نقد السياسة الإسرائيلية المشروع إلى معاداة للسامية؟ يُدان على نحو متزايد التعاطف المكشوف مع المقاومة الفلسطينية بوصفه معادياً للسامية. لنأخذ حالة ”حلّ الدولتين“: مثّل هذا الحلّ قبل عقود موقفاً دولياً موحَّداً ورد في بيانات كثيرة، في حين يتزايد الإعلان حالياً بأنّه يُمثّل تهديداً لوجود إسرائيل وهو في النتيجة مُعادٍ للسامية.

أمّا من وجهة نظري، فالمَخرج الوحيد من هذه المعضلة هو المَخرج الأخلاقي. ليس هنالك تعارض في نهاية المطاف بين مكافحة معاداة السامية ومكافحة ما تفعله دولة إسرائيل في الضفة. فكلا الكفاحين جزء من الكفاح عينه في سبيل التحرّر. لنذكر حالة ملموسة. في تشرين الثاني/ نوفمبر 2019، اعتذرت زارا سلطانة Zarah Sultana، مرشّحة ”العمال“، عن منشور في Facebook أيّدت فيه حقّ الفلسطينيين ”بالمقاومة العنفية“، قائلة: ”لست ممّن يؤيدون العنف ولم يكن عليّ الإعراب عن غضبي بالطريقة التي فعلت، والتي أعتذر عنها“[54]. أدعم اعتذارها بالكامل، إذ ينبغي ألّا نلعب بالعنف، لكنّني أجد نفسي ملزماً رغم ذلك أن أضيف أنّ ما تفعله إسرائيل حالياً في الضفة يتّسم بالعنف (رغم ذلك، من المؤكد أنّ إسرائيل ترغب في السلام في الضفة؛ يرغب المحتلون بحكم التعريف في السلام في الأرض المحتلة، ما دام ذلك يعني عدم وجود مقاومة...). إذا تعرّض اليهود في المملكة المتحدة لأيّ شكل من التهديد، فسأدينه من دون قيد أو شرط وقطعاً وأساند كلّ الإجراءات القانونية للتصدي له، ولكن هل يُسمح لي أن أضيف أنّ الفلسطينيين في الضفة يواجهون تهديداً أكبر بكثير من ذلك التهديد الذي يتعرّض له اليهود في المملكة المتحدة؟

54 ”Labour Coventry South Candidate Zarah Sultana Apologises For ‘Celebrate Deaths’ Post,“ BBC,

November 4, 2019, https://www.bbc.co.uk/news/uk-england-coventry-warwickshire-50292235

اليوم، تُلصق تهمة معاداة السامية أكثر فأكثر بأيّ شخص يحيد عن المؤسّسة الليبرالية اليسارية المقبولة نحو موقف يساري أكثر راديكالية. من دون تسمية كوربين، كتب إفرايم ميرفيس Ephraim Mirvis، الحاخام الأكبر في المملكة المتحدة، في تشرين الثاني/ نوفمبر 2019، مقالة لصحيفة *The Times*، وذكر فيها أنّ "سمًّا جديداً، يقاطعه من هم في أعلى الهرم، قد تجذّر في 'العمال'"[55]. ثمّ اعترف: "ليس من شأني أن أخبر أيّ شخص بالكيفية التي عليه أن يصوّت فيها"، وتابع: "عندما يأتي يوم 12 كانون الأول/ ديسمبر، أطلب من الجميع أن يصوّتوا بما تمليه عليهم ضمائرهم. لنكن على يقين أنّ روح أمتنا ستكون على المحك". أجد هذا الأسلوب في تقديم خيار سياسي كخيار أخلاقي محض مثيراً للغثيان على الصعيد الأخلاقي؛ هو يذكّرني بأنّ الكنيسة الكاثوليكية في إيطاليا امتنعت منذ عقود عن أمر المواطنين صراحة بالتصويت للحزب "الديموقراطي المسيحي"، لكنّها قالت فحسب إنّ عليهم التصويت لحزب مسيحي وديموقراطي...

55 Ephraim Mirvis, "What Will Become of Jews in Britain if Labour Forms the Next Government?", *The Times*, November 25, 2019, https://www.thetimes.co.uk/article/ephraim-mirvis-what-will-become-of-jews-in-britain-if-labour-forms-thenext-government-ghpsdbljk

أمّا اليوم، فسياسة الاختيار الراديكالي هي السياسة المبدئية الوحيدة: علينا أن نحدّد خيارنا عندما يكون الخيار ضرورياً وأن نرفضه عندما يكون الخيار زائفاً. علينا اليوم أن نرفض بحزم استغلال الصهيونية السياسي الذي يدين كلّ تعاطف مع الفلسطينيين بوصفه معادياً للسامية، تماماً مثلما علينا أن نرفض دون هوادة الإرهاب الإسلاموي الذي تجلّى في الهجمات الدموية الأخيرة في باريس ونيس. ما من خيار هنا، وما من قياس صائب ما بين الحدّين الأقصيين. وكما كان ستالين سيعبّر عن ذلك، كلاهما أسوأ. اتّخاذ كوربين موقفاً مبدئياً كذاك الموقف هو السبب الحقيقي وراء إسقاطه.

17
حدود الديموقراطية

في الأسابيع التي سبقت انتخابات 2020 الرئاسية في الولايات المتحدة، كوّنت أشكال مختلفة من المقاومة الشعبوية حقلاً موحًّدا كما ذكرت صحيفة *The Guardian*:

> تقيم مجموعات ميليشيا مسلّحة تحالفات في المرحلة النهائية للانتخاب الرئاسي في الولايات المتحدة بين أصحاب نظرية المؤامرة ومناهضي تلقي اللقاحات الذين يزعمون أنّ جائحة فيروس كورونا ليست سوى خدعة، ما يزيد حدّة المخاوف من أنّ اضطرابات قد تختمر تحضيراً ليوم الانتخاب. اجتمع كبار دعاة مناهضة الحكومة ومناهضة العلم في عطلة نهاية الأسبوع وانضم إليهم مؤسّس إحدى أكبر مجموعات الميليشيا.[56]

[56] Ed Pilkington, “US Militias Forge Alliances with Conspiracy Theorists Ahead of Election,” *The Guardian*, October 14, 2020, https://www.theguardian.com/world/2020/oct/14/armed-militias-conspiracy-theorists-anti-vaxxers-red-pill-expo

تعمل هنا ثلاثة أبعاد: أصحاب نظرية المؤامرة (مثل نظرية QAnon) ومنكرو كورونا والميليشيات العنفية. غالباً ما تكون هذه الأبعاد متضاربة ومستقلة استقلالاً نسبياً بعضها عن بعض: هنالك بعض أصحاب نظرية المؤامرة ممّن لا ينكرون حقيقة الجائحة لكنّهم يرون فيها مؤامرة (صينية) لتدمير الولايات المتحدة، وهنالك منكرون لكورونا لا يرون مؤامرة كامنة خلف الجائحة لكنّهم ينكرون فحسب جدّية التهديد (أغامبين Agamben مثلاً). لكنّ الأبعاد الثلاثة تتحرّك حالياً معاً: تُضفي الميليشيات العنفية شرعية على نفسها بوصفها مدافعة عن الحرية التي يرون أنّها تتعرّض للتهديد من مؤامرة تحيكها الدولة العميقة على إعادة انتخاب ترامب، ويرون أنّ الجائحة عنصر أساسي من عناصر المؤامرة. من وجهة النظر هذه، ستكون خسارة ترامب لإعادة انتخابه نتيجة لهذه المؤامرة، ما يعني أنّ المقاومة العنفية لخسارة ترامب تُعَدّ شرعية. في 29 تشرين الأول/ أكتوبر، أحدث المطران كارلو ماريا فيغانو Carlo Maria

Viganò، سفير الفاتيكان السابق في الولايات المتحدة والخصم الصريح للبابا فرانسيس،

> ضجة في عالم نظرية QAnon الافتراضي بعد أن استُشهد برسالته المفتوحة إلى الرئيس ترامب في منشور كتبه القائد المجهول الهوية لحركة نظرية المؤامرة تلك الشبيهة بالطائفة. استهدفت الرسالة كثيراً من المواضيع المفضّلة في نظرية المؤامرة الخاصة بمناصري ترامب وهاجمت أوغادهم المشهورين، من "النخبة العالمية" المشؤومة إلى بيل غيتس Bill Gates و"وسائل الإعلام السائدة". كتب فيغانو: "مصير العالم بأسره تهدّده مؤامرة عالمية تستهدف الله والإنسانية"، مشدًّدا على "الأهمية التاريخية للانتخاب الوشيك" ومعتبراً أنّ ترامب يمثّل "الثكنة الأخيرة في وجه ديكتاتورية العالم".[57]

[57] Caitlin Dickson, "'A Global Conspiracy against God and Humanity': Controversial Catholic Archbishop Pushes QAnon Themes in Letter to Trump," Yahoo, October 31, 2020, https://www.yahoo.com/news/a-global-conspiracy-against-god-and-humanity-controversial-catholic-archbishop-pushes-q-anon-themes-in-letter-to-trump-134003985.html

يسهل القفز إلى العنف من مثل هذا المنظور. كشف مكتب التحقيقات الفيدرالي في تشرين الأول/ أكتوبر 2020 أنّ مجموعة ميليشيا يمينية خطّطت لاختطاف غريتشن ويتمر Gretchen Whitmer حاكمة ولاية ميشيغان من بيتها وأخذها إلى مكان آمن في ولاية ويسكونسن حيث ستخضع لنوع من "محاكمة" الشعب بسبب "خيانتها".[58] فرضت ويتمر بوصفها حاكمة تقييدات صارمة لكبح إصابات كورونا، وقد انتهكت بذلك، وفقاً لمجموعة الميليشيا، الحريات التي يكفلها دستور الولايات المتحدة. ألا تذكّرنا هذه الخطة بأشهر الاختطافات السياسية في أوروبا؟ في 1978، اختطفت منظّمة "الألوية الحمراء" شخصية رئيسية من شخصيات المؤسّسة السياسية الإيطالية ذكرت إمكانية تشكيل تحالف واسع بين "الديموقراطيين المسيحيين" و"الحزب الشيوعي"، ثمّ قدّمتها إلى المحاكمة في محكمة الشعب وقُتلت رمياً بالرصاص...

[58] Derick Hutchinson, "FBI: Group Plotting to Kidnap Michigan Gov. Whitmer Wanted to Take Her to Wisconsin for 'Trial'," ClickOnDetroit, October 8, 2020, https://www.clickondetroit.com/news/local/2020/10/08/fbi-group-plotting-to-kidnap-michigan-gov-whitmer-wanted-to-take-her-to-wisconsin-for-trial/

كانت أنجيلا ناغل Angela Nagle محقّة في محاجّتها أنّ اليمين الشعبوي الجديد يتولّى الأساليب التي نُسبت بوضوحٍ قبل عقود إلى جماعات اليسار المتطرّف "الإرهابية".[59] بطبيعة الحال، لا يتضمّن هذا إطلاقاً أنّ كلا "الطرفين الأقصويين" متطابقان بطريقة ما؛ ليس لدينا مركز ثابت يحيط به بشكل متناظر كلا الطرفين الأقصويين. العداء الأساسي هو عداء بين المؤسّسة واليسار، و"التطرّف" العنفي اليميني هو ردّ فعل مذعور ناجم عن تعرّض المركز للتهديد. بدا هذا الأمر واضحاً في المناظرة الرئاسية الأخيرة، عندما اتهم ترامب بايدن بدعم قانون "الرعاية الطبية للجميع" قائلاً إنّ "بايدن يتفق مع ساندرز" وردّ بايدن: "لقد هزمتُ بيرني ساندرز".[60] كانت الرسالة من هذا الردّ واضحة: بايدن هو ترامب بوجه إنساني. ورغم تعارضهما، فعدوهما واحد. تلكم هي الانتهازية الليبرالية في أسوأ حالاتها: نبذ "المتطرّفين" اليساريين خشية إخافة المركز.

[59] Angela Nagle, *Kill All Normies* (New York: Zero Books, 2017).

[60] Peter Sullivan, “Trump, Biden Clash over Health Care as Debate Begins,” the *Hill*, 29 September, 2020, https://thehill.com/policy/healthcare/518863-trump-biden-clash-over-lawsuit-against-obamacare-as-debate-begins

ليست الولايات المتحدة وحدها من تتحرّك في هذا الاتجاه. لنلقِ فحسب نظرة على القصص الأساسية في الإعلام الغربي: في بولندا، تشتكي الشخصيات العامّة الليبرالية من أنّها أصبحت متفرجة على تفكيك الديموقراطية، وكذلك الحال في المجر… حتّى على مستوىً أعم، إنّ توتّرًا معيناً يلازم جوهر مفهوم الديموقراطية البرلمانية يتبوأ اليوم مكانة بارزة. تعني الديموقراطية أمرين: "سلطة الشعب"، أو الفكرة القائلة: ينبغي أن تعبّر الإرادة الأساسية للغالبية عن نفسها في الدولة، والثقة بالآلية الانتخابية، كي لا يهمّ مدى التلاعبات الكثيرة والأكاذيب ما دامت الأرقام المحتسبة تحدّد النتيجة التي ينبغي للأطراف كافّة قبولها. هكذا، اعترف آل غور Al Gore بالهزيمة أمام بوش رغم أنّ غالبية الناس صوّتت له وأنّ عدّ الأصوات في فلوريدا اتّسم بإشكاليةٍ كبيرة، فالثقة بالإجراء الرسمي هي ما يمنح الديموقراطية البرلمانية استقرارها. تنشأ المشكلات عندما يبتعد هذان البُعدان عن التزامن، وغالباً ما يطالب اليمين واليسار في آنٍ بضرورة أن تسود إرادة الشعب الأساسية على الشكليات الانتخابية. وهما محقّان بمعنىً ما، إذ إنّ آلية التمثيل الديموقراطي ليست حيادية في الواقع. كما يكتب آلان باديو: "إذا كانت الديموقراطية

شكلاً من التمثيل، فهي تمثّل في المقام الأول النظام العام الذي يديم شكلها. بعبارة أخرى: الديموقراطية الانتخابية هي تمثيلية ما دامت أوَّلا تمثيلاً توافقياً للرأسمالية التي تُطلق عليها اليوم تسمية 'اقتصاد السوق'"[61].

61 Alain Badiou, *De quoi Sarkozy est-il le nom?* (Paris: Editions Lignes, 2007), p. 42.

ينبغي أخذ هذه السطور بالمعنى الرسمي حرفيًّا: "تمثّل" (تعكس، تُسجّل، تقيس) الديموقراطية الليبرالية المتعدّدة الأحزاب على المستوى التجريبي بطبيعة الحال التوزّع الكمي لآراء الناس المختلفة، وما الذي يفكّرون فيه بشأن البرامج التي تقترحها الأحزاب السياسية ومرشحيهم وما شابه. غير أنّ ما يسبق هذا المستوى التجريبي وبمعنىً مسرف في الراديكالية هو أنّ جوهر شكل الديموقراطية الليبرالية المتعدّدة الأحزاب "يمثّل"، يماثل، رؤية محدّدة للمجتمع والسياسة ولدور الأفراد فيها، إذ تُنظَّم السياسة ضمن الأحزاب التي تتنافس بالانتخابات لفرض سيطرتها على أجهزة الدولة التشريعية والتنفيذية. على المرء أن يكون على دراية دائماً أنّ هذا الإطار ليس حيادياً إطلاقاً، فهو يمنح امتيازات لقيم وممارسات بعينها.

تصبح هذه اللاحيادية في لحظات الأزمة أو قلة المبالاة ملموسة، عندما نختبر عجز النظام الديموقراطي عن تسجيل ما يريده الناس أو يفكرون فيه بفعّالية. تدلّ على هذا العجز ظواهر غير مألوفة مثل انتخابات المملكة المتحدة في 2005، حين لم تكن هنالك طريقة، رغم تنامي عدم شعبية طوني بلير Tony Blair (اختير على رأس قائمة الأشخاص الذين لا يحظون بالشعبية)، كي يجد هذا الاستياء تعبيراً فعًّالا على الصعيد السياسي. من الواضح أنّ هنالك ما هو خطأ للغاية هنا، ولم يكن ذلك أنّ الناس "لم يكونوا يعرفون ماذا يريدون"، بل بالأحرى أنّ تسليماً تهكمياً منعهم من التصرّف بناء على معرفتهم، فكانت النتيجة فجوة غريبة بين ما يفكّر فيه الناس وكيفية تصرّفهم (تصويتهم).

منذ عامٍ أو نحوه، اتّسعت الفجوة عينها اتَّساعا كبيراً مع صعود "السترات الصفراء" في فرنسا. عبّرت الاحتجاجات بوضوح عن تجربة كان محالاً ترجمتها إلى أحكام سياسات التمثيل المؤسّسي أو تضمينها فيها، وهذا السبب في أنّ تجربتهم النوعية تبخّرت حين دعا ماكرون ممثليهم إلى حوار وتحدّاهم أن يصوغوا شكاواهم في برنامج سياسي واضح. ألم يحدث الأمر عينه مع حركة Podemos [قادرون] في إسبانيا؟ ففي اللحظة التي وافقوا فيها على ممارسة السياسات الحزبية والالتحاق

بالحكومة، لم يعد ممكناً تقريباً تمييزهم عن الحزب الاشتراكي. تلك علامة أخرى على أنّ الديموقراطية التمثيلية لا تفلح بالعمل كما يجب.

موجز القول: استمرت أزمة الديموقراطية الليبرالية لأكثر من عقد غير أنّ جائحة كورونا جعلتها تتجاوز في انفجارها حدًّا معيناً. تتقوّض اليوم أكثر فأكثر المقوّمات الأساسية للديموقراطية الفعّالة. وخير من عبّر عن الثقة التي تعتمد عليها الديموقراطية هو لينكولن Lincoln في قوله الشهير: "تستطيع أن تخدع الناس جميعاً بعض الوقت، وبعضهم كلّ الوقت، لكنّك لا تستطيع أن تخدعهم جميعاً كلّ الوقت". دعونا نُضفي انعطافاً أكثر تشاؤماً على هذا القول: لا تعيش الغالبية الحقيقة إلّا في لحظات استثنائية نادرة، فهي تعيش اللاحقيقة معظم الوقت في حين أنّ أقلية فقط تُدرك الحقيقة. الحلّ لا يوجد بالتأكيد في ضرب من ضروب ديموقراطية أكثر "حقيقيةً" وأكثر شمولاً للأقليات كافّة؛ سيتعيّن على إطار الديموقراطية الليبرالية نفسه أن يُترك، وهذا تحديداً أكثر ما يخشاه الليبراليون. كذلك، لا يكمن الحلّ في أنّ المجتمع المدني المنظّم ذاتياً والمعبّأ بطريقة ما (مثل "قادرون" و"السترات الصفراء") سيسيطر مباشرة على الدولة ويستبدلها. حُكم الجموع المباشر ليس سوى وهم، ولا بدّ بصفة عامّة من أن يستديم في جهاز دولة قوي. إنّ الدرب إلى تغيير حقيقي لا ينفتح إلّا عندما نفقد الأمل من حدوث تغيير داخل النظام. إن كان ذلك يبدو "راديكالياً" بإفراط، فلنتذكّر أنّ رأسماليتنا اليوم تتغيّر بالفعل، وإن كان بالاتجاه المعاكس.

العنف المباشر لا يُعَدّ بصفة عامّة ثورياً بل رجعياً، ردّ فعلٍ على التهديد بتغيّر أساسيٍّ أكثر. فعندما يكون النظام في أزمة، يبدأ خرق قواعده. قالت حنة أرندت Hannah Arendt إنّ اندلاع أعمال العنف ليس عموماً السبب الذي يغيّر مجتمعاً ما، إنّما بالأحرى آلام مخاض مجتمع جديد في مجتمع قضى نحبه بسبب تناقضاته الخاصة. لنتذكّر أنّ أرندت تورد ذلك في معرض سجالها مع ماو الذي قال إنّ "السلطة تنبثق من فوهة البندقية"، ووصفت هذا الموقف بأنّه اعتقاد "لا يمتّ بصلة للماركسية إطلاقاً" وزعمت أنّ الانفجارات العنفية من وجهة نظر ماركس تشبه "آلام المخاض التي تسبق الولادة الطبيعية لكنّها بالطبع لا تتسبّب فيها". أتفق معها مبدئياً، لكنّني سأضيف أنّ انتقالاً "ديموقراطياً" سلمياً بالكامل للسلطة لا يمكن أن

يحدث من دون "آلام مخاض" العنف؛ ستكون هنالك دوماً لحظات من التوتّر عندما تُعلَّق قواعد الإجراءات الديموقراطية.

غير أنّ عامل هذا التوتّر اليوم هو اليمين. وهذا السبب في أنّ المهمة الملقاة على عاتق اليسار، لسخرية التاريخ، هي الآن كما أشارت ألكسندريا أوكاسيو كورتيز Alexandria Ocasio–Cortez إنقاذ ديموقراطيتنا "البرجوازية" عندما يكون المركز الليبرالي متردًّدا وأضعف من أن يفعل ذلك. أيتعارض هذا مع حقيقة أنّ على اليسار اليوم تجاوز الديموقراطية البرلمانية؟ لا. وكما يبيّن ترامب، يكمن التناقض في صُلب هذا الشكل الديموقراطي نفسه إذ إنّ السبيل الوحيد لإنقاذ ما يستحق الإنقاذ في الديموقراطية الليبرالية هو تجاوزها. والعكس بالعكس: عندما يأخذ العنف اليميني بالتصاعد، فالطريقة الوحيدة لتجاوز الديموقراطية الليبرالية هي في أن نكون مخلصين لها أكثر من الديموقراطيين الليبراليين أنفسهم. ذلكم هو ما مثّلته العودة الديموقراطية الموفَّقة لحزب موراليس إلى السلطة في بوليفيا. وهي تشير بوضوح إلى إحدى النقاط المضيئة القليلة في مشهدنا المقفر.

18
شجاعة اليأس من مرض فيروس كورونا

تدفع أوروبا اليوم ثمن تهاونها الصيفي. أوًّلا اعتقدنا أنّ حرارة صيف 2020 ستقضي على جائحة فيروس كورونا. ثمّ عندما لم يختفِ الفيروس أثناء الصيف، سلّمنا بأنّ الحرارة لم تؤدِّ عملها كما توقّعنا. ورغم ذلك، انفرجت الحياة إلى حدّ ما وراودنا شعور بالارتياح بأنّ الأسوأ قد انقضى. أمّا الآن في خريف 2020 مع عودة الفيروس راغباً في الانتقام، ففي وسعنا أن نرى أنّ حرارة الصيف قد أدّت عملها كما كان متوقًّعا: لعلّها لم تقضِ على الفيروس لكنّها قلّلت من انتشاره. كان صيفنا لحظة قصيرة من الأمل اعتقدنا فيها جميعاً بطريقة ما أنّ الأسوأ قد انقضى. في وسعنا أن نسمع في كلّ مكان تحذيرات عن كيفية وجوب التأهب للموجة الثانية لكنّنا في الغالب لا نتصرّف بموجبها. مرّة أخرى يؤكّد منطق الولع الإنكاري ("أعرف تمام المعرفة، لكنّني لا أصدّق ذلك حقاً") ذاته بكلّ قوّة، ونتفاجأ الآن من أنّ ما توقّعنا حدوثه حدث بالفعل. كما أنّ هنالك حجّة أخرى تنهار الآن: ادّعاء أنّه رغم ارتفاع الإصابات بحدّة، ظلّت معدلات الوفيات منخفضة، ما يدلّ على أنّنا نتعامل مع طفرة من الفيروس أكثر اعتدالاً بكثير. فمن الواضح أنّ الوفيات الناجمة عن كورونا تتزايد في أوروبا.

تفقد الإدارات الحكومية، في كثير من البلدان الأوروبية التي أثّرت فيها الجائحة بقوّة، تدريجياً السيطرة على العدوى. عندما صرّح أحد مساعدي ترامب في 25 تشرين الأول/ أكتوبر 2020 قائلاً: "نحن لن نسيطر على الجائحة"، تسبّب تصريحه في فضيحة.[62] وعندما ضُغط على مارك ميدوز Mark Meadows، كبير موظفي البيت الأبيض، لتوضيح سبب العجز عن كبح جماح الجائحة أجاب: "لأنّه فيروس مُعدٍ مثل الإنفلونزا"، موضًّحا أنّ الحكومة قد ركّزت على طرح علاجات ولقاحات فعّالة في الأسواق. ليست هذه الحجّة سوى واحدة في سلسلة حجج ثلاث لا يمكن إلّا أن تُذكّرنا بحجّة شهيرة أثارها فرويد بشأن الإبريق المكسور: (1) أعدت إليك الإبريق سالماً (2) كان الإبريق مكسوراً عندما أعطيته لي (3) لم يسبق لي أن استعرت إبريقاً منك. أمّا النسخة التي اعتمدها البيت الأبيض في عهد ترامب، فهي كما بيّن

بول كروغمان (1 :63 Paul Krugman) إنّ كورونا هو مرض يؤثّر تأثيراً خطيراً في عدد قليل من الناس لكنّ الأطباء يبالغون في الأمر كلّه للحصول على مزيد من المال (2) المرض خطير لكنّنا (الإدارة) نقوم بعمل ممتاز (3) ليس سوى عدوى تتفشّى، فلا يمكن فعل أيّ شيء للسيطرة عليه...

62 Jonathan Lemire, Alexandra Jaffe, and Aamer Madhani, “Trump Aide: ‘We’re Not Going to Control the Pandemic,’” *AP*, October 26 2020, https://apnews.com/article/election-2020-joe-biden-donald-trump-pandemics-virus-outbreak-03de71eecbb9a605b1efc324cdeb3a5e

63 انظر:

Paul Krugman, “Trump Tells Coronavirus, ‘I Surrender,’” *The New York Times*, October 26 2020, https://www.nytimes.com/2020/10/26/opinion/trump-coronavirus-climate-change.html

هذا ما تقوم به حالياً بلدان أوروبية كثيرة بينما توشك أنظمتها الصحية على الانهيار. يقتضي التطبيق العملي حتّى الآن خضوع من يحتكّ من العاملين في المجال الطبي مع شخص مصاب للحجر الصحي. أمّا الآن، فالعاملون في المجال الطبي ملزمون الذهاب إلى العمل حتّى تظهر عليهم علامات واضحة على المرض. ورغم أنّ هذا الإجراء يعلّله نقص الطواقم الطبية لكنّه يفتح الطريق أمام تفشّي الفيروس من دون قيود في المستشفيات التي هي بالفعل بؤر ساخنة للعدوى. كما أن دولاً أخرى (مثل بلجيكا وجمهورية التشيك) قد مضت أبعد من ذلك حالياً، إذ لو كان اختبار عاملٍ في المجال الطبي إيجابياً، فهو/ هي ملزم/ ملزمة مواصلة العمل إلى أن تبلغ أعراض الإصابة حدًّا ينذر بالتدهور. بل إنّ من يعانون من أعراض الإصابة بكورونا في برلين وبلجيكا وجمهوريتي التشيك وسلوفينيا أُبلغوا أخيراً بعدم الاتصال بأطبائهم ما لم يصر الوضع خطراً. كذلك، تخلّت هذه الدول عن تتبّع الحالات والإيعاز إلى الأشخاص الذين ظهرت عليهم الأعراض بأن يحاولوا تذكّر من احتكوا بهم وإبلاغهم بأن يتصرّفوا بحذر... خلاصة القول: الدول تستسلم للفيروس.

أصبح شائعاً طوال ذلك الصيف القول إنّ إجراءات الإغلاق الكامل والحجر كانت أسوأ طبياً من المرض نفسه، وقد تسبّبت في مزيد من الأضرار ليس على الصعيد الاقتصادي فحسب، بل حتّى بالنسبة إلى الصحة (التداعيات الناجمة عن إهمال السرطان والأمراض الأخرى). تمثّلت البديهية الأساسية في تجنّب الإغلاق بأيّ ثمن. قيل لنا مراراً وتكراراً إنّ الاقتصاد لا يستطيع تحمّل توقّف آخر في الحياة الاجتماعية والاقتصادية. لكنّ ذلك أدّى إلى موجة ثالثة، وتدابير غير مدروسة أنقذت

الاقتصاد جزئياً لكنّها لم تؤدِ إلّا إلى تأجيل عودة الفيروس. قامت الحكومات بعد أن وجدت نفسها عالقة بين طرفين (أو حتّى ثلاثة أطراف)، وخبراء الطب والمصالح التجارية وضغوط منكري المرض الشعبويين، باعتماد سياسة الحلول التوفيقية واقتراح أنصاف حلول معقّدة سخيفة وغير متّسقة في كثير من الأحيان ندفع ثمنها ليس بشكل تفشٍّ جديد للإصابات فحسب، بل كذلك بالآفاق الواضحة لمصاعب اقتصادية كارثية. انجلى الواقع وباتت الحكومات الأوروبية تفكّر صراحة في إجراءات الإغلاق ما لم يُعكس هذا الاتجاه. تتمثّل المشكلة في أنّ هذه الحكومات لا يمكنها ضمن الإحداثيات الاقتصادية الاجتماعية للرأسمالية العالمية اليوم أن تتحمّل إغلاقاً آخر سيجلب فوضى وكساداً اقتصادياً، واضطرابات اجتماعية، وأزمات صحية نفسية غير مسبوقة. فالنظام العالمي لا يستطيع تحمّل أكثر من إغلاق واحد.

هذا هو الوضع الآن: انتهت تسويات صيف طويل حار مع النظام الرأسمالي العالمي، ونحن نواجه الحدود القصوى لمحاولات الدولة احتواء الجائحة من دون الإخلال بهذا النظام. الوضع ميؤوس منه؛ من الواضح أنّه ما من أمل في إيجاد حلّ داخل النظام القائم. على المرء أن يستجمع شجاعته لقبول فقدان الأمل هذا، ثمّ اقتراح تغييرٍ اقتصادي اجتماعي جذري بدلاً منه: "تسييس" (تأميم) مباشر للاقتصاد مع دور أشدّ قوّة للدولة، وفي الوقت عينه قدر أكبر من الشفافية لأجهزة الدولة داخل المجتمع المدني.

لتقديم معنىً عام للتغيير المطلوب، دعوني أشير إلى المكوّنات الأربعة لفكرة العدالة الثورية كما بيّنها آلان باديو: الإرادوية (voluntarism) (الاعتقاد بأنّنا نستطيع "تحريك الجبال"، غير مكترثين للقوانين والعوائق "الموضوعية")، الترويع (عزم لا يهون على سحق العدو)، العدالة للجميع (من دون أيّ اعتبار "للظروف المعقّدة" التي يُزعم أنّها تُكرهنا على المضيّ قُدُماً على نحو تدريجي)، أخيراً وليس آخراً، الثقة بالناس. مجرد الإشارة إلى أنّ هذه الفكرة قد تكون ذات صلة بمأزق جائحتنا لا يمكن إلّا أن تثير الرعب أو الضحك، وهي تعني قبل أيّ شيء الزعم بأنّنا نعيش في مجتمع ما بعد حداثي معقّد لا تكون فيه إجراءات كهذه غير مقبولة أخلاقياً فحسب، ولكن ثبت أيضاً عدم جدواها... غير أنّ النقطة التي أتمنى توضيحها لا تقتصر على أنّ الجائحة المتواصلة تتطلّب منّا ابتكار نسخة جديدة من هذه العناصر الأربعة، نسخة أقوى بكثير، إنّما كذلك نسخة نبتكرها بالفعل. عندما حلّت الأزمة بكوبا بعد سقوط

الاتحاد السوفياتي، أطلقت السلطات على تلك المرحلة الجديدة التي اتّسمت بالانضباط العسكري ولكن من دون حرب تسمية "المرحلة الخاصة بزمن السلم". ضحكنا جميعاً من هذه التسمية، ولكن ألا نتبوأ الآن "مرحلة خاصة بزمن السلم" كتلك المرحلة تماماً؟ لنمضِ خطوة خطوة.

الإرادوية... حتّى في بلدان تتولّى السلطة فيها قوىً محافظة، تُتّخذ قرارات كثيرة تنتهك بوضوح قوانين السوق "الموضوعية": تتدخّل الدول مباشرة في الصناعة والزراعة، وتوزّع المليارات للقضاء على الجوع أو لتطبيق إجراءات الرعاية الصحية. على الأقل سيصبح تأميمٌ جزئيٌّ للاقتصاد أكثر إلحاحاً مع التزايد المستمر للإصابات. وكما الحال في حرب، يجب توسيع الرعاية الصحية وإعادة تنظيمها من دون إيلاء اعتبار لقوانين السوق.

الترويع... الليبراليون محقّون في مخاوفهم: رغم أنّ الوضع ليس ترويعاً بوليسياً "شمولياً" قديماً، لكنّ القيود المفروضة على حرّياتنا تُعَدّ اليوم حقيقة من حقائق الحياة. لا يقتصر الأمر على أنّ الدول تُكرَه على إحداث أساليب جديدة للضبط والتنظيم الاجتماعيين، بل يُطلب من الناس في بعض الأماكن إبلاغ السلطات عن أيّ فرد من أفراد العائلة أو الجيران قد يكون مُعدياً أو يخالف تدابير الإغلاق. ومع الجائحة، ترسّخ دور المبلِّغين عن المخالفات بوصفهم الشخصية البطولية الجديدة. هنالك بالطبع أولئك الذين يقاومون فكرة وجوب أن يؤدّي الأشخاص العاديون دوراً في إبلاغ السلطات عن مخالفات القواعد المتعلّقة بالجائحة، معتبرين ذلك شبيهاً بوشاية الأصدقاء بصديقهم للشرطة، لكن ينبغي لنا رفض مثل هذه التشبيهات الزائفة.

العدالة للجميع... من المقبول عموماً أنّه لا بدّ أن يكون اللقاح متاحاً للجميع في نهاية المطاف، وأنّه ينبغي ألّا يقع أيّ جزء من سكان العالم ضحية للفيروس؛ إذا لم يكن العلاج عالمياً، فسيكون غير فعّال. أيمكن ذلك؟ مثلما كتب إيمانويل كانط Immanuel Kant عن الواجب: Du kannst denn du sollst، يمكنك لأنّه يجب عليك. بطبيعة الحال، سيكون هنالك كثير من الغش، لكن ينبغي التعامل معه بوصفه جريمة تستوجب أشدّ العقوبات. ويجب أن تُعامَل الدول التي تحاول أن تتحكّم باللقاح على حساب الآخرين بوصفها دولاً مارقة.

الثقة بالناس... نعلم جميعاً أنّ معظم التدابير المعتمدة لمواجهة الجائحة لا تنجح إلّا إذا اتّبع الناس التوصيات، وليس في وسع إشراف الدولة إداء العمل كلّه هنا. الدعوة إلى التعاطف لا تكفي؛ لا بدّ من إطلاع الناس على المخاطر وكذلك إثارة مخاوفهم بما يكفي لجعلهم يمتثلون للضوابط فعلياً. فضلاً عن ذلك، ينبغي حثّ الناس على التنظيم الذاتي في المجتمعات المحلية لمدّ يد العون إلى من يحتاج المساعدة. وبطبيعة الحال، ينبغي ألّا يثق الناس ثقة تامّة بمؤسّسات دولهم؛ لا بدّ أن تشعر هذه المؤسّسات نفسها بالضغط "الإرهابي" للذين يملكون الحقّ والواجب في معاملة أفراد هذه المؤسّسات بوصفهم مشتبهين.

سيتواصل التصدّي لهذه التدابير من الجوانب كافّة لكنّه فحسب التصدي لما يخبرنا به العلم. هذا هو السبب في أنّ معظم المقاومة يأتي من اليمين الجديد الشعبوي. ما من مكان للتسويات هنا. لقد أمضينا بالفعل الصيف الثمين بحثاً عن تسويات كهذه، ومن الواضح أنّنا خسرنا تلك المعركة. خلاصة القول، وكما قلت قبل أشهر: نحتاج في أوروبا إلى نسخة ممّا لا يمكن تسميته إلّا "شيوعية زمن الحرب": حالة طوارئ في عموم أوروبا بانضباط صارم وإخضاع الاقتصاد للتصدّي لجميع مصائبنا (وليس الجائحة فحسب). أمّا عن المصائب الأخرى التي تنتظرنا، فإليكم تقريراً من وسائل إعلامنا في 27 تشرين الأول/ أكتوبر 2020:

> اكتشف العلماء دليلاً على أنّ مكامن غاز الميتان المتجمّد في المحيط المتجمد الشمالي، المعروف باسم "مارد دورة الكربون النائم"، بدأت التحرّر فوق مساحة كبيرة من المنحدر القاري قبالة ساحل سيبيريا الشرقي كما كشفت صحيفة *The Guardian*. وقد اكتُشفت مستويات عالية من غاز الدفيئة الفعّال على عمق 350 متراً في بحر Laptev قرب روسيا، ما أثار قلق الباحثين من أنّ حلقة جديدة من الآثار المرتدّة المناخية قد استُثيرت وفي إمكانها تسريع وتيرة الاحتباس الحراري.[64]

64 Jonathan Watts, "Arctic Methane Deposits 'Starting to Release,' Scientists Say," *The Guardian*, October 27, 2020, https://www.theguardian.com/science/2020/oct/27/sleeping-giant-arctic-methane-deposits-starting-to-release-scientists-find

هل يعني ذلك أنّ علينا أن نستسلم لشيوعية زمن الحرب تلك من دون نهاية منظورة، وننسى الحريات الاجتماعية التي اعتدناها؟ حتّى لو تجاهلنا حقيقة أنّ

هذه الحريات كانت في الواقع محدودة أكثر ممّا يتبيّنها كثيرون، فإنّ المفارقة تكمن في أنّنا لا نستطيع الإبقاء على المجال مفتوحاً أمام حريات جديدة قادمة إلّا عن طريق المرور بنقطة بدايةٍ تتمثّل في "شيوعية زمن الحرب". إذا تمسّكنا بأسلوب عيشنا القديم، فستكون نهاية مطافنا بالتأكيد في بربرية جديدة. ليس في إمكاننا إيجاد مَخرج إلّا إذا اعترفنا بأنّ الوضع ميؤوس منه إذا بقينا داخل النظام العالمي القائم.

19
مفارقة حلاق ترامب

لثلاثين عاماً، واظب دونالد ترامب على زيارة صالون حلاقة بول مولي Paul Molé الواقع في الجانب الشرقي العلوي من مانهاتن. يتذكّر أدريان وود Adrian Wood صاحب الصالون أنّ ترامب كان غاية في الدقة عند إعطاء تعليمات محدّدة للحلاقين حول طريقة قصّ شعره، ولم يكن يسمح لهم إطلاقاً بإظهار موقع صلعته: "إنّه مهووس بالسيطرة التامّة. يملي عليك بدقّة كيفية قصّ كلّ شعرة في رأسه. 'قصّ هنا وهناك، هذا يكفي'. وعليك أن تمتثل تماماً لما يقوله"[65]. أمّا في تشرين الثاني/نوفمبر 2020 وبينما كان ترامب يستحضر مراراً وتكراراً إمكانية أن يُصدر قبل مغادرته منصبه عفواً عن نفسه وسط تحقيقات الدولة بشأن شؤونه التجارية والمالية،[66] فالنقاش يعيدنا إلى مفارقات المرجعية الذاتية التي نوقشت لآلاف السنين، وكذلك المفارقة (المنسوبة خطأً إلى برتراند راسل Bertrand Russell) المتعلّقة بحلاقٍ لا يحلق إلّا لمن لا يحلقون لحيتهم بأنفسهم. هل يحلق هذا الحلاق لحيته بنفسه؟ إذا كان يحلق لحيته بنفسه، فمن الواضح أنّه يخالف قاعدة حلاقة لحية من لا يحلقون لحيتهم بأنفسهم فحسب. أمّا إذا لم يكن يحلق لحيته بنفسه، فسيُدرج في فئة من لا يحلقون لحيتهم بأنفسهم ومن ثم يستطيع حلاقة لحيته بنفسه...

[65] Sara Dorn, "Donald Trump's Old Barber Says He's a Total 'Control Freak'," *New York Post*, April 7, 2018, https://nypost.com/2018/04/07/donald-trumps-old-barber-says-hes-a-total-control-freak/

[66] Evan Perez, Pamela Brown, Jamie Gangel, and Jeremy Herb, "As Trump Wrestles with Defeat, Pardons Loom For Allies—And Himself," CNN, November 12, 2020, https://edition.cnn.com/2020/11/12/politics/trump-pardons-loom-defeat/index.html

ما الذي سيحدث لو طبّقنا هذه المفارقة على ترامب، هل يمكن أن يعفو عن نفسه؟ يخبرنا الحسّ السليم أنّ الرئيس (أو أيّ سلطة عُليا أخرى كعاهل مثلاً) لديه الحق في أن يعفو عن أشخاص حوكموا وأدانتهم المحكمة، ويستطيع فحسب أن يعفو عمّن لا يستطيعون أن يعفوا عن أنفسهم (إن كان في وسع جميع المدانين أن يعفوا عن أنفسهم، فغالبيتهم العظمى ستفعل ذلك). إن كان في وسعه أن يعفو عن نفسه، فهو بحاجة إلى العفو، ما يعني أنّه شخص عادي خالف القانون ولا

يستطيع بناءً على ذلك أن يعفو عن نفسه... لكنّ حلّ هذه المفارقات، في حالة ترامب، بسيطٌ نسبياً؛ هو ذاته، الذي يعتبر نفسه حامي القانون والنظام العام، يرى نفسه فوق القانون. تتمثّل الآثار المترتّبة على زعمه أنّ في وسعه العفو عن نفسه في أنّه ليس بحاجة في نهاية المطاف إلى أن يُعفى عنه لأنّ ما يفعله غير محدّد بالقانون.

لكن ثمّة مشكلة أخرى هنا: عادة ما يقتصر امتياز منح العفو على الملوك والرؤساء الذين لا يتولّون سلطة تنفيذية، أي الذين تُعَدّ وظائفهم رمزية واحتفالية كما يُقال (رأى هيغل بوضوح ضرورة وجود مسافة تفصل بين العاهل والسلطة التنفيذية). ينشأ إغواء "الشمولية" عندما يتهاوى المستويان أحدهما في الآخر، أي عندما يتولّى رأس الدولة الرمزي السلطة التنفيذية. وهذا الأمر لا يحدث فحسب في "الشمولية" الفاشية والستالينية (رغم أن موسوليني Mussolini، في حالة إيطاليا، لم يتولَّ كلا الدورين، فقد ظلّت إيطاليا دولة ملكية)، بل إنّه مدوّن أيضاً في دستور الولايات المتحدة نفسه. تتفرّد الولايات المتحدة في أنّ الرئيس ليس مُعفىً من السلطة التنفيذية، فالوظيفتان متحدتان (هذا هو السبب في أنّ رؤساء الولايات المتحدة يستطيعون أن يحكموا بموجب أوامر تنفيذية، متجاهلين إلى حدّ بعيد مجلسي الشيوخ والنواب). من أين تأتي هذه الصلاحية؟ يبيّن إريك نيلسون Eric Nelson في كتابه [67] *The Royalist Revolution* [الثورة الملكية] على نحو مقنع أنّ الإعجاب بقدرة الصلاحية الملكية والإيمان بفضائل سلطة تنفيذية قوية، وكلاهما مستمدٌّ من سوابق القرن السابع عشر، هما ما شجّعا التمرّد على بريطانيا وصاغا دستور الجمهورية الأميركية الجديدة. أتت الثورة الأميركية من تقليد ملكي وليس من تقليد برلماني. أوَّلا أمِل الآباء المؤسّسون أن يحميهم الملك البريطاني من طغيان البرلمان البريطاني الذي رفع الضرائب على المستعمرات الأميركية، وعندما لم يتحقّق ذلك، دمجوا تلك الصورة لعاهل يمتلك سلطات تنفيذية في دستورهم.

[67] Eric Nelson, *The Royalist Revolution: Monarchy and the American Founding* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2017).

كان لقرار الآباء المؤسّسين هذا عواقب وخيمة حتّى يومنا: ما يشترك فيه أوباما وترامب، رغم كلّ تناقضاتهما، هو الاستخدام المفرط للأوامر التنفيذية. وهذا لا يعني أنّ الولايات المتحدة دولة ملكية فعلاً، بل إنّها بمعنىً ما أسوأ من ملكية دستورية؛

إنّها تشبه ملكية يحظى فيها الملك أيضاً بسلطة تنفيذية في إمكانها أن تقيّد الأوليغاركية البرلمانية. ورغم ذلك، تعلّمنا سخرية التاريخ أنّ أمراً حسناً قد ينجم عن هذا الخطر. هل تتذكّرون كيف استخدم ترامب في بداية ولايته سلطاته التنفيذية لإعلان حالة طوارئ وطنية؟ صُدم منتقدوه من كيفية تطبيقه هذا الإجراء، المخصّص بوضوح لمصائب كبرى من قبيل تهديد بشن حرب أو كارثة طبيعية، من أجل بناء جدار حدودي لحماية الولايات المتحدة من تهديد مُختلَق. لكن لم يكن الديموقراطيون وحدهم من انتقد هذا الإجراء، بل إنّ بعض اليمينيين جزعوا أيضاً من حقيقة أنّ إعلان ترامب يشكّل سابقة خطيرة: ماذا لو أعلن رئيس ديموقراطي يساري في المستقبل حالة طوارئ وطنية باسم الاحتباس الحراري مثلاً؟ ما أعنيه على وجه التحديد أنّ على الرؤساء اليساريين في المستقبل التصرّف على هذا النحو لشرعنة تدابير استثنائية عاجلة؛ الاحتباس الحراري هو فعلياً حالة طوارئ (ليست وطنية فحسب).

20
كيف تقتل ترامب بإظهاره على حقيقته

في 23 تشرين الثاني/ نوفمبر 2020، وافق ترامب على الشروع في تركه السلطة الرئاسية، لكنّ الطريقة التي أُعلنت فيها موافقته تخبر كثيراً عن ترامب.[68] فقد أعقبت إعلان إدارة الخدمات العامّة أنّ جو بايدن هو "الفائز الظاهري" في انتخابات الولايات المتحدة، ما سمح ببدء نقل السلطة الرسمي من إدارة ترامب. قالت رئيسة إدارة الخدمات العامّة، إيميلي مورفي Emily Murphy، في رسالة موجّهة إلى الرئيس المنتخب إنّها توصّلت إلى قرارها "باستقلالية" ولم تتعرّض لأيّ ضغوط من السلطة التنفيذية (لاحظوا الإشارة إلى بايدن بوصفه الفائز "الظاهري" في الانتخابات؛ إذا كان نقيض المظهر هو الجوهر، فهذه الصفة تتضمّن أنّ ترامب هو الفائز "جوهرياً" أيًّا كانت الحصيلة النهائية لإعادة فرز الأصوات!). ورغم ذلك، غرّد ترامب بعد دقائق من أوّل ذكر لرسالة مورفي بأنّه منح مورفي الإذن بإرسال الرسالة رغم أنّه توعّد بمواصلة الاحتجاج على هزيمته؛[69] سيواصل فريق حملته دفع مؤيّديه لدعم الجهود المبذولة لجمع التبرعات، في محاولة أخيرة للتغلّب على نتيجة الانتخابات. إذاً، وافق ترامب على نقل السلطة من دون أن يقرّ بهزيمته، مجيزاً اتّخاذ إجراءات مستقلّة عن إرادته... يُمثّل ترامب تناقضاً مفعماً بالحياة: المتهكّم الأخير لما بعد الحداثة الذي يقدّم نفسه بوصفه حارساً للقيم المسيحية التقليدية، والمقوّض النهائي للقانون والنظام العام الذي يقدّم نفسه بوصفه ضمانة النظام العام غير المشروطة.

68 انظر:

Sam Levin and Maanvi Singh, “Trump Agrees to Begin Transition as Key Agency Calls Biden Apparent Election Winner,” *The Guardian*, November 24, 2020, https://www.theguardian.com/us-news/2020/nov/24/trump-transition-biden-general-services-administration

69 Kevin Breuninger, “Trump Administration Officially Begins Transition to Biden after Weeks of Delay,” CNBC, November 23, 2020, https://www.cnbc.com/2020/11/23/trump-appointee-informs-biden-that-gsa-will-begin-transition-process-reports-say.html

ثمّة توتّر مماثل في كيفية ارتباط ترامب باليمين المتطرّف، وخصوصاً في كيفية نأيه بنفسه عن معظم مظاهر هذا اليمين الإشكالية والإشادة في الوقت عينه بموقفه الوطني العام. هذا النأي خُلّبي بطبيعة الحال، مجرّد أداة بلاغية. ففي حين يشجب ترامب بطريقة واهية أسوأ مظاهر جماعات مثل Proud Boys (طالباً منهم "التراجع")، هو يعبّر بوضوح في الوقت عينه عن توقّعه أن ("يتأهبوا" من أجل أن) يتحرّكوا بناءً على الدعوات الضمنية في خطاباته لاستخدام العنف.

إنّ استجابة ترامب لجماعة Proud Boys هي مجرّد شاهد واحد على وجوب أخذ "تجاوزاته" على محمل الجد. شجبت ميلانيا ترامب Melania Trump، في إطلالة نادرة لدعم زوجها في حملة 2020 الانتخابية، "الأجندة الاشتراكية"[70] لبايدن. ولكن ماذا عن كامالا هاريس Kamala Harris التي تُعَدّ عادةً أكثر يسارية من بايدن الشديد الاعتدال؟ كان زوج ميلانيا واضحاً بشأن هذه النقطة: "إنّها شيوعية. إنّها ليست اشتراكية. إنّها تتجاوز الاشتراكية. إنّها تريد فتح الحدود للسماح بتدفّق القتلة والمجرمين والمغتصبين إلى بلدنا"[71] (بالمناسبة، منذ متى كان فتح الحدود سمة من سمات الشيوعية؟). جاء ردّ فعل بايدن فوراً: "ليس ثمّة مقطع لفظي واحد سبق لي أن قلته يمكن أن يدفعكم للاعتقاد بأنّني كنت اشتراكياً أو شيوعياً"[72]. هذه حقيقة واقعية، لكنّ هذا التفنيد يجانب الصواب. إذ إنّ تبرئة بايدن وهاريس من الاشتراكية/ الشيوعية ليست مجرّد مبالغة بلاغية. فترامب لا يقول ما يعرف أنّه غير صحيح فحسب، بل إنّ "مبالغاته" تقدّم بالأحرى حالة نموذجية لما يتعيّن على المرء تسميته واقعية التصوّرات، أي فكرة أنّ التصوّرات ليست مجرّد تسميات، فهي تخلق فضاءً سياسياً ولها في النتيجة آثار فعلية. يمثّل "المخطّط الإدراكي" للفضاء السياسي بالنسبة إلى ترامب نقيضاً شبه مناظر للمخطّط الستاليني الذي يُعَدّ وفقه كلّ من يعارض الحزب جزءاً من مؤامرة فاشية. وبطريقة مشابهة، المركز الليبرالي في طريقه إلى الزوال من وجهة نظر ترامب، أو بتعبير صديقه فيكتور أوربان Viktor Orbán، الليبراليون ليسوا سوى شيوعيين حاصلين على شهادات،[73] ما يعني أنّه لا يوجد سوى قطبين حقيقيين: الوطنيين الشعبويين من جانب، والشيوعيين من جانب آخر.

70 Michael Rubinkam, "Melania Trump Slams Biden, Dems in First Solo Campaign Stop," *AP*, October 27, 2020, https://apnews.com/article/melania-trump-slams-joe-biden-democrats-abea5fb241eaa7c320da7f7e22bf6342

71 Katherine Fung, “Donald Trump Says Kamala Harris Is a ‘Communist’ and a ‘Monster’ Who Wants to Open Up Borders,” *Newsweek*, October 8, 2020, https://www.newsweek.com/donald-trump-says-kamala-harris-communist-monster-who-wants-open-borders-1537492

72 Fung, “Donald Trump Says Kamala Harris Is a “Communist.””

73 Kovács Zoltán, “Orbán: ‘There Are No Liberals, Only Communists with University Degrees’,” Index, February 17, 2020, https://index.hu/english/2020/02/17/hungary_viktor_orban_state_of_the_nation_2020/

هنالك تعبير رائع في اللغة الصربية: Ne bije al’ ubija u pojam (لا تتغلب عليه بل تقتله بمفهومه). يشير هذا التعبير إلى شخص ينهال عليك، بدلاً من تدميرك بالعنف المباشر، بأفعال تقوّض احترامك لذاتك فينتهي بك الأمر ذليلاً محروماً جوهر (”تصوّرك“) لكينونتك. يصف ”القتل بالتصوّر“ نقيض التدمير الفعلي (لواقعك الماديّ) إذ يبقى ”تصوّرك“ على قيد الحياة بطريقة سامية (مثلاً، قتل عدو بطريقة يبقى فيها حياً في أذهان الآلاف بوصفه بطلاً). على هذا النحو، يتعيّن علينا أن نتعامل مع النازية: ينبغي ألّا ندمّر هتلر فحسب (التخلّص من ”تجاوزاته“ والإبقاء على الجوهر العقلي لمشروعه)، بل أن نقتله بتصوره. ينطبق الأمر عينه على ترامب وإرثه. ليست المهمّة الحقيقية هزيمته (فتح إمكانية أنّه سيعود في 2024) فحسب، بل ”قتله بتصورّه“، أي جعله بادياً للعيان بكلّ غروره وتقلّبه التافهين، وكذلك طرح سؤال (هذا هو الجزء الحاسم): كيف استطاع شخص بمثل تفاهته أن يصير رئيساً للولايات المتحدة. ومثلما كان هيغل سيعبّر، قتل ترامب بتصوّره يعني إحضاره لتصوّره، أي السماح له بتدمير نفسه ببساطة عبر جعله بادياً للعيان على حقيقته.

21

إحياء الديموقراطية؟
ليس مع جو بايدن!

يُستخدم مصطلح ”إحياء الديموقراطية“ (عنوان كتاب أصدره في 2007 المؤرخ غاريت إيبس Garrett Epps) في تدوين تاريخ الولايات المتحدة للإشارة إلى الزمن الذي أعقب الحرب الأهلية عندما وحّد جميع التقدّميين قواهم لإضافة التعديل الرابع عشر إلى الدستور. منح هذا التعديل جميع الأميركيين من أصل أفريقي مواطنة كاملة ومنع أيّ ولاية من حرمان أيّ مواطن الحماية المتساوية بموجب القانون. غيّر هذا التعديل معظم تفاصيل الحياة العامّة في الولايات المتحدة، وهذا ما جعل الباحثين يُطلقون عليه تسمية ”الدستور الثاني“. لم يكن تصالحاً بين الشمال المنتصر والجنوب المهزوم، وإنّما وحدة جديدة فرضها المنتصر، خطوة كبيرة نحو انعتاق شامل. ألم يحدث شيء مشابه في تشيلي مع انتصار حركة ”الموافقة“ في استفتاء تشرين الأول/ أكتوبر 2020؟ لم يكن هدف عملية تغيير الدستور التي وافقت عليها غالبية كبيرة التخلص من إرث بينوشيه والعودة إلى حقبة ”ديموقراطية“ ما قبل بينوشيه فحسب، بل كان المقصود منها تغييراً أكثر جذرية، مرحلة جديدة من الانعتاق. ”إحياء الديموقراطية“ هنا أيضاً ليس عودة إلى وضع دولة مثالية قديمة لكن قطيعة جذرية مع الماضي بأسره.

كانت الولايات المتحدة في حقبة ترامب في حالة حرب أهلية سياسية أيديولوجية بحكم الواقع بين اليمين الشعبوي الجديد والمركز الديموقراطي الليبرالي، ترافقت مع تهديدات عرضية باستخدام العنف الجسدي. هل هنالك الآن، وقد هُزمت شعبوية ترامب التسلّطية، فرصةٌ ”لإحياء ديموقراطية“ جديدة في الولايات المتحدة؟ لسوء الطالع، ضاعت هذه الفرصة الضئيلة بتهميش ”الاشتراكيين الديموقراطيين“ من أمثال بيرني ساندرز وألكسندريا أوكاسيو كورتيز. التحالف بين الليبراليين اليساريين والاشتراكيين الديموقراطيين هو وحده القادر على دفع سيرورة الانعتاق الديموقراطي خطوة إلى الأمام.

ببقاء مجلس الشيوخ بين أيدي الجمهوريين والمحكمة العليا بغالبية محافظة، يخضع بايدن بوصفه رئيساً جديداً لتقييدات شديدة ولن يكون قادراً على فرض أيّ تغيير جدّي. وعدا ذلك، تتمثّل المشكلة العويصة في أنّ بايدن نفسه وكيلٌ "معتدل" من وكلاء المؤسّسة الاقتصادية والسياسية يخاف من أن يُتّهم بأنّ لديه ميولاً اشتراكية. لذا، كان مُبرَّرا لأكسندريا أوكاسيو كورتيز أن تخترق الهدنة في مقابلة أعقبت الانتخابات وتنتقد "الديموقراطي" لقلة كفاءته، محذّرة من أنّه ما لم تضع إدارة بايدن تقدّميين في المناصب العليا، فسوف يتكبّد الحزب خسائر كبيرة في انتخابات 2022 النصفية.[74]

[74] Tom McCarthy, "Alexandria Ocasio-Cortez Ends Truce by Warning 'Incompetent' Democratic Party," *The Guardian*, November 8, 2020, https://www.theguardian.com/us-news/2020/nov/08/alexandria-ocasio-cortez-ends-truce-by-warning-incompetent-democratic-party

الولايات المتحدة منقسمة حالياً انقساماً متناظراً تقريباً، وكلمات بايدن عن الوحدة والتصالح تبدو عديمة المعنى. وكما عبّر عن ذلك روبرت رايش Robert Reich: "كيف يمكن بايدن أن يُشفي أميركا بينما لا يريد لها ترامب أن تُشفى؟"[75]. وهذا الانقسام موجود هنا ليبقى: "لم يكن ترامب وليد المصادفة. وأميركا التي صنعته لا تزال معنا"[76]. فمن الممكن تماماً أنّ يؤول "إحياء الديموقراطية"، كما حدث بعد الحرب الأهلية، إلى تسوية بين الجمهوريين والديموقراطيين الجنوبيين المناهضين للسود، وسيحدث شيء مشابه بعد سنتين من حكم بايدن.

[75] Robert Reich, "How Can Biden Heal America When Trump Doesn't Want It Healed?" *The Guardian*, November 8, 2020, https://www.theguardian.com/commentisfree/2020/nov/08/joe-biden-donald-trump-election-healing-robert-reich

[76] Michael Goldfarb, "Trump Was No Accident. And the America That Made Him Is Still with Us," *The Guardian*, November 8, 2020, https://www.theguardian.com/commentisfree/2020/nov/08/trump-was-no-accident-the-america-that-made-him-is-still-with-us

لكنّ نتيجة الانتخابات ليست مجرّد مأزق. هنالك فائز واضح: رأس المال الكبير وأجهزة "الدولة العميقة"، من Google وMicrosoft إلى مكتب التحقيقات الفيدرالي ووكالة الأمن القومي. فرئاسة ضعيفة لبايدن مع مجلس شيوخ بيد الجمهوريين هي، من وجهة نظرهم، أفضل نتيجة ممكنة. من دون غرابة أطوار ترامب، ستعود التجارة الدولية والتعاون السياسي إلى الوضع الطبيعي قبل ترامب، في حين سيعترض مجلس الشيوخ والمحكمة العليا سبيل أيّ إجراءات جذرية. إذاً المفارقة

في الولايات المتحدة أنّ فوز الجانب "التقدّمي" كان في الوقت عينه هزيمة له، ومأزقاً سياسياً ربما يمنح ترامب فرصة للعودة إلى السلطة في 2024.

لهذا علينا، تحديداً في لحظة هزيمة ترامب، أن نسأل كيف نجح في استمالة نصف الشعب الأميركي. ما من شكّ في أنّ أحد الأسباب هو السمة التي يشاطر بها بيرني ساندرز. يتميّز مؤيدو ساندرز بشدّة الولاء له. وكما يقولون، حيثما تمضي مع بيرني فلا يمكن أن تعود. ما من تعلّق غامض هنا، بل مجرّد إدراكٍ لبعض الناس أنّ بيرني يتناول حقاً مشكلاتهم ويلبيها، وأنّه يفهمهم فعلياً خلافاً لجميع المرشحين الديموقراطيين الآخرين. ليست المسألة واقعية برنامج ساندرز أو قابليته للتنفيذ، بل هي أنّه يلمس وتراً حساساً عند مناصريه. هل لناخب يقلقه ما سيحدث لو أُصيب (أو بالأحرى، عندما يُصاب) أحد أفراد عائلته بمرض شديد أن يأخذ على محمل الجدّ أنّ شركة Bloomberg أو بايدن سيفهمانه حقاً؟

وهنا يُعَدّ ترامب شبيهاً سطحياً لساندرز. فرغم أنّ تضامنه مع الناس العاديين غالباً ما يقتصر على بذاءاته الفاحشة، غير أنّه يتناول أيضاً مخاوفهم وهمومهم اليومية بعبارات بسيطة، معطياً انطباعاً بأنّه يهتم بهم حقاً ويحترم كرامتهم. على المرء أن يُقرّ بذلك، فحتّى في تعامل ترامب مع الجائحة اعتمد مقاربة "إنسانية": حاول أن يبقى هادئاً وأخبر الناس أنّ الجائحة ستنتهي قريباً وأنّه سيكون في وسعهم متابعة حياتهم المعتادة... كتبتُ سابقاً أنّ بايدن هو ترامب بوجه إنساني، أكثر تحضًّرا ولطفاً، لكن في وسع المرء أن يقول العكس: ترامب هو بايدن بوجه إنساني، حيث تُختزل "الإنسانية" طبعاً بمستواها الأساسي من البذاءات والشتائم الشائعة، وبالمعنى عينه عندما يثرثر مخمور عادي بالترهات بطريقة "إنسانية" أكثر من إنسانية خبير يتحدّث عن معادلات معقّدة.

نحن الآن في وضع متدنٍّ وأقصى ما نطمح إليه هو رئيس لن يغيّر أيّ شيء. الجماعة الوحيدة التي يستحق أفرادها أن يُحتفى بهم كأبطال هم من تجاهلوا ببساطة تهديدات مناصري ترامب العنفية وتابعوا بهدوء عملهم في فرز الأصوات؛ عادة ما يقتصر مثل هذا الثناء على "الدول المارقة" حيث يُعَدّ انتقال سلمي للسلطة سبباً للاحتفال.

يتمثّل الأمل الضئيل الوحيد في بقاء نتيجة غير مقصودة من حقبة ترامب: انسحاب الولايات المتحدة الجزئي من سياسة العالم. على الولايات المتحدة أن تقبل أنّها

مجرّد دولة أخرى في عالم جديد متعدّد الأقطاب. إنّها الطريقة الوحيدة المتاحة لنا جميعاً كي نتجنّب الوضع المهين المتمثّل في الترقب العصيب لفرز الأصوات في الولايات المتحدة، كأنّ مصير العالم بأسره يتوقف على بضعة آلاف من الجهلة الأميركيين.

22

حالة الأشياء:
الخيار

ما وضعنا الآن بخصوص الجائحة، وأنا أكتب هذه السطور في نهاية تشرين الثاني/نوفمبر 2020، وسط ما يدعونه في وسائل الإعلام الأوروبية "الموجة الثانية"؟ علينا ألّا ننسى أبداً أنّ التمييز بين الموجة الأولى والثانية يتركّز في أوروبا. ثمّة وتيرة أخرى في أميركا اللاتينية، إذ بلغت الجائحة ذروتها بين الموجتين الأوروبيتين. أمّا الآن، وبينما تعاني أوروبا من الموجة الثانية، فالوضع في أميركا اللاتينية أفضل قليلاً. علينا أيضاً أن نضع نصب أعيننا التفاوتات الواضحة في كيفية تأثير الجائحة في مختلف الطبقات الاجتماعية (تأثُّر الفقراء كان أكبر بكثير) والأعراق (في الولايات المتحدة عانى السود واللاتينيون أكثر من غيرهم) والجنس (تُصاب النساء بتواتر أكبر من الرجال ويعانين من حدّة الأعراض أكثر من الرجال)، وكيف اتّخذت وتائر متباينة في مختلف القارات (أفريقيا عموماً أقلّ تأثراً) والدول (في أوروبا، تتعافى حالياً فرنسا وإسبانيا بينما لا تزال ألمانيا تعاني أكثر، في تناقضٍ واضح مع ما كان عليه الوضع قبل شهرين). وعلى وجه الخصوص، علينا دائماً أن نضع نصب أعيننا بلداناً يكون الوضع فيها بالغ السوء (بسبب الحرب والفقر والجوع والعنف المحلي وما شابه) بحيث تُعَدّ الجائحة شراً من الشرور الصغرى. فكّروا فقط في اليمن الذي تذكر عنه صحيفة *The Guardian*: "في بلد تتفشّى فيه الأمراض، لا تكاد تُسجّل إصابات كورونا. فقد جعلت الحرب والجوع والتخفيضات المدمرة للمساعدات محنة اليمنيين لا تُطاق"[77]. وعلى نحو مماثل، عندما اندلعت الحرب الخاطفة بين أذربيجان وأرمينيا، ادّعى مسؤولو كلا البلدين أنّ هذه الحرب تُبرّر تخفيض أهمية مكافحة الجائحة في قائمة الأولويات. ورغم هذه التعقيدات، يمكننا تعميم بعض السمات التي يتّضح بشأنها التباين بين الموجة الثانية وذروة الموجة الأولى:

77 Bethan McKernan, "Yemen: In a Country Stalked by Disease, Covid Barely Registers," *The Guardian*, November 27, 2020, https://www.theguardian.com/global-development/2020/nov/27/yemen-disease-covid-war

• تتبدّد حالياً بعض الآمال. حصانة القطيع لا تُفلح. بلغت الوفيات حالياً مستوىً قياسياً في أوروبا. لم يعد هنالك أمل في أنّنا أمام تحوّلات أكثر اعتدالاً للفيروس رغم تفشّيه المتزايد.

• إنّنا نتعامل مع مجهولات كثيرة، ولا سيما بشأن طريقة انتشار الفيروس. ولّد هذا الغموض في بعض البلدان بحثاً يائساً عن الأطراف المذنبة (اللقاءات في المنازل الخاصة أو أماكن العمل، والحفلات السرية وما شابه). إنّ العبارة التي كثيراً ما نسمعها بأنّ علينا أن "نتعلّم التعايش مع الفيروس" تعبّر عن إحساس بالاستسلام للفيروس.

• بعثت اللقاحات الأمل لكن علينا ألّا نتوقّع أنّها ستكون حلاً سحرياً لجميع مصاعبنا وتعيدنا إلى الوضع الطبيعي السابق، حتّى مع تجاهل احتمالات جوائح وكوارث بيئية أخرى. كما أنّ توزيع اللقاحات سيكون الاختبار الأكبر لأخلاقياتنا: هل سيبقى مبدأ التوزيع الشامل قائماً، أم سيُميّع بالتسويات الانتهازية؟

• إنّ النموذج الذي اتّبعته بلدان كثيرة والمتمثّل في التوفيق بين الإبقاء على الاقتصاد حياً ومكافحة الجائحة يتيح استفحالها مجدَّدا (في أوروبا، ترغب النمسا وسويسرا في إعادة فتح منتجعات التزلج وما إلى ذلك)، ما يبيّن أكثر فأكثر حدود هذا النموذج. الأمر الوحيد الذي يبدو أنّه يجدي حقاً هو الإغلاقات الصارمة. المثال الأحدث على ذلك هو حالة ولاية فيكتوريا في أستراليا التي بلغت الإصابات اليومية فيها 700 في آب/ أغسطس 2020، لكن الآن "انقضى ثلاثون يوماً ولم تظهر إصابة واحدة بالفيروس، وهو رقم قياسي تُحسد عليه الولاية في الوقت الذي تتصدّى فيه الولايات المتحدة وكثير من البلدان الأوروبية للإصابات المتزايدة أو الإغلاقات المتجدّدة".[78]

78 Edward Johnson, "Australia's Longest Lockdown Pays off with No Cases for 28 Days," MSN, November 27, 2020, https://www.msn.com/en-xl/news/world/australia-s-longest-lockdown-pays-off-with-no-cases-for-28-days/ar-BB1bouzN

• بخصوص الصحة النفسية، يمكننا اليوم أن نقول ونحن ننظر إلى الماضي إنّ معظم سلوك الناس في ذروة الموجة الأولى كان ردّ فعل صحيًّا وعادياً إلى أبعد الحدود، كأيّ ردّ فعل على تهديد من التهديدات. انصبّ تركيز الناس على كيفية تجنّب الإصابة، وكأنّ معظمهم لم يكن لديه ببساطة وقت لمشكلات الصحة النفسية. ورغم وجود أحاديث كثيرة اليوم عن هذه المشكلات، غير أنّ الطريقة

السائدة التي يرتبط الناس بها حالياً بالجائحة تتّسم بمزيج غريب من عناصر منفصلة. فرغم تزايد عدد الإصابات، لم تؤخذ الجائحة على محمل الجدّ تماماً في معظم البلدان وهنالك موقف مفاده أنّ "الحياة تستمر"، إذ قد يبدو أنّنا تعلمنا بطريقة ما أن نتعايش مع الفيروس؛ ويتجلّى هذا في مزاعم مفادها أنّ لدى الناس "إعياء كورونا". الناس في أوروبا الغربية مشغولون بشأن هل في وسعهم الاحتفال بأعياد الميلاد والتسوّق، أو أخذ إجازاتهم الشتوية المعتادة.

غير أنّ هذا الموقف من أنّ "الحياة تستمر" يشير إلى النقيض التام للحظة استرخاء ينتهي فيها الأسوأ. فهو يمتزج على نحو لا ينفصم باليأس وانتهاكات القواعد الحكومية والاحتجاجات عليها. طالما لا يوجد منظور واضح تقدّمه السلطات أو وسائل الإعلام السائدة، ثمّة شيءٌ أعمق من الخوف في أثناء العمل: لقد انتقلنا من الخوف إلى الاكتئاب. نشعر بالخوف عندما يكون هنالك تهديد واضح، ونشعر بالإحباط عندما تظهر العقبات مراراً وتكراراً لمنعنا من الوصول إلى ما نسعى جاهدين إلى تحقيقه، لكنّ الإحباط يشير إلى أنّ رغبتنا نفسها آخذة في التلاشي.

ما يسبّب إحساس الضياع هذا هو أنّ ترتيب العلاقة السببية يبدو لنا مضطرباً. ففي أوروبا مثلاً، ولأسباب غير واضحة، يتناقص عدد الإصابات في فرنسا ويتزايد في ألمانيا. ومن دون أن يعرف أحد لماذا على وجه التحديد، عُدّت بلدان منذ بضعة أشهر نماذج لكيفية التعامل مع الجائحة وأصبحت الآن من بين ضحاياها الأسوأ. يضع العلماء فرضيات مختلفة، وتعزّز هذه الفُرقة إحساساً بالبلبلة وتساهم في أزمات الصحة النفسية.

ما يعزّز أيضاً هذا الإحساس بالضياع مستويات كثيرة مختلفة يعمل الوباء ضمنها. يشير عالم الفيروسات الألماني الريادي كريستيان دروستن Christian Drosten إلى أنّ الجائحة ليست مجرّد ظاهرة صحية أو علمية لكنّها كارثة طبيعية،[79] ولا بدّ أن يضيف المرء إلى هذا أنّها أيضاً ظاهرة اجتماعية واقتصادية وأيديولوجية. ومن الواضح أنّ تأثيرها الفعلي يدمج هذه المستويات كافّة. تذكر شبكة CNN التلفزيونية مثلاً أنّ "عدد الوفيات الناجمة عن الانتحار في اليابان في تشرين الثاني/ نوفمبر أكبر من إجمالي الوفيات الناجمة عن كورونا في 2020 بأكملها. وكان تأثّر النساء أكبر"[80]. لكن بالنظر إلى أنّ غالبية أولئك الأشخاص أقدموا على الانتحار بسبب الضائقة التي وضعتهم فيها الجائحة، من الجائز اعتبار وفياتهم من أضرارها الجانبية. تتّضح الصلات

بين الجائحة والاقتصاد في غربي البلقان حيث دُفعت المستشفيات إلى حافة الهاوية. وكما قال طبيب من البوسنة: "بوسعنا القيام بعمل ثلاثة (أشخاص) ولكن ليس خمسة"[81]. من غير الممكن أن نفهم هذه الأزمة خارج "أزمة هجرة الأدمغة، مع الهجرة الجماعية للأطباء والممرضين الشبان الواعدين الذين يغادرون سعياً وراء أجور وتدريب أفضل في الخارج". فمن الواضح هنا أنّ التأثير الكارثي للجائحة يتفاقم بهجرة قوّة العمل.

79 انظر:

Christian Drosten, “Die Pandemie Wird Jetzt Erst Richtig Losgehen. Auch Bei Uns,” *Der Spiegel*, September 23, 2020, https://www.spiegel.de/wissenschaft/medizin/christian-drosten-zu-corona-die-pandemie-wird-jetzt-erst-richtig-losgehen-auch-bei-uns-a-1b2833f0-4673-4726-a352-71ddb8bfc666

80 Selina Wang, Rebecca Wright, and Yoko Wakatsuki, “In Japan, More People Died from Suicide Last Month Than from Covid in All of 2020,” CNN, November 30, 2020, https://edition.cnn.com/2020/11/28/asia/japan-suicide-women-covid-dst-intl-hnk/index.html

81 انظر:

“‘Catastrophic’: Balkan Health care Overwhelmed by Virus Surge,” MSN, November 29, 2020, https://www.msn.com/en-xl/europe/top-stories/catastrophic-balkan-healthcare-overwhelmed-by-virus-surge/ar-BB1bsfUl

في النتيجة، نستطيع أن نستنتج باطمئنان تام أنّه إذا كان على جائحة كورونا أن تمضي قُدُماً في ثلاث موجات، فستكون السمة العامّة لكلّ موجة مختلفة عن غيرها. في الموجة الأولى، انصبّ اهتمامنا لأسباب مفهومة على الصحة الجسدية، وكيفية منع الفيروس من الانتشار خارج نطاق السيطرة، ولهذا، قبلت معظم البلدان إجراءات الإغلاق ومعايير التباعد الاجتماعي. ورغم أنّ أعداد الإصابات في الموجة الثانية أعلى بكثير، غير أنّ الخوف من العواقب الاقتصادية البعيدة المدى كان محور اهتمام سائداً. وإذا لم يمنع طرح اللقاحات موجة ثالثة، ففي إمكان المرء التأكّد من أنّ تركيزها سيكون على الصحة النفسية، والعواقب النفسية المدمِّرة لاختفاء ما يمكن اعتباره حياة اجتماعية طبيعية.

يتمثّل البديل النهائي الذي نواجهه في ما يلي: هل علينا السعي الحثيث للعودة إلى وضعنا الطبيعي (السابق) أم التسليم بأنّ الجائحة إحدى العلامات التي تشير إلى أنّنا نلج حقبة "ما بعد الإنسان" الجديدة ("ما بعد الإنسان" بالنظر إلى إحساسنا الطاغي بما يعنيه أن يكون المرء إنساناً)؟ من الواضح أنّ هذا الأمر ليس

خياراً يتعلّق بحياتنا النفسية فحسب، بل إنّه خيار "أنطولوجيٌّ" بمعنىً ما، ويتعلّق بعلاقتنا الكلّية بالواقع (بما نختبره بوصفه واقعاً).

إنّ التضاربات بين مختلف وسائل التعامل مع الجائحة ليست تضاربات بين آراء طبية مختلفة، فهي تضاربات وجودية جدّية. إليكم كيف يوضّح بريندن ديلي Brenden Dilley، وهو مضيف برنامج حواري في تكساس، سبب عدم ارتدائه قناعاً واقياً: "أن تكون ميتاً أفضل من أن تكون أحمق. بلى، أعني ذلك حرفياً. أفضّل الموت على أن أبدو أحمق في هذه اللحظة". يرفض ديلي ارتداء قناعٍ واقٍ ما دام التجوّل بقناع يتعارض، من وجهة نظره، مع كرامة الإنسان في أبسط مستوياتها. إذاً ما هو على المحكّ هو موقفنا الأساسي من الحياة الإنسانية. هل نحن تحرّريون، مثل ديلي، يرفضون أيّ مساسٍ بحرياتنا الفردية؟ هل نحن نفعيون مستعدّون للتضحية بآلاف الأرواح في سبيل رفاهية الغالبية الاقتصادية؟ هل نحن تسلّطيون يعتقدون أنّ الرقابة والضوابط الحكومية الصارمة هي وحدها الكفيلة إنقاذنا؟ هل نحن روحانيو عصر جديد ممن يعتقدون أنّ الجائحة تحذيرٌ من الطبيعة، عقاباً على استغلالنا للموارد الطبيعية؟ هل نحن على ثقة بأنّ الله يختبرنا فحسب وسيساعدنا في نهاية المطاف على إيجاد مَخرجٍ ما؟ يعتمد كلّ من هذه المواقف على رؤية محدّدة لماهية البشر تكشف المدى الذي نكون فيه جميعاً فلاسفة بمعنىً ما.

وفقاً للفيلسوف الإيطالي جورجيو أغامبين Giorgio Agamben، إذا قبلنا التدابير الحكومية المطبّقة لمكافحة الجائحة، فنحن نتخلى عن الفضاء الاجتماعي المفتوح بوصفه جوهر كينونتنا البشرية ونتحوّل إلى آلات ناجية معزولة خاضعة لسيطرة علم وتكنولوجيا في خدمة مصالح إدارة الدولة. لذا، حتّى عندما يحترق منزلنا، علينا أن نستجمع شجاعتنا لمواصلة الحياة كالمعتاد، ونموت في نهاية المطاف بكرامة:

> ما من شيء أفعله له معنى إذا كان المنزل يحترق. لكن حتّى عندما يحترق المنزل، من الضروري أن نواصل كلّ شيء كسابق عهدنا بعناية ودقة، ربما بعناية ودقة أكثر من السابق حتّى لو لم يلاحظ أحد ذلك. لعلّ الحياة نفسها ستختفي من على وجه الأرض، وربما لن تتبقى إطلاقاً ذكرى لما تمّ عمله للأفضل أو للأسوأ. لكنّك تواصل كسابق عهدك؛ فات أوان التغيير، ولم يعد هنالك وقت.[82]

82 Giorgio Agamben, “When the House Is On Fire,” *Ill Will*, October 27, 2020, https://illwilleditions.com/when-the-house-is-on-fire

الحريّ بالمرء أن يلاحظ غموضاً في الحجج التي يسوقها أغامبين: هل "يحترق المنزل" بسبب الجائحة (و/ أو أزمة المناخ)، أم أنّه يحترق بسبب طريقة ردّ فعلنا (المبالغ فيه) إزاء واقع هذه الجائحة؟ يكتب أغامبين: "غيّر اللهب حالياً شكله وطبيعته: لقد أصبح رقمياً وغير مرئي وبارداً، لكنّه لهذا السبب على وجه التحديد لا يزال أقرب إلينا ويحيط بنا في كلّ لحظة". تبدو تلك العبارات متأثّرة بوضوح بالفيلسوف الألماني هايدغر Heidegger في تحديدها موقع الخطر الأساسي بالطريقة التي عزّزت فيها الجائحة قدرة علم الطبّ والتحكّم الرقمي على تنظيم ردّ فعلنا على الجائحة.

يترك أغامبين في الفقرة الأخيرة من نصّه احتمال ظهور شكل جديد من روحانية ما بعد الإنسان مفتوحاً:

> يختفي الإنسان اليوم كوجه محت الرياح أثره على رمال الشاطئ. غير أنّ الوجه الذي يحلّ محلّه لم يعد له عالم، بل إنّه مجرّد حياة عارية وصامتة ولا تاريخ لها، وتحت رحمة حسابات السلطة والعلم. لكن ربما انطلاقاً من هذا الدمار فحسب يمكن أن يظهر يوماً ما شيءٌ آخر على مَهْل أو عَجَل، ليس ربًّا بطبيعة الحال، بل إنّه لن يكون حتّى إنساناً آخر. ربّما يكون حيواناً جديداً، أو روحاً حيَّة بشكلٍ آخر.

يشير أغامبين هنا إلى عبارات شهيرة من كتاب *Les mots et les choses* [**الكلمات والأشياء**] لفوكو Foucault عن كيفية اختفاء الشكل الإنساني كاختفاء شكل مرسوم على الرمل جرفته الأمواج. إنّنا نلج فعلياً ما يمكن أن ندعوه حقبة ما بعد الإنسان، وهي لا تتحقّق فحسب بالجائحة وكوارث أخرى كالاحتباس الحراري، إنّما كذلك برقمنة حيواتنا، بما في ذلك الولوج الرقمي المباشر في حياتنا النفسية، الذي يؤدّي إلى تآكل الإحداثيات الأساسية لكينونتنا البشرية. إذاً، كيف يمكن إعادة اختراع الإنسانية (ما بعد الإنسانية)؟ إليكم تلميحاً واحداً. يحيل أغامبين ضمنياً في معارضته ارتداءَ الأقنعة الواقية صراحة إلى الفيلسوف الفرنسي ليفيناس Levinas، ولا سيما إلى زعمه أنّ "الوجه يحادثني ومن ثمّ يدعوني إلى علاقة لا تتناسب مع

ممارسة السلطة"، لأنّ الوجه جزء من جسدٍ آخر يرشح من خلاله غَور آخرية الآخر التي يستحيل تقديرها.[83] يتمثّل استنتاج أغامبين الواضح في أنّ القناع الواقي، عبر جعل الوجه غير مرئي، يجعل الغَور غير المرئي نفسَه غير مرئيّ، الغَور الذي يردّد صداه وجه إنسان ما... حقاً؟ ثمّة ردّ فرويدي واضح على هذا الزعم. فقد علِم فرويد سبب عدم تقابل المريض والمحلّل وجهاً لوجه في جلسة تحليلية (عندما يصبح الأمر جدًّيا، أي في أعقاب ما تُدعى اللقاءات التمهيدية): الوجه في أبسط صوره مجرّد كذبة، القناع النهائي، والمحلّل لا ينفذ إلى غَور الآخر إلّا بعدم رؤية وجهه.

83 انظر:

Krishnan Unni P, "The Mask Is the Cultural Icon of the Pandemic," *The Indian Express*, September 24, 2020, https://indianexpress.com/article/opinion/columns/coronavirus-india-updates-death-toll-face-masks-6436379/

يتمثّل أملنا الوحيد في قبول تحدّي ما بعد الإنسانية. وكما عبّرت عن ذلك نيكول أ. باريا أسينهو Nicol A. Barria–Asenjo في عنوان كتابها الجديد، بدلاً من أن نحلم "بالعودة إلى الوضع الطبيعي (السابق)"، علينا أن نشارك في عملية مؤلمة وشاقّة لتشييد وضع طبيعي جديد. هذا التشييد ليس مشكلة طبية أو اقتصادية إنّما سياسية إلى أبعد الحدود: لا بدّ أن نخترع مجدَّدا حياتنا الاجتماعية برمّتها.

23

”إعادة ضبط كبرى“؟
بلى، من فضلكم، ولكن حقيقية!

في نيسان/ أبريل 2020، أشار يورغن هابرماس ردًّا على تفشّي فيروس كورونا إلى أنّه ”ينتشر الآن انعدام اليقين على المستوى الوجوديّ عالمياً وفي الوقت عينه في عقول الأشخاص المتصلين بشبكة وسائط الإعلام“[84]. وكتب: ”لم يكن هنالك يوماً مثل هذا القدر من المعرفة بشأن ما لا نعرفه وبشأن تقييدات العمل والعيش في حالة انعدام اليقين“، وهو محقّ في ادّعاء أنّ عدم المعرفة هذا لا يتعلّق بالجائحة نفسها فحسب، فأقلّه لدينا خبراء هناك، بل أكثر من ذلك، بعواقبها الاقتصادية والاجتماعية والنفسية. لاحظوا صياغته الدقيقة: ليس الأمر مجرّد أنّنا لا نعرف ما يجري، إنّما أنّنا نعرف أنّنا لا نعرف، وعدم المعرفة هذا بذاته حقيقة اجتماعية مُدرجة في الطرق التي تعمل بها مؤسّساتنا. نعرف الآن أنّ معارف الناس في العصور الوسطى مثلاً أو مطلع الحداثة كانت أقلّ بكثير، لكنّهم لم يعرفوا ذلك لأنّهم اعتمدوا على أساس أيديولوجيّ ثابت ضَمِن أنّ الكون الذي نعيش فيه يمثّل كليَّة ذات مغزى. ينطبق الأمر عينه على بعض الرؤى الشيوعية، وحتّى على فكرة فوكوياما Fukuyama بشأن نهاية التاريخ؛ جميعها تزعم أنّها تعرف إلى أين كان التاريخ يتحرّك. كذلك، كان هابرماس محقًّا في تحديد موضع انعدام اليقين في ”عقول الأشخاص المتصلين بشبكة وسائط الإعلام“. إنّ ارتباطنا بالكون السلكيّ يوسّع معرفتنا على نطاق واسع، لكنّه يُلقي بنا في الوقت عينه في حالة من انعدام اليقين الجذريّ (هل جرى اختراقنا؟ من يتحكّم في ولوجنا؟ هل الأخبار التي نقرؤها زائفة؟). تُقدّم عمليات الكشف المتواصلة عن القرصنة الخارجية للمؤسّسات الحكومية وللشركات الكبيرة في الولايات المتحدة مثالاً على انعدام اليقين ذاك: يكتشف الأميركيون حالياً أنّهم لا يستطيعون حتّى تحديد نطاق وأساليب القرصنة الجارية. لا يقتصر التهديد الفيروسيّ بالنسبة إلى الولايات المتحدة على التهديد البيولوجيّ، بل يمتدّ ليشمل التهديد الرقميّ.

84 Markus Schwering, “Jürgen Habermas über Corona: ‘So viel Wissen über unser Nichtwissen gab es noch nie,’” *Frankfurter Rundschau*, April 10, 2020, https://www.fr.de/kultur/gesellschaft/juergen-habermas-coronavirus-krise-covid19-interview-13642491.html

النص الأصلي:

”verbreitet sich jetzt existentielle Unsicherheit global und gleichzeitig, und zwar in den Köpfen der medial vernetzten Individuen selbst... So viel Wissen über unser Nichtwissen und über den Zwang, unter Unsicherheit handeln und leben zu müssen, gab es noch nie.“

عندما نحاول أن نخمّن ما ستبدو عليه مجتمعاتنا بعد انتهاء الجائحة، فالفخّ الذي لا بدّ أن نتحاشاه هو علم المستقبل الذي يتجاهل – بحكم تعريفه – عدم معرفتنا. يُعرَّف علم المستقبل بأنّه تنبؤٌ منهجيٌّ بالمستقبل يستقرئ الاتجاهات الحالية في المجتمع، وهنا تكمن المشكلة. فما لا يأخذه علم المستقبل بالحسبان هو ”المعجزات“ التاريخية، ضروب القطيعة الجذرية التي لا يمكن تفسيرها إلّا بأثرٍ رجعيّ بعد حدوثها. ربما علينا هنا حشد التمييز الذي يُستخدم باللغة الفرنسية بين لفظتَي futur وavenir، فالأولى تعني ما سيأتي بعد الحاضر أيًّا يكن، في حين تشير الثانية إلى تغيّر جذريّ. عندما يفوز أحد الرؤساء بإعادة انتخابه، هو ”الرئيس في الحاضر والمستقبل“، لكنّه ليس الرئيس الذي سوف ”يأتي“؛ الرئيس الآتي رئيس آخر. إذن، هل سيكون ما بعد كورونا مجرّد مستقبل آخر أم شيئاً جديداً سوف ”يأتي“؟

الأمر لا يتوقف على العلم فحسب، بل على قراراتنا السياسية أيضاً. حان الوقت الآن للقول إنّه ينبغي ألّا تكون لدينا أوهام بشأن النتيجة ”السعيدة“ لانتخابات الولايات المتحدة التي بعثت الارتياح في نفوس الليبراليين في أرجاء العالم كافّة. يروي فيلم They Live [إنّهم يعيشون] (1988) – وهو أحد روائع يسار هوليوود المهملة، للمخرج جون كاربنتر John Carpenter – قصة جون نادا John Nada (تعني نادا بالإسبانية ”نكرة“)، وهو عامل بلا مأوىً عثر بالمصادفة على كومة من العلب المليئة بالنظارات الشمسية في كنيسة مهجورة. عندما ارتدى إحدى هذه النظارات وهو يمشي في أحد الشوارع لاحظ أنّ لوحة إعلانية ملوّنة تحثّنا على التمتّع بألواح الشوكولا لا تعرض الآن إلّا كلمة ”امتثِل“، في حين أنّ لوحة أخرى تعرض زوجين ساحرين يتعانقان بشدّة، ويظهران بواسطة النظارة وهما يأمران المُشاهد بأن ”يتزوج وينجب“. ثم إنه يشاهد ورقة نقدية تحمل الكلمات التالية: ”هذا هو ربّنا“. فضلاً عن ذلك، سرعان ما يكتشف أنّ كثيراً من الناس الذين يبدون وسيمين هم في

الحقيقة كائنات فضائية قبيحة لها رؤوس معدنية... هنالك صورة متداولة حالياً على الشبكة العنكبوتية تعيد عرض هذا المشهد من الفيلم تضمّ بايدن وهاريس. تُظهرهما الصورة، برؤية مباشرة، مبتسمَين مع رسالة تقول: "حان وقت التعافي"، لكنّهما يظهران بواسطة النظارات كوحشين فضائيَّين مع رسالة تقول: "حان وقت الجحيم"...

هذه الصورة هي بالطبع جزءٌ من حملة ترامب الدعائية لتشويه سمعة بايدن وهاريس بوصفهما أُلعوبَتين بأيدي ماكينات شركات مجهولة الهوية تتحكّم في حيواتنا، لكن هنالك (أكثر من) قدر ضئيل من الحقيقة فيها. انتصار بايدن يعني مستقبلاً متواصلاً مع "الوضع الطبيعيّ" لحقبة ما قبل ترامب، ولهذا كان هنالك تنفسٌ للصعداء بعد فوزه. لكنّ هذا "الوضع الطبيعيّ" يعني حُكم الرأسمال العالميّ المجهول الهوية، وهو الدخيل الحقيقيّ بيننا. أذكر من أيام شبابي الرغبة في "اشتراكية بوجه إنسانيّ" في مواجهة اشتراكية النمط السوفياتيّ "البيروقراطية". أمّا اليوم، فبايدن يَعِد برأسمالية عالمية بوجه إنسانيّ، في حين سيظلّ الواقع عينه جاثماً وراء هذا الوجه. يتّخذ هذا "الوجه الإنسانيّ" في ميدان التعليم صورةَ هوسٍ "بالرفاهية"، ينبغي للطلاب وفقاً له أن يعيشوا في فقاعات تحميهم من أهوال الواقع الخارجيّ وتصونها القواعد الصائبة سياسياً. لم يعد المقصود من التعليم أن يكون له تأثيرٌ واقعيٌّ يتيح لنا مواجهة الواقع الاجتماعيّ. وحين يقال لنا إنّ هذا الأمان سيمنع الانهيارات العقلية، علينا مواجهته بقول معاكس تماماً: مثل هذا الأمان الزائف يجعلنا عُرضةً للأزمات العقلية عندما يتعيّن علينا في نهاية المطاف مواجهة واقعنا الاجتماعيّ. ما يفعله هذا التركيز على "الرفاهية" هو مجرّد تقديم "وجه إنسانيّ" مزيَّف لواقعنا بدلاً من تمكيننا من تغيير هذا الواقع نفسه. إنّ بايدن هو رئيس الرفاهية الأخير.

إذاً لماذا يظلّ بايدن أفضل من ترامب؟ يشير النقّاد إلى أنّ بايدن يكذب أيضاً ويمثّل رأس المال الكبير إنّما بصورة أكثر تهذيباً، لكنّ هذه الصورة تتّسم بالأهمية للأسف. تسبّب ترامب، بإضفائه البذاءة على الخطاب العام، في تآكل جوهر حياتنا الأخلاقيّ، وهو ما أطلق عليه هيغل تسمية Sitten [التقاليد الأخلاقية] (خلافاً للأخلاق الفردية). يُعَدّ إضفاء البذاءة هذا عمليةً تجري على نطاق عالميّ. لنأخذ مثالاً أوروبياً، حين كتب تسيلارد ديميتير Demeter Szilard، وهو مفوّض وزاريّ ومدير متحف

بيتوفي Petofi الأدبيّ في بودابست، في مقالة افتتاحية في تشرين الثاني/ نوفمبر 2020: "أوروبا هي غرفة الغاز الخاصة بجورج سوروس. يتدفّق الغاز السام من محفظة مجتمع مفتوح متعدّد الثقافات، وهو أمرٌ مهلك لطريقة العيش الأوروبية"[85]. وتابع ديميتير واصفاً سوروس بأنّه "الفوهرر الليبراليّ"، مؤكَّدا أنّ "جيشه الآريّ الحرّ يؤلِّهه أكثر من تأليه هتلر على يد جيشه". لو سُئل ديميتير، فسيستبعد هذه التصريحات على الأرجح ويعدّها مبالغة بلاغية. لكنّ هذا الاستبعاد لا يستبعد بأيّ حال تداعياتها المرعبة. فالمقارنة بين سوروس وهتلر تُعَدّ معادية للسامية إلى أبعد الحدود: إنّها تضع سوروس على قدم المساواة مع هتلر عبر ادّعاء أنّ المجتمع المفتوح المتعدّد الثقافات الذي يروّج له سوروس لا ينذر فحسب بالخطر كالمحرقة اليهودية والعنصرية الآرية التي أيدتها ("الآرية الحرة")، بل إنّه أسوأ وأكثر خطراً على "طريقة العيش الأوروبية".

85 "Hungarian Cultural Commissioner Lights Powder Keg of Controversy after Describing Europe as 'George Soros' Gas Chamber,'" RT World News, November 29, 2020, https://www.rt.com/news/508146-soros-hungary-nazi-hitler-comparison/

إذن، هل هنالك بديل عن هذه الرؤية المرعبة غير "الوجه الإنسانيّ" الخاص بايدن؟ أفصحت غريتا ثانبيرغ Greta Thunberg أخيراً عن الدروس الثلاثة الإيجابية المستفادة من الجائحة: "من الممكن معالجة أزمة ما كأزمة، ومن الممكن وضع صحّة الناس فوق المصالح الاقتصادية، ومن الممكن الإصغاء إلى العلم"[86]. بلى، لكنّها ممكنات. من الممكن أن تُعامَل أزمةٌ ما لتُستخدَم للتعتيم على أزمات أخرى أيضاً (مثلاً، بسبب الجائحة علينا أن ننسى الاحتباس الحراريّ). ثم إنه من الممكن استخدام الأزمة لجعل الأثرياء أكثر ثراءً والفقراء أشدَّ فقراً (مثلما حدث في 2020 بسرعة غير مسبوقة). كذلك من الممكن تجاهل العلم أو تجزئته (مثلاً: أولئك الذين يرفضون تلقي اللقاحات، والزيادة الهائلة في نظريات المؤامرة وما شابه). يقدّم سكوت غالواي Scott Galloway صورة دقيقة إلى هذا الحدّ أو ذاك للأمور في زمن كورونا الذي نعيشه:

86 Suyin Haynes, "'We Now Need to Do the Impossible.' How Greta Thunberg Is Fighting for a Greener Post-Pandemic World," *Time*, December 8, 2020, https://time.com/5918448/greta-thunberg-coronavirus-climate-change/

لا نميل إلى قول هذا بصوت مرتفع، لكنّني أشعر كأنّ هذه الجائحة

اختُرعت إلى حدٍّ كبير لتحويل نسبة العشرة بالمئة المتربعين على قمة الهرم الاجتماعيّ إلى واحد بالمئة، والهبوط بالتسعين بالمئة المتبقية إلى ما دون ذلك... نحن نتجه نحو أمّة من ثلاثة ملايين سيد يخدمهم 350 مليوناً من الأقنان. لقد قرّرنا حماية الشركات وليس الناس. إنّ الرأسمالية تنهار حرفياً على نفسها ما لم تُعِد بناء ركيزة التعاطف تلك... لقد قرّرنا أنّ الرأسمالية تعني أن نكون من محبّي الشركات والمتعاطفين معها، وأن نكون من أنصار الداروينية ونمارس القسوة على الأفراد.[87]

87 “Capitalism ‘Will Collapse on Itself’ Without More Empathy and Love: Scott Galloway,” Yahoo Finance, December 1, 2020, https://finance.yahoo.com/news/capitalism-will-collapse-on-itself-without-empathy-love-scott-galloway-120642769.html; see also Scott Galloway, *Post Corona: From Crisis to Opportunity* (New York: Portfolio, 2020).

إذن، ما المَخرج الذي يقدّمه غالواي؟ كيف سنمنع الانهيار الاجتماعيّ؟ يتمثّل حلّه في إعادة الحبّ إلى الرأسمالية نتيجة عملية تدمير خلّاقة تترك الأعمال التجارية المخفقة تخفق وتحمي في الوقت عينه أولئك الذين فقدوا وظائفهم. ويوضّح: "نترك الناس يُطردون من وظائفهم كي تتمكّن شركة Apple من البروز إلى الوجود وإخراج Sun Microsystems من العمل، ومن ثمّ نأخذ هذا الازدهار المذهل ونصبح أكثر تعاطفاً مع الناس". تكمن المشكلة بطبيعة الحال في من تكونه هذه "النحن" المضمرة؟ كيف تتمّ إعادة التوزيع على وجه التحديد؟ هل نزيد الضرائب على الفائزين فحسب (Apple في هذه الحالة) ونسمح لهم في الوقت عينه بالإبقاء على وضعهم الاحتكاريّ؟ تتمتّع فكرة غالواي بنزوع جدليّ محدّد: تتمثّل الطريقة الوحيدة للحدّ من عدم المساواة والفقر في السماح للمنافسة في السوق بأداء عملها القاسي (نترك الناس يُطردون)، ثمّ... ماذا؟ هل نتوقّع من آليات السوق نفسها أن تخلق وظائف جديدة؟ أم من الدولة؟ كيف يجري تفعيل "الحب" و"التعاطف"؟ أم نعتمد على تعاطف الفائزين ونتوقع منهم أن يسلكوا سلوكاً مشابهاً لسلوك غيتس وبافيت Buffett؟ أجد أنّ إلحاق آليات السوق تلك بالأخلاق والمحبة والتعاطف إشكاليٌّ تماماً. فبدلاً من تمكيننا من الحصول على أفضل ما في هذين العالمَين (أنانية السوق والتعاطف الأخلاقيّ) سيكون حصولنا على أسوأ ما فيهما هو الأكثر ترجيحاً.

يمثّل الوجهَ الإنسانيَّ لهذه "القيادة ذات الشفافية والأصالة والإنسانية" غيتس وبيزوس Bezos وزوكربيرغ Zuckerberg، وجوه رأسمالية الشركات المتسلّطة الذين يتظاهرون بأنّهم أبطالٌ محبون للخير، أرستقراطيونا الجُدد الذين يُحتفى بهم في وسائل إعلامنا ويُستشهد بهم بوصفهم مُحسنين يتّسمون بالحكمة. يمنح غيتس المليارات للأعمال الخيرية، ولكن علينا أن نتذكّر كيف أنّه عارض مشروع إليزابيث وارن Elizabeth Warren لزيادة الضرائب بمقدار طفيف. امتدح بيكيتي وكاد ذات مرّةٍ أن يعلن نفسه اشتراكياً، وهو أمرٌ قد نقول إنّه – بمعنىً محدّد وملتوٍ للغاية – صحيح، إذ إنّ ثروته جاءت من خصخصة ما دعاه ماركس "المشاعات" الخاصّة بنا، فضائنا الاجتماعيّ المشترك الذي نتحرّك فيه ونتواصل. ليست لثروة غيتس علاقة بتكاليف إنتاج المنتجات التي تبيعها Microsoft – بل في إمكان المرء أن يقول إنّ الشركة تدفع لعامليها في المجال الذهنيّ رواتب مرتفعة نسبياً – وليست نتيجةً لنجاحه في إنتاج برمجيات جيدة بأسعار أقلّ من أسعار منافسيه، أو بفضل "استغلال" أشدّ لمستخدميه العاملين في المجال الذهنيّ، بل أصبح غيتس واحداً من أغنى أغنياء العالم نتيجة الاستيلاء على الأجرة من منصّة التواصل التي يستخدمها ملايين الناس وخصخصها وبات يتحكّم فيها. وبالطريقة عينها التي خصخصت بها Microsoft برمجيات التواصل التي يستخدمها معظمنا، خصخصت Facebook جهات اتصالاتنا الشخصية وخصخصت Google بحثنا عن المعلومات... إنّ الشركات الكبرى التي نشأت نتيجة خصخصة المشاعات تبرّر – إلى حدّ ما على الأقل – الفكرة القائلة إنّنا نشهد اليوم صعود إقطاعية جديدة: رأسمالية إقطاعية. يتصرّف السادة الجُدد (بيل غيتس وإيلون ماسك Elon Musk) نتيجة السيطرة على مشاعاتنا بطريقة مشابهة للسادة الإقطاعيين. لنقتبس عبارات جودي دين Jodi Dean:

> خلافاً للرأسماليّ الذي تعتمد أرباحه على فائض القيمة الذي يخلقه العمال المأجورون نتيجة إنتاج السلع، يستخلص السيد القيمة نتيجة الاحتكار والإكراه والتأجير... المنصّات الرقمية تُمثّل طواحين مائية جديدة، ويمثّل مالكوها من أصحاب المليارات سادةً جُدداً، ويمثّل الآلاف من عمالها والمليارات من مستخدميها الفلاحين الجُدد.[88]

[88] Jodi Dean, "Neofeudalism: The End of Capitalism?" *Los Angeles Review of Books*, May 12, 2020,

https://lareviewofbooks.org/article/neofeudalism-the-end-of-capitalism/

هكذا تعمل Apple وMicrosoft وFacebook وGoogle. نحتفظ بحرية خيارنا الشخصيّ، لكنّ نطاق هذا الخيار تحدّده أيّما شركة خصخصت جزءاً معيناً من مشاعاتنا. نبحث عن أيّ معلومة نريدها باستخدام Google ونحدّد بحرّية هوياتنا العامّة باستخدام Facebook وما إلى ذلك. تحاول هذه الشركات الكبرى استعمار مستقبلنا (يقترح غيتس بصورة منتظمة مخطّطات لتنظيم حياتنا المستقبلية) وحتّى فضائنا الخارجيّ (يمتلك ماسك عدداً كبيراً من الأقمار الاصطناعية ويخطّط لتشييد مستوطنات على سطح المريخ).

إذن هنالك شيء من الحقيقة في "تمرّد" ترامب على سلطات الشركات الرقمية. تستحق المشاهدةَ حلقاتُ البرنامج الحواريّ الرقميّ "War Room" لستيف بانون، أكبر المنظّرين الأيديولوجيين لشعبوية ترامب: لا يسع المرء إلّا أن تبهره كيفية دمجه قدراً كبيراً من الحقائق الجزئية في كذبة شاملة. فادّعاؤه أنّ الفجوة بين الأغنياء والفقراء تنامت وأنّ الشركات الكبيرة ازدادت قوّة في عهد أوباما صحيح، لكنّ هذه السيرورة استمرت فحسب في عهد ترامب، إضافة إلى أنّ الضرائب انخفضت وأنّ أوراق العملة طُبعت لإنقاذ الشركات. إذن نواجه بديلاً زائفاً رهيباً: إعادة ضبط كبيرة للشركات أو شعبوية قومية تتظاهر بمعارضة الشركات الكبيرة لكنّها تصلُ إلى إعادة الضبط عينها في نهاية المطاف. "إعادة الضبط الكبيرة" هي صياغة تشير إلى كيفية تغيير بعض الأمور (وحتّى أمور كثيرة) كي تبقى هذه الأمور كما هي تقريباً.

أثمّة طريق ثالث عدا الحدّين الأقصويين لاستعادة الوضع الطبيعيّ السابق و"إعادة الضبط الكبيرة" للشركات؟ بلى: إعادة ضبط كبيرة حقيقية. ما يجب فعله ليس سراً، فقد أوضحته غريتا ثانبيرغ. أوَّلا علينا أخيراً الاعتراف بأزمة الجائحة على حقيقتها: إنّها جزءٌ من أزمة عالمية لمجمل طريقة عيشنا، من البيئة إلى التوتّرات الاجتماعية الجديدة. ثانياً علينا وضع رقابة وضوابط اجتماعية على الاقتصاد. ثالثاً علينا الاعتماد على العلم، إنّما من غير قبوله ببساطة كعامل في اتّخاذ القرار. لمَ لا؟ دعونا نعود إلى هابرماس الذي بدأنا به: يكمن مأزقنا في أنّنا مرغمون على التحرّك ونحن نعلم أنّنا لا نعرف إحداثيات الوضع الذي نحن فيه، علماً بأنّ عدم التحرّك بحدّ ذاته يُعَدّ تحرَّكا. ولكن أليس هذا الوضع هو الوضع الأساسيّ لكلّ تحرّك؟ ميزتنا الأساسية أنّنا نعلم مدى جهلنا، وهذا العلم بجهلنا يفسح مجالاً من الحرية. نتحرّك حين لا نعرف

الوضع برمته، لكنّ ذلك ليس مجرّد تعيين لحدودنا. ما يمنحنا الحرية هو أنّ الوضع – أقلّه في مجالنا الاجتماعيّ – مفتوحٌ بذاته وليس محدًّدا (سابق التحديد) بالكامل.

وضعنا الحالي في الجائحة مفتوح قطعاً. لقد تعلّمنا الدرس الأول: "ضوء الإغلاق" لا يكفي. أخبرونا أنّـ"نا" (اقتصادنا) لا طاقة لنا على إغلاق صارم آخر، فدعونا نغيّر الاقتصاد. يمثّل الإغلاق البادرة السلبية الأشدّ جذرية ضمن النظام القائم. نعبر الدرب إلى ما بعد نظام إيجابيّ جديد نتيجة السياسة وليس العلم. ما ينبغي فعله هو تغيير حياتنا الاقتصادية فتكون قادرة على الصمود في حالات الإغلاق والطوارئ التي تنتظرنا من كلّ بد، بالطريقة عينها التي تُرغمنا فيها حرب ما على تجاهل تقييدات السوق وإيجاد وسيلة لعمل ما هو "مستحيل" في اقتصاد السوق الحرّة.

بالعودة إلى آذار/ مارس 2003، شارك دونالد رامسفيلد Donald Rumsfeld – وزير دفاع الولايات المتحدة آنذاك – قليلاً في تفلسف هواة بشأن العلاقة بين ما هو معروف وما هو مجهول: "هنالك معروفاتٌ معروفة وهي أمور نعلم أنّنا نعرفها. وهنالك مجهولات معروفة، أي أنّ هنالك أموراً نعلم أنّنا لا نعرفها. لكن هنالك أيضاً مجهولات لا نعرفها، وهنالك أمور لا نعلم أنّنا لا نعرفها"[89]. وقد نسي أن يضيف العبارة الرابعة الحاسمة: "المعروفات غير المعروفة"، وهي الأمور التي لا نعلم أنّنا نعرفها، تحديداً اللاوعي الفرويدي، "المعرفة التي لا تعرف نفسها" كما اعتاد لاكان أن يقول. لو عدّ رامسفيلد أنّ المخاطر الأساسية في مواجهة العراق هي "المجهولات غير المعروفة"، وتهديدات صدام التي لم نكن حتّى على علم بها، فسيكون ردّنا أنّ المخاطر الأساسية هي خلافاً لذلك "المعروفات غير المعروفة"، الاعتقادات والافتراضات المُكذّبة التي لا ندرك حتّى أنّنا متمسّكون بها. علينا أن نقرأ زعم هابرماس بأنّه لم يكن لدينا أبداً مثل هذا القدر من المعرفة بما هو غير معروف نتيجة هذه المقولات: زعزعت الجائحة ما علمنا (اعتقدنا) أنّنا نعرفه، وجعلتنا ندرك ما لم نكن نعلم أنّنا لا نعرفه، وأنّنا اعتمدنا – بطريقة مواجهتنا الجائحة – على ما لم نكن نعلم أنّنا نعرفه (جميع افتراضاتنا وأحكامنا المسبقة التي تحدّد تصرّفاتنا حتّى رغم أنّنا لا ندركها). نحن لا نتعامل هنا مع مجرّد العبور من قلّة المعرفة إلى المعرفة وإنّما مع عبور أكثر صعوبة بكثير من قلّة المعرفة إلى معرفة ما لا نعرفه، وتظلّ معرفتنا القاطعة على حالها في هذا العبور لكنّنا نكتسب مساحة خالية للتحرّك.

89 لقد استعنت بهذا المثال مرّات كثيرة في أعمالي، وبإسهاب في الفصل التاسع من كتابي:

Defense of Lost Causes (London: Verso Books, 2017).

بالنظر إلى ما لا نعلم أنّنا نعرفه – افتراضاتنا وأفكارنا المسبقة – كانت مقاربة الصين (وتايوان وفيتنام) للجائحة أفضل بكثير من مقاربَتي أوروبا والولايات المتحدة. لقد سئمت من التكرار الأبديّ لعبارة: "بلى، احتوت الصين الفيروس، ولكن بأيّ ثمن؟" في إمكان المبلِّغين عن المخالفات وحدهم أن يخبرونا القصة بأكملها عمّا جرى هناك حقاً. لكن واقع الحال أنّه حين تفشّى الفيروس في مدينة ووهان، فرضت السلطات إغلاقاً وأوقفت معظم الإنتاج في أرجاء البلاد، موليةً بوضوح الأولوية لحياة البشر قبل الاقتصاد. صحيح أنّ ذلك حدث مع بعض التأخير، لكنّ السلطات أخذت الأزمة على محمل الجدّ إلى أبعد الحدود. وهي تجني حالياً ثمار ذلك، بما فيه على الصعيد الاقتصاديّ. ولم يكن ذلك ممكناً، كي نكون واضحين، إلّا بفضل استمرار قدرة الحزب الشيوعيّ على فرض الرقابة والضوابط على الاقتصاد. ثمّة تحكّم اجتماعيّ في آليات السوق، وإن كان تحكًّما "شمولياً". لكن مجدًّدا، السؤال المطروح ليس بشأن كيفية قيام السلطات بذلك في الصين، وإنّما بشأن كيفية وجوب قيامنا بذلك. إذ إنّ الطريقة الصينية ليست الوحيدة الفعّالة، وليست "ضرورة موضوعية" بأيّ معنىً قابل للقياس. كذلك لا تُعَدّ الجائحة مجرّد عملية تفشٍّ فيروسيّ، بل إنّها عمليةٌ تحدث ضمن إحداثيات اقتصادية واجتماعية وأيديولوجية بعينها مفتوحة للتغيير.

نعيش حالياً في نهاية 2020 في زمن مجنون يختلط فيه الأمل في أنّ اللقاحات ستجدي بإحباط متزايد، وحتّى بيأس، بسبب عدد الإصابات المتزايد والاكتشافات اليومية تقريباً عن مجهولات جديدة تتعلّق بالفيروس. الإجابة عن سؤال: "ما الذي علينا عمله؟" سهلة هنا في المبدأ: نحن نملك الموارد والوسائل لإعادة هيكلة الرعاية الصحية والاقتصاد فيكون في وسعهما تلبية احتياجات السكان في زمن الأزمة. لكن، إذا اقتبسنا عبارة بريخت الأخيرة "في مديح الشيوعية" من مسرحيته *Mother* [**الأم**]، "Er ist das Einfache, das schwer zu machen ist" ("الأمر بسيط إلى حدّ أنّ تحقيقه بالغ الصعوبة")، فثمّة كثير من العوائق التي تجعل تحقيقه بالغ الصعوبة، وأهمّها النظام الرأسماليّ العالميّ وهيمنته الأيديولوجية. إذاً هل نحن بحاجة إلى شيوعية جديدة؟ بلى، لكن إلى ما أميل إلى تسميته شيوعية محافظة باعتدال: فعل كلّ الخطوات الضرورية، من التعبئة الشاملة ضدّ التهديد الفيروسيّ

والتهديدات الأخرى إلى وضع إجراءات لتقييد آليات السوق وإضفاء طابع اجتماعيّ على الاقتصاد، ولكن بطريقة محافظة (بمعنى بذل جهد للحفاظ على شروط الحياة البشرية، وهذا سيتطلّب – للمفارقة – تغيير الأمور) ومعتدلة (بمعنى المراعاة الدقيقة للآثار الجانبية غير المتوقّعة لتدابيرنا).

وكما أشار إيمانويل رينو Emmanuel Renault، المقولة الماركسية الأساسية التي تُدخل الصراع الطبقيّ في صميم نقد الاقتصاد السياسيّ هي ما يُدعى "قوانين الميل"، القوانين التي تصف الميل الضروريّ في التطوّر الرأسماليّ مثل ميل معدّل الربح للانخفاض (وكما لاحظ رينو، كان أدورنو Adorno هو من أصرّ على هذه الأبعاد في مفهوم ماركس للميل (Tendenz) الذي يجعله غير قابل للاختزال بمجرّد "اتجاه").[90] يستخدم ماركس نفسه في وصف هذا "الميل" مصطلح تضاد، إذ إنّ انخفاض معدّل الربح هو ميلٌ يدفع الرأسماليين إلى زيادة استغلال العمال، والعمال إلى مقاومته، فلا تتحدّد النتيجة قبلاً وإنّما تتوقف على النضال. فمثلاً أرغم العمال المنظَّمون في بعض دول الرعاية الاجتماعية الرأسماليين على تقديم تنازلات كبيرة. الشيوعية التي أتحدّث عنها هي تحديداً ميل من أمثال هذه الميول. أسباب ذلك واضحة: نحتاج تحرًّكا عالمياً للتصدّي للتهديدات البيئية والصحية، ولا بدّ من إضفاء طابع اجتماعيّ بطريقة ما على الاقتصاد. ويتعيّن علينا قراءة المجموعة السائدة من ردود فعل الرأسمالية العالمية على الجائحة: إعادة الضبط الكبيرة الزائفة والشعبوية القومية والتضامن المختزل بالتعاطف وما شابه، وهي تحديداً ردّ فعل على الميل الشيوعيّ.

90 انظر:

T. W. Adorno, *Philosophische Elemente einer Theorie der Gesellschaft* (Frankfurt: Suhrkamp, 2008), p. 37–40.

إذاً، كيف سيسود الميل الشيوعيّ؟ الإجابة مؤسفة: نتيجة مزيد من الأزمات المتكرّرة. دعونا نوضّح الأمر: الفيروس ملحد بكلّ ما تعنيه الكلمة. بلى، علينا تحليل كيف أنّ الجائحة مشروطة اجتماعياً، غير أنّها بالأساس نتاجٌ طارئٌ عديم المعنى، وما من "رسالة أبعد غوراً" فيها (لا يمكن أن تكون من وجهة نظرنا عقاباً إلهياً كما كان حال الطاعون في العصور الوسطى). قبل أن يختار فرويد عبارة فرجيل Virgil الشهيرة[91] *acheronta movebo* [حرّكت أخِرون] كشعار لكتابه *Interpretation of*

Dreams [**تفسير الأحلام**]، أخذ في الحسبان مرشَّحًا آخر، كلمات الشيطان من ملحمة ميلتون Milton الشهيرة *Paradise Lost* [**الفردوس المفقود**]: "ما عسى أن يمدنا به الأمل من قوّة/ إن لم يكن ما يمدّنا به اليأس من حافز على العزم". هذا ما ينبغي أن يكون عليه ردّ فعلنا – نحن الشياطين المعاصرين الذين دمّرنا أرضنا – على التهديدات الفيروسية والبيئية. لو أُرغمنا على الاعتراف بأنّ وضعنا ميؤوس منه، فعلينا أن نجعل من اليأس حافزاً على العزم. حريٌّ بنا أن نقبل أنّ وضعنا مُحبِط، وأن نتصرّف بحزم حيال ذلك. لنستشهد مرّة أخرى بغريتا ثانبيرغ: "لم يعد كافياً بذل قصارى جهدنا؛ نحن بحاجة الآن إلى ما يبدو مستحيلاً". يتعامل علم المستقبل مع ما هو ممكن، ونحن بحاجة إلى ما هو – من وجهة نظر النظام العالميّ القائم – مستحيل.

91 العبارة المُستشهد بها: "لئن لم أُثنِ السماوات حرّكت أخِرون [نهر الجحيم]"، والمقصود استتباب العزم على بلوغ القصد بأيّ سبيل. (المترجم)

24
المسيح في زمن الجائحة

نحتفل في عيد الميلاد بذكرى ولادة يسوع المسيح. ما الذي يعنيه هذا الحدث الفريد، بل الجسيم، كما عبّر عن ذلك هيغل: "يظهر الربّ ذاته، في عدم تناسب عجيب، وليس رسوله أو نبيّه كشخصٍ عاديٍّ في واقعنا المعتاد" بالنسبة إلينا اليوم عندما يصاب جزءٌ كبيرٌ من البشرية بالشلل بسبب جائحة وحشية وتهدّده مخاطر كثيرة أخرى من الاحتباس الحراريّ إلى الاضطرابات الاجتماعية؟ نحن نعيش في جحيم من نوع ما، عالِقين في توتّر وإحباط دائمَين، فقد دمّرت الجائحة الحياة اليومية التي اعتدناها. وهنا يدخل المسيح، ولكن كيف؟ الإجابة المعتادة أنّ علينا، ولا سيما في أوقات الشدّة، أن نتذكّر وجود قوّة قديرة عُليا تحبّنا وتحمينا، فعلينا أن نعود إلى الرب في صلواتنا وأن نثق بمصيرنا. مهما كانت الأمور قاتمة، فالخلاص يلوح في الأفق، ولعلّ الربّ سمح بوقوع الجائحة كي يرسل إلينا تحذيراً...

أعتقد أنّه ينبغي التخلّي عن هذا النوع من التفكير التقليديّ. علينا أن نبذل جهداً أكبر لإدراك الدور الفريد للمسيح، وهو أمر لا تتفاداه المسيحية التقليدية فحسب بل كذلك التصوّف في أفضل حالاته، وهذا يعني بطبيعة الحال مايستر إكهارت Meister Eckhart. ثمّة زعم يُنسب أحياناً إلى إكهارت – إن لم يوجد في أعماله – وهو أنّه يفضِّل أن يكون في الجحيم مع يسوع على أن يكون في النعيم دونَه. هذا الزعم لا بد أن يُقرأ ليس افتراضاً فحسب إنّما خيار واقعيّ علينا فعله: الاختيار بين الربّ والمسيح، إنّه الاختيار بين النعيم والجحيم. وكما كتب آرتور رامبو Arthur Rimbaud في ديوانه *A Season in Hell* [**فصل في الجحيم**]: "أعتقد أنّني في الجحيم. إذاً أنا موجود فيه". على المرء أن يأخذ هذا القول بمعناه الديكارتيّ كاملاً: في الجحيم فحسب، أستطيع أن أوجد بوصف أنايَ فريدةً منفردة.

يرتقي الصوفيون من ترتيب الكائنات الزمنيّ إلى الغياهب البَدئية للأبدية، لكنّهم يتجنبون السؤال الأساسيّ: كيف تنشأ الكائنات من هذه الغياهب البَدئية؟ وليس: "كيف نستطيع الوصول إلى الأبدية من كينونتنا المتناهية زمنياً؟" ولكن: "كيف في

وسع الأبدية نفسها أن تنحدر إلى وجود متناهٍ زمنياً؟" تتمثّل الإجابة الوحيدة في أنّ الأبدية هي السجن النهائيّ، إطباق خانق، وهي ليست سوى السقوط في حياة خلّاقة تنفتح على التجربة الإنسانية (وحتّى الإلهية). أوضح هذه النقطة غيلبرت كيث تشيسترتون G. K. Chesterton الذي كتب بصدد الزعم الدارج عن "الهوية الروحية المزعومة للبوذية والمسيحية": "يصبو الحب إلى الشخصيّ، ولذا يصبو الحب إلى الانقسام. إنّها الغريزة المسيحية بأن تكون سعيداً لأنّ الربّ قسّم الكون إلى قطع صغيرة... المسيحية سيفٌ يقسّم ويُحرّر، وما من فلسفة أخرى تجعل الربّ مبتهجاً بانفصال الكون إلى أرواح حيّة"[92]. ثم إنّ تشيسترتون يدرك إدراكاً تاماً أنّ الربّ لا يكتفي بفصل الإنسان عن ذاته فيحظى بمحبة الجنس البشريّ، وهذا الانفصال لا بدّ من أن ينعكس مرّة أخرى على الربّ ذاته فيتخلّى الربّ عن ذاته: "عندما اهتزّ العالم وأظلمت الشمس في السماء، لم يحدث ذلك عند الصَّلب، وإنّما عند الصرخة من على الصليب: الصرخة التي أقرّت بأنّ الربّ تخلّى عن الربّ". وبسبب هذا التداخل بين انفصال الإنسان عن الربّ وانفصال الربّ عن ذاته، فالمسيحية كما يكتب تشيسترتون:

[92] G. K. Chesterton, *Orthodoxy* (San Francisco: Ignatius Press, 1995), p. 139.

> ثورية إلى أبعد الحدود. أن يفقد الرجل الصالح الرجاء هو أمر نعرفه بالفعل. أمّا أن يفقد الربّ الرجاء، فهو مفخرة لجميع العصاة على الدوام. المسيحية هي الديانة الوحيدة على الأرض التي ترى أنّ القدرة الكلّية تنتقص من كمال الربّ. المسيحية وحدها ترى أنّ الربّ كي يكون ربًّا بكلّيته ينبغي أن يكون عاصياً وكذلك مليكاً.

يدرك تشيسترتون تمام الإدراك أنّنا نقترب في النتيجة من "مسألة أشدّ إبهاماً ورهبة من أن تُناقش بيُسر"، فيكتب: "هنالك في تلك الحكاية المروّعة عن آلام المسيح اقتراحٌ عاطفيٌّ متميز مفاده أنّ خالق كلّ شيء لم يعانِ – بطريقة لا يمكن تصوّرها – من سكرات الموت فحسب، بل كذلك من الشك". في الشكل النموذجيّ للإلحاد، يتوقف البشر المتحرّرون عن الإيمان بالإله. أمّا في المسيحية، فالربّ يموت من أجل ذاته. في سؤال المسيح: "أبتي، لِمَ تركتني؟" يقترف بنفسه ما هو بالنسبة إلى مسيحيّ خطيئة لا تُغتفر: يرتاب في إيمانه.

إذا أخذنا هذا التناقض الظاهريّ على محمل الجد، يُحظر علينا اللجوء إلى شخصية الربّ المتعالية النموذجية بوصفه سيداً خفياً يعلم معنى ما يبدو لنا مصيبة عديمة المعنى، الربّ الذي يرى الصورة بأسرها فيساهم ما نعتبره بلاءً في تحقيق الانسجام الكلّيّ. عندما نواجه حدثاً مثل المحرقة اليهودية أو موت الملايين في الكونغو في السنوات الأخيرة، ألن يكون فجوراً ادّعاء أنّ لهذه الأهوال معنىً أكثر عمقاً بمساهمتها في تحقيق انسجام الكلّ؟ هل هنالك كلٌّ يمكن أن يسوّغ غائياً حدثاً كالمحرقة اليهودية وفي النتيجة يُكفِّر عنه؟ يعني موت المسيح على الصليب أنّ على المرء دونَ قيدٍ إسقاط تصوّر الربّ بوصفه راعياً متعالياً يضمن خاتمةً سارَّة لأعمالنا، الضامن للغائية التاريخية. موت المسيح هو موت هذا الإله، وهذا الموت يمتنع عن أيّ "معنىً أكثر عمقاً" يُعتّم على واقع المصائب التاريخية الوحشيّ.

كذلك يسمح لنا هذا الأمر بتقديم الإجابة المسيحية المتناسقة الوحيدة عن السؤال الأبديّ الحاسم: هل كان الربّ موجوداً في معسكر أوشفيتز؟ كيف سمح بحدوث مثل هذه المعاناة الرهيبة؟ لماذا لم يتدخّل ويمنع حدوثها؟ ليست الإجابة أنّ علينا أن نتعلّم الانسحاب من تقلباتنا الأرضية والتماهي في السلام المبارك للربّ الذي يقيم في الأعالي بعيداً عن مصائبنا، حيث ندرك البُطلان المطلق لشواغلنا البشرية (إجابة الوثنيّ المعتادة)، ولا أنّ الربّ عليم بما يفعل وسيجزينا بطريقة ما عن معاناتنا ويداوي جروحنا ويعاقب المذنبين (الإجابة الغائية المعتادة). الإجابة موجودة مثلاً في المشهد الأخير من فيلم Shooting Dogs [إطلاق الرصاص على الكلاب] – ظهر في دور العرض في الولايات المتحدة بعنوان Beyond the Gates [وراء البوابات] – إذ تظهر فيه مجموعة من لاجئي التوتسي في مدرسة مسيحية يعلمون أنّهم سيتعرضون للذبح قريباً بأيدي رعاع الهوتو. ينهار معلم بريطانيّ شاب من اليأس ويسأل شخصيته الأبوية الكاهنَ المسنَّ – يمثّل دوره جون هرت John Hurt – أين المسيح الآن ليمنع المذبحة؟ فيجيب الكاهن: المسيح حاضرٌ هنا أكثر من أيّ وقت مضى. إنّه يعاني معنا هنا. حين نلعن قدرنا يأساً وحين نقبل بشجاعة أنّه ما من قوّة عُليا ستساعدنا، سنجده إلى جانبنا هنا.

إذاً الرسالة الحقيقية للميلاد ليست: "نحن بمأمن؛ هنالك أحدٌ ما في الأعلى يعتني بنا، وأرسل إلينا ابنه الوحيد رسولاً!" ولكن: "نحن وحيدون ومسؤولون عن قدرنا". يمثّل هذا الافتقار إلى دعم عُلويّ اسماً آخر للحرية يجسّد المسيح هِبة

الحرية الإلهية، أو كما عبّرت عن ذلك فرقة Rammstein في أغنيتها "Ohne Dich": "من دونك لا أستطيع أن أحيا، ومعك أكون وحيداً"؛ مع المسيح فحسب نكون وحدنا حقاً. لن نسير اليوم مع المسيح إلّا إذا تحمّلنا مسؤوليتنا إزاء الجائحة والمصائب الأخرى ونسير معاً في تضامن شامل، مدركين أنّه ما من قوّة عُليا تضمن لنا خاتمة سارّة. الاسم المسيحيّ لهذا التضامن الشامل هو الروح القدس، جماعة المؤمنين الذين تربطهم المحبة. حينما طرح أتباع المسيح عليه سؤالاً عن كيفية معرفتهم بعودته بعد موته، أجابهم: حين تربط المحبة بين اثنين منكم، سأكون بينكم. يعود المسيح بوصفه رابط المحبة بين أتباعه وليس بوصفه قوّة عُليا توحّدهم.

25
ملهاة أوَّلا، ثمّ مأساة؟

نعرف جميعاً ملاحظة ماركس بأنّ التاريخ يعيد نفسه بدايةً كمأساة ثمّ كملهاة؛ كان يدور في خَلد ماركس مأساة سقوط نابليون الأول ثمّ الملهاة المتمثّلة في مدة حكم ابن أخيه نابليون الثالث. في ستينيات القرن العشرين، لاحظ هربرت ماركيوز Herbert Marcuse أنّ درس النازية يبدو على العكس من ذلك: أوَّلا كملهاة (في أثناء عشرينيات القرن العشرين، عُدّ هتلر وعصابته حفنة من المهرّجين السياسيين الهامشيين)، ثمّ كمأساة (حينما استولى هتلر على السلطة فعلياً). من الواضح أنّ اقتحام الغوغاء المناصرين لترامب مبنى البرلمان في كانون الثاني/ يناير 2021 لم يكن محاولة انقلاب جدّية وإنّما ملهاة. يجسّد جاك أنجلي Jake Angeli – أحد مؤيدي QAnon الذي يعرفه كثيرون منا حالياً بأنّه واحد من الأشخاص الذين اقتحموا مبنى البرلمان مرتدياً قبعة الفايكنغ ذات القرون – زيف حشد المحتجّين بأسره. تقرن الثقافة الشعبية محاربي الفايكنغ بخوذهم ذات القرون، ولكن ليس هنالك دليل على أنّه كان لخوذ الفايكنغ قرون، إذ إنّ مخيلة القرن التاسع عشر الرومانسية اخترعت خوذاً مثل تلك، وهي خوذٌ لم تكن مفيدةً للدلالة على أصالة المحتجّين.

لم يكن ما حدث في مبنى البرلمان محاولة انقلاب وإنّما كرنفال. وكما علّق راسل سبريغليا Russell Sbriglia على الأحداث:

> هل يمكن أن يكون هنالك مثالٌ عن منطق "السرقة من أجل المتعة" أفضل من الأهزوجة التي كان أنصار ترامب يترنمون بها في أثناء اقتحام مبنى البرلمان: "أوقفوا السرقة"؟ إنّ الطابع الكرنفاليّ التلذّذيّ لاقتحام مبنى البرلمان "لإيقاف السرقة"؟ لم يكن مجرّد حادث عرضيٍّ لمحاولة العصيان بقدر ما كان الأمر برمّته يتعلّق باستعادة المتعة التي سرقها منهم الآخرون من باقي الأمم (أي السود والمكسيكيون والمسلمون ومجتمع الميم (LGBTQ+) وغيرهم). إنّ عنصرَ الكرنفال كان جوهرياً تماماً لهذه الاستعادة.[93]

[93] Russell Sbriglia (private communication).

تُعَدّ إشكاليةً فكرةُ أنّ الكرنفال يمكن أن يكون نموذجاً لحركات الاحتجاج التقدّميّ، مع احتجاجات مثل هذه ليست كرنفالية بشكلها وجوّها (عروض مسرحية، أناشيد فكاهية) فحسب، بل كذلك بتنظيمها غير المركزيّ. أليس واقعُ الرأسمالية المتأخرة الاجتماعيّ نفسه كرنفالياً؟ ألم تكن ليلة الكريستال (Kristallnacht) السيئة الصيت في 1938 – اندلاع الهجمات العنيفة شبه المنظمة وشبه العفوية على اليهود ومنازلهم ومعابدهم ومنشآتهم التجارية – كرنفالاً إن كان هنالك كرنفالٌ أصلاً؟ إضافة إلى ذلك، أليس "الكرنفال" اسم وجه السلطة الخفيّ الفاجر أيضاً، من الاغتصابات الجماعية إلى الإعدامات الجماعية؟ دعونا لا ننسى أنّ ميخائيل باختين Michail Bakhtin طوّر مفهوم الكرنفال في كتابه عن رابليه Rabelais الذي كتبه في ثلاثينيات القرن العشرين مثل ردٍّ مباشر على كرنفال التطهير الستالينيّ. جرت العادة أن تكون إحدى إستراتيجيات "الطبقات الدنيا" في مقاومة الذين يتولّون السلطة تقديمَ عروض مرعبة للوحشية لتعكير صفو حسّ التهذيب لدى الطبقة الوسطى. ولكن مع الأحداث التي جرت في مبنى البرلمان فقدَ الكرنفال براءته مرَّة أخرى. إذاً، هل ستكرّر الملهاة نفسها كمأساة في هذه الحالة أيضاً؟ هل سيعقب ذلك انقلابٌ عنفيٌّ جسيم؟ من المؤكد أنّ هنالك علامات تنذر بالسوء تشير إلى هذا الاتجاه:

> كشف استطلاعٌ للرأي أُجري في اليوم التالي للاعتداء على مبنى البرلمان أنّ 45% من الجمهوريين يؤيّدون هذا التصرّف ويعتقدون أنّه ينبغي فرض ترامب رئيساً بالقوّة، في حين يرفض 43% منهم هذا التصرّف أو على الأقلّ لا يؤيدون استخدام العنف لتحقيق ذلك الهدف. بناء على ذلك تُمثّل أقصى اليمين قاعدة من قرابة 30 مليون شخص، وهو عدد متزايد لمن يرفضون صراحة مبدأ الديموقراطية وهم مستعدون لقبول حُكم استبداديّ. نحن محظوظون لأنّ موضوع تبجيلهم مشلول بسبب النرجسية والضحالة المعرفية. لكنّها مسألة وقت فحسب قبل أن يبرز ترامب جديد، أقلّ توهماً وأكثر كفاءة؛ الدرب إلى إقامة نظام استبداديّ ضدّ إرادة الأغلبية ممهَّد الآن على أكمل وجه.[94]

[94] Warren Montag, interview by Juan Dal Maso, "It Is Only a Matter of Time Before a More Competent Trump Emerges," *Left Voice*, January 11, 2021, https://www.leftvoice.org/the-far-right-has-never-been-

so-powerful-interview-with-warren-montag

باستثناء أنّ ترامب ليس مشلولاً بسبب النرجسية والضحالة المعرفية لِهاتين السِّمَتين جذورٌ عميقة في نجاحه. إنّ الموقف الأساسيّ لأتباعه يمثّل "ضحالةً معرفيةً": في إنكار التأثير الحقيقيّ لجائحة كورونا، وإنكار الاحتباس الحراريّ، وإنكار وجود العنصرية والتحيّز الجنساني في الولايات المتحدة. الاعتقاد بأنّه إن كان هنالك أيّ تهديد حقيقيّ لطريقة العيش الأميركية فهو ناجمٌ بالضرورة عن مؤامرة. برزت من هذه الضحالة حركةٌ يمينيةٌ متطرِّفة كبيرةٌ تتكوّن قاعدتها الطبقية (كما حال الفاشية) من خليط من عمال الطبقة الوسطى الدنيا البيض الخائفين من فقدان امتيازاتهم، بالإضافة إلى داعميهم من أصحاب المليارات المتكتِّمين.

هل أقلق اقتحام مبنى البرلمان أجهزة الدولة في الولايات المتحدة حقاً؟ قد يبدو الأمر كذلك: "أصدر مارك ميلي Mark Milley وهو أقدم الجنرالات في الولايات المتحدة وهيئة الأركان المشتركة مجتمعة، وهي هيئةٌ تضمّ رؤساء الفروع العسكرية جميعها، بياناً الثلاثاء (12 كانون الثاني/ يناير) يشجب فيه الاجتياح العنيف لمبنى البرلمان الأميركيّ الأسبوع الماضي ويذكّر أفراد القوات المسلحة بواجبهم في مساندة الدستور والدفاع عنه ونبذ التطرّف"[95]. ثمّة آثارٌ خفية للتضامن بين السلطات والمحتجّين. وكما لاحظ كثيرون، تخيلوا المدى الذي كانت ستبلغه وحشية السلطات فقط لو أنّ محتجّي حركة BLM [حياة السود مهمة] فرضوا حصاراً على مبنى البرلمان. لم يُهزم المحتجّون، بل عادوا ببساطة إلى بيوتهم (كما أوصاهم ترامب) وتجمعوا في حانة مجاورة للاحتفال بفعلتهم.

95 "Military Joint Chiefs Statement Condemning 'Sedition and Insurrection' at US Capitol," CNN, January 12, 2021, https://edition.cnn.com/2021/01/12/politics/joint-chiefs-memo-capitol-nsurrection/index.html

وفقاً لأحد المعلّقين، معظم محتجّي مبنى البرلمان "تدفّقوا من ضواحيهم الميسورة نحو مبنى البرلمان الأميركي، مستعدين للموت في سبيل قضية امتيازات البيض"[96]. قد يكون ذلك صحيحاً، لكنّ كثيرين منهم كانوا جزءاً من الطبقة الوسطى الدنيا التي ترى أنّ امتيازاتها تتعرض لتهديدِ تحالفٍ مُتخيّل من المؤسّسات التجارية الكبيرة (شركات الإعلام الرقمية الحديثة والمصارف)، وإدارات الدولة (تتحكّم في حياتنا اليومية، وتفرض إجراءات الإغلاق والأقنعة الواقية وضبط الأسلحة، وقيوداً كثيرة على حرياتنا الأساسية)، والكوارث الطبيعية (الجوائح وحرائق الغابات)،

و"الآخرين" (الفقراء والمهاجرين ومجتمع الميم) التي يُزعم أنّها تستنفد موارد الدولة المالية وتُرغم الدولة على زيادة الضرائب. الأساسيّ هنا مقولة "طريقة عيشنا"، والتركيز على التواصل الاجتماعيّ في المشارب والمقاهي أو الأحداث الرياضية الكبيرة، وحرية تنقّل السيارات والحق في امتلاك الأسلحة. كلّ ما يشكّل تهديداً لهذه الحريات مرفوضٌ ومُدان بوصفه مؤامرة، من رقابة الدولة (رغم أنّها مقبولة عندما تستهدف "الآخرين") والممارسات التجارية الصينية غير العادلة إلى "الإرهاب" الصائب سياسياً والاحتباس الحراريّ والجوائح... من الواضح أنّ "طريقة العيش" هذه ليست محايدةً طبقياً. إنّها طريقة عيش شريحة من الطبقة الوسطى البيضاء التي ترى نفسها تجسيداً "لماهية أميركا".

96 Will Bunch, “An Insurrection of Upper-Middle Class White People,” *The Philadelphia Inquirer*, January 12, 2021, https://www.inquirer.com/columnists/attytood/capitol-breach-trump-insurrection-impeachment-white-privilege-20210112.html

لذلك، عندما نسمع أنّ عميل هذه المؤامرة، "الدولة العميقة" التي يسيطر عليها الليبراليون، لم يسرق الانتخابات فحسب، إنما ينتزع منا طريقة عيشنا (التي تتآكل تدريجياً)، علينا تطبيق مقولة أخرى (كما فعل سبريغليا في الاقتباس المذكور سابقاً): سرقة من أجل المتعة. تنبّأ جاك لاكان في مطلع سبعينيات القرن العشرين أنّ العولمة الرأسمالية ستُسفر عن نمط جديد من العنصرية يركّز على شخصية الآخر الذي ينتزع منا متعتنا (الرضى العميق الذي يوفّره لنا انغماسنا في طريقة عيشنا)، و/ أو يمتلك بذاته ويبدي متعةً مفرطةً تفلت من أيادينا (يكفي أن نذكر التخيلات المعادية للسامية عن الشعائر اليهودية السرية، أو تخيلات المتعصبين البيض عن البراعة الجنسية الفائقة التي يتمتّع بها الرجال السود، أو تصورات الأميركيين البيض عن المكسيكيين بوصفهم مغتصبين وتجار مخدرات...). هنا يجب عدم خلط المتعة بالجنس أو بالملذات الأخرى. إنّها رضىً عميق عن طريقة عيشنا الخاصة يتضمّن جنونَ الارتياب بشأن طريقة عيش الآخر أيضاً. ما يقلقنا بشأن الآخر يتجسّد عادة في تفاصيل ضئيلة في الحياة اليومية (رائحة طعامهم أو ضجيج موسيقاهم أو ضحكاتهم) (بالمناسبة، ألم يكن مزيجٌ مشابهٌ من الانبهار والرعب حاضراً في ردّ فعل اليسار الليبرالّي على المحتجّين الذين اقتحموا مبنى البرلمان؟ ألم تكن لمحةُ حسد واضحةً في الإدانات للناس "العاديين" جميعها الذين اقتحموا مقعد السلطة المقدّس في لحظة كرنفالية علّقت مؤقّتا قواعدَنا في الحياة العامّة؟)

إنّ أبعاد ما ينكره المحتجّون المناصرون لترامب مروّع، فرغم اللقاح لا تزال جائحة كورونا تتفشّى مع تفاقم التفاوتات القائمة. أمّا بالنسبة إلى بيئتنا، فذكرت صحيفة *The Guardian*: "يواجه الكوكب مستقبلَ انقراض جماعيٍّ مروّع، وتراجعاً صحياً وجيَشانَ الاضطرابات المناخية التي تهدّد البقاء البشريّ بسبب الجهل والتقاعس، وفق مجموعة علماء دولية حذّرت من أنّ الناس لم يدركوا حتّى الآن الطابع المُلحّ لأزمات المناخ والتنوع الحيويّ"[97]. لكنّ ما ينبغي التركيز عليه الآن هو عناصر إنكار آخر في مراسم تنصيب بايدن. إليكم تعليق سارة إليزابيث كاب SE Cupp على احتفال التنصيب:

[97] Phoebe Weston, "Top Scientists Warn of 'Ghastly Future of Mass Extinction' and Climate Disruption," *The Guardian*, January 13, 2021, https://www.theguardian.com/environment/2021/jan/13/top-scientists-warn-of-ghastly-future-of-mass-extinction-and-climate-disruption-aoe

> بدا الأمر كأنّ شيئاً لم يحدث حقاً، عدا أنّه حدث بالطبع. أصابت السنوات الأربع الماضية كثيراً من الأميركيين بصدمة لن تتلاشى بين عشية وضحاها. هنالك بعض التعافي الذي يجب إجراؤه، وأمام بايدن رحلة طويلة، ولكن أقلّه لساعة أو ما يقاربها في مبنى البرلمان الأميركيّ، كانت هنالك أخيراً مدة راحة من الجنون اشتدّت الحاجة إليها، لحظة الترسيم التي ستَسِم إلى الأبد عام 2020. [98]

[98] SE Cupp, "Did That Really Just Happen?" CNN, January 23, 2021, https://edition.cnn.com/2021/01/20/opinions/post-inauguration-commentary/index.html

لم يقتصر الأمر على عدم ظهور ترامب، فقد خرج من صميم العالم الذي يحتفل في "التلة التي نتسلقها"، القصيدة التي ألقتها الشاعرة الشابة لوريت أماندا غورمان laureate Amanda Gorman في حفل تنصيب بايدن. تصف نفسها بأنّها "فتاة سوداء نحيلة انحدرت من العبيد وربّتها أمّ عازبة في وسعها أن تحلم بأن تصبح رئيسةً لتجد نفسها فحسب تلقي قصيدةً لرئيس"، وقالت:

> وهكذا نرفع أنظارنا، ليس إلى ما يقف بيننا، بل إلى ما يقف أمامنا/ نغلق الفجوة لأنّنا نعرف كيف نضع مستقبلنا أوّلا، علينا أوّلا وضع اختلافاتنا جانباً/... نلقي أسلحتنا كي تتمكّن أيادينا من التلاقي. لا نسعى لإيذاء أحد ونسعى للوئام بين الجميع/ لقد رأينا قوّة من شأنها تحطيم أمتنا، بدلاً من تشاطرها/

من شأنها تدمير بلدنا إذا قصدت تأخير الديموقراطية/ وكاد هذا المسعى أن ينجح، لكن في حين يمكن تأخير الديموقراطية دورياً، فلا يمكن هزيمتها أبداً في هذه الحقيقة.

إن كان لمصطلح "أيديولوجيا" أيّ معنى، فهذا هو: وهم أن تجتمع المؤسّسة والتقدّميون جميعهم في لحظة جليلة من الوحدة. حينما ننغمس في هذه الوحدة ستبدو فعلياً كأنّ أحداً مثل ترامب لم يظهر حقاً. ولكن من أين أتى ترامب وأتباعه؟ ألا يشير صعوده إلى وجود شرخ عميق في هذه الوحدة؟ إذا أردنا أن يكون لنا أيّ مستقبل، ينبغي لنا ألّا نضع اختلافاتنا جانباً وإنّما عكس ذلك تحديداً. ينبغي لنا التركيز على الانقسامات والتناقضات التي تعصف بمجتمع الولايات المتحدة. ليست "الحرب الهمجية" بين المؤسّسة الليبرالية وأتباع ترامب بل التناحر الطبقيّ الفعليّ وتداعياته كافّة (العنصرية والتحيّز الجنسيّ والأزمة البيئية).

إنّ الدعوات إلى الوحدة ورأب صدع الانقسامات ليست سوى دعوات باطلة. فترامب بحدّ ذاته يرمز إلى تقسيم جذريّ بيننا وبينهم ("أعداء الشعب")، والطريقة الوحيدة المناسبة لهزيمته هي إثبات أنّ تقسيمه تقسيم باطل، وأنّه واحد "منهم" حقاً (مخلوق من "مستنقع" المؤسّسة)، واستبدال هذا التقسيم بآخر حقيقيّ أكثر جذرية: المؤسّسة بكلّ وجوهها في مواجهة الوحدة الواسعة للقوى التحرّرية جميعها.

إذاً، هل ستعيد الملهاة نفسها كمأساة؟ ما من إجابة مسبقة عن هذا السؤال؛ يتوقّف الأمر علينا جميعاً، وعلى تعبئتنا السياسية (أو عدم وجودها). "كن حذراً في ما تتمناه!"، هكذا حذّر ترامب بايدن حينما هدّده بايدن بعزله من منصبه استناداً إلى التعديل الخامس والعشرين.[99] ربما كان على ترامب نفسه أن يكون أكثر حذراً في تمنّيه الحصول على دعمٍ من محتجّي أقصى اليمين. لكنّه أشار إلى نقطة وثيقة الصلة بالموضوع أيضاً: ما تمناه بايدن، رؤيته الواسعة لأميركا متحدة جديدة متناقضة، حلم مستحيل التحقّق، وكلّما أسرعنا في الاستيقاظ منه، كان الوضع أفضل لجميعنا. من السهولة هزيمة هدف واضح مثل ترامب، لكنّ النضال الحقيقيّ يبدأ الآن.

[99] "'Be Careful What You Wish For': Trump Threatens Biden Over 25th Amendment," CNN, https://edition.cnn.com/videos/politics/2021/01/12/trump-alamo-border-wall-texas-remarks-vpx.cnn

26

ما خيانة ترامب العظمى؟

عندما رفضت قاضية المقاطعة فانيسا باريتسر Vanessa Baraitser في كانون الثاني/ يناير 2021 طلب الولايات المتحدة تسليم جوليان أسانج، علّق كثير من النقّاد اليساريين والليبراليين على هذا القرار بمصطلحات تُذكّرنا بأبيات شهيرة من مسرحية *Murder in the Cathedral* [**جريمة في الكاتدرائية**] الشعرية لتوماس ستيرنز إليوت T. S. Eliot: ”فقد كان الإغراء الأخير هو أعظم الخيانة/ وهو أن نفعل الفعل الصحيح للسبب الباطل“. في المسرحية، يخشى بيكيت Becket من أنّ ”فعله الصحيح“ (قرار مقاومة الملك والتضحية بنفسه) قائم على ”سبب باطل“ (بحثه الأنانيّ عن مجد القداسة). ستكون إجابة هيغل عن هذا المأزق أنّ ما يهم في تصرّفاتنا هو محتواها المعلن. إن أقدمتُ على تضحية بطولية، فهذا ما يهم، بأسلوب مستقل عن الدوافع الخاصّة لهذه التضحية التي قد تكون مَرَضية.

لكنّ رفض محاولة تسليم أسانج هي قضية مختلفة. من الواضح أنّ الرفض هو الأمر الصائب، غير أنّ الأسباب المعلنة لهذا الرفض هي الأمر الخطأ. أيّدت القاضية باريتسر تأييداً كاملاً تأكيد سلطات الولايات المتحدة بأنّ أنشطة أسانج تقع خارج نطاق الصحافة، وعلّلت قرارها على أساس صحته النفسية فحسب، قائلة: ”الانطباع العام عن رجل محبط ويائس أحياناً، يخاف بصدق على مستقبله“[100]. وأضافت أنّ مستوى الذكاء العالي لأسانج يعني أنّ محاولاته للانتحار قد تتكلّل بالنجاح. كانت إثارة القاضية باريتسر مسألة الصحة النفسية هنا عذراً لتحقيق العدالة، وكانت رسالتها الضمنية لكن الواضحة علنياً: ”أعلم أنّ الاتهام باطل، لكنّني لست مستعدّة للاعتراف بذلك، ولذا أفضّل التركيز على الصحة النفسية“ (فضلاً عن ذلك، رفضت المحكمة إطلاق سراح أسانج بكفالة، فارضةً عليه البقاء في ظروف السجن التي قد تجعل يأسه انتحارياً). (ربما) أُنقذت حياة أسانج، لكنّ قضيته (حرية الصحافة والنضال من أجل الحق في جعل جرائم الدولة علنية) تظلّ جريمة. إنّه مثال لطيفٌ لما ترقى إليه الإنسانية حقاً في محاكمنا.

[100] Michael Holden, “UK Judge Rejects Extraditing Assange to U.S. Over ‘Suicide Risk’,” *Reuters*, https://www.reuters.com/article/uk-wikileaks-assange-idUKKBN299007

غير أنّ هذا كلّه معروف للجميع. ما يتعيّن علينا هو تطبيق أبيات إليوت على حدثين سياسيين آخرين حدثا في الأوان الأخير. ألم تكن المسرحية الهزلية التي وقعت أحداثها في واشنطن مطلع كانون الثاني/ يناير 2021 الدليل القاطع – إن كان ثمّة حاجة إلى دليل – على أنّه ينبغي ألّا يُسلَّم أسانج للولايات المتحدة؟ سيكون ذلك بمنزلة تسليم المنشقّين الذين هربوا من هونغ كونغ للصين. الحدث الأول: عندما ضغط ترامب على نائبه مايك بينس Mike Pence كي لا يصدق على الأصوات الانتخابية، طلب من بينس فعل الأمر الصائب (بلى، فنظام الولايات المتحدة الانتخابيّ زائف وفاسد. إنّه نظام مخادع كبير تنظمه "الدولة العميقة" وتتحكّم فيه) من أجل سبب باطل. تُعَدّ تداعيات طلب ترامب مثيرة للاهتمام. لقد حاجج في أنّه كان في وسع بينس – بدلاً من مجرّد فعل دوره الشكليّ الذي ينصّ عليه الدستور – تأجيل أو عرقلة التصديق على نتائج المجمَّع الانتخابيّ التي كان من المقرر أن تحدث في الكونغرس.[101] بعد عدّ الأصوات، لم يقم نائب الرئيس إلّا بإعلان النتيجة التي حُدّد محتواها قبلاً، لكنّ ترامب أراد من بينس التصرّف كأنّه من يتخذ القرار فعلياً. لم يكن ما طالب به ترامب ثورة وإنّما محاولة يائسة لإنقاذ الوضع بإرغام بينس على التحرّك ضمن النظام المؤسّسيّ، آخذاً النص القانونيّ بحَرفية أكثر من المقصود منه.

[101] Kevin Liptak, “Pence Faces Pressure from Trump to Thwart Electoral College Vote,” CNN, January 5, 2021, https://edition.cnn.com/2021/01/05/politics/mike-pence-donald-trump-electoral-college/index.html

الحدث الثاني: عندما اقتحم المحتجّون المناصرون لترامب مبنى البرلمان في 6 كانون الثاني/ يناير، عملوا على الأمر الصائب لسبب باطل أيضاً. كانوا محقين في احتجاجهم على نظام الولايات المتحدة الانتخابيّ بآلياته المعقّدة التي تهدف إلى جعل أيّ تعبير مباشر عن الاستياء الشعبيّ مستحيلاً (هذا ما ذكره الآباء المؤسّسون بكلّ وضوح). لكنّ محاولتهم لم تكن انقلاباً فاشياً، فقبل استيلاء الفاشيين على السلطة، كان لديهم ميل تاريخيّ إلى عقد صفقة مع مؤسّسات الأعمال التجارية الكبيرة، لكن لدينا اليوم عناوين أخبار من قبيل: "لا بدّ من إزاحة ترامب من المنصب حفاظاً على الديموقراطية، كما يقول زعماء رجال الأعمال".[102] إذاً، هل حرّض ترامب المحتجّين على مؤسّسات الأعمال التجارية الكبيرة؟ ليس

حقاً. تذكّروا أنّ ستيف بانون طُرد من البيت الأبيض عندما عارض خطة ترامب الضريبية ودافع فضلاً عن ذلك صراحة عن زيادة الضرائب على الأغنياء بنسبة 40%، إضافة إلى قوله إنّ إنقاذ المصارف بالأموال العامّة ليس سوى "اشتراكية من أجل الأغنياء". يشبه دفاع ترامب عن مصالح الناس العاديين دفاع كين Kane في فيلم ويلز Welles الكلاسيكيّ حين ردّ على اتهام مصرفيّ غنيّ له بأنّه يتحدّث نيابة عن الغوغاء الفقراء. فقد ردّ بأنّ صحيفته تتحدّث حقاً نيابة عن الناس العاديين الفقراء لمنع الخطر الحقيقيّ المتمثّل في أنّ الناس العاديين الفقراء سيتحدّثون نيابة عن أنفسهم.

102 Matt Egan, "Trump Should Be Removed From Office to Preserve Democracy, Business Leaders Say," CNN, January 7, 2021, https://edition.cnn.com/2021/01/06/business/capitol-hill-violence-business-leaders/index.html

على غرار أيّ شعبوية، لا تثق شعبوية اليوم بالتمثيل السياسيّ أيضاً، مدّعية أنّها تتحدّث مباشرة نيابة عن الشعب.[103] تشتكي من تكبيل "الدولة العميقة" والمؤسّسة المالية لأياديها، فتكون رسالتها: "لو لم تكن أيادينا مكبّلة فقط، لكنّا قادرين على التخلّص من أعدائنا مرّة واحدة وإلى الأبد". غير أنّ شعبوية اليوم – خلافاً للشعبوية التسلّطية القديمة (كالفاشية) المستعدّة لإلغاء ديموقراطية التمثيل الشكليّ وتولّي نظام جديد وفرضه – لا تملك رؤيةً متماسكةً عن نظام جديد ما. محتوى أيديولوجيتها وسياستها الإيجابيّ هو ارتجالٌ غير متّسق من التدابير الهادفة لرشوة "فقرائنا" وتخفيض ضرائب الأغنياء وتركيز كراهية الناس على المهاجرين ونخبتنا الفاسدة التي تستعين بمصادر خارجية لتوفير الوظائف، وما شابه. هذا السبب في أنّ شعبويي اليوم لا يرغبون حقاً في التخلّص من الديموقراطية التمثيلية الراسخة والاستيلاء الكامل على السلطة؛ "من دون النضال ضدّ 'قيود' النظام الليبراليّ سيكون على اليمين الجديد في الواقع تحرّك حقيقيّ ما"، وهذا ما سيجعل خواء برنامجهم واضحاً للعيان. شعبويو اليوم لا يمكن أن يعملوا إلّا نتيجة تأجيل تحقيق أهدافهم إلى أجل غير محدد ما داموا لا يستطيعون الاستمرار إلّا بوصفهم يعارضون "الدولة العميقة" للمؤسّسة الليبرالية. "في هذه المرحلة على الأقل، لا يسعى اليمين الجديد لتوطيد قيمة عُليا – مثل الأمة أو الزعيم – تعبّر تماماً عن إرادة الشعب وتتيح في النتيجة إلغاء آليات التمثيل وربما تقتضي إلغاءها".

[103] The uncredited quotes that follow are from Yuval Kremnitzer, “The Emperor’s New Nudity: The Media, the Masses, and the Unwritten Law” (manuscript).

هذا يعني أنّ ضحايا ترامب الحقيقيين هم داعموه العاديون الذين يأخذون على محمل الجد ثرثرته المناهضة لنخب الشركات الليبرالية وللمصارف الكبيرة. إذ إنّ منتقديه الليبراليين لا يتهمونه إلّا بالظهور كأنّه يتحكّم في أنصاره المستعدين للقتال بعنف في سبيله، في حين أنّه يقف إلى جانبهم ويحرّضهم على العنف. لكنّه لا يقف حقاً إلى جانبهم، ففي صبيحة 6 كانون الثاني/ يناير، خاطب مسيرة "أنقذوا أميركا" في إليبس، وهي حديقة قريبة من البيت الأبيض، قائلاً: "سنذهب إلى مبنى البرلمان ونهلّل لأعضاء مجلس الشيوخ ومجلس النواب الشجعان، ومن المرجّح أنّنا لن نهلّل كثيراً لبعضهم لأنّكم لن تستعيدوا بلدنا بالضعف. عليكم إظهار القوّة وأن تكونوا أقوياء"[104]. ولكن عندما عمل الغوغاء على ذلك واقتربوا من مبنى البرلمان، تراجع ترامب إلى البيت الأبيض وتفرّج على اندلاع أعمال العنف على شاشة التلفاز.

[104] Justin Vallejo, “Trump ‘Save America Rally’ Speech Transcript from 6 January,” *The Independent*, January 13, 2021, https://www.independent.co.uk/news/world/americas/us-election-2020/trump-speech-6-january-transcript-impeachment-b1786924.html

هل أراد ترامب حقاً الانقلاب؟ كلّا، على نحو لا لبس فيه. عندما اخترق الغوغاء مبنى البرلمان، أدلى بتصريح: "أعرف مدى ألمكم، أعرف مصابكم، لدينا انتخابات سُرقت منّا. كانت انتخابات بغالبية ساحقة والجميع يعلمون ذلك ولا سيما الطرف الآخر، ولكن عليكم العودة إلى بيوتكم الآن. يجب أن ننعم بالسلام، وأن نحظى بالقانون والنظام"[105]. حمّل ترامب خصومه مسؤولية أعمال العنف وأشاد بمؤيديه: "لا يمكننا أن نكون ألعوبةً بأيدي هؤلاء الناس. يجب أن ننعم بالسلام. لذلك عودوا إلى بيوتكم. نحبكم؛ أنتم متميّزون للغاية". وعندما شرع الغوغاء بالتفرّق، أرسل تغريدة يدافع فيها عن تحرّكات مؤيديه الذين اقتحموا مبنى البرلمان وعملوا على تخريبه: "إنّها الأمور والأحداث التي تقع عندما يُسلب فوزٌ ساحقٌ مقدّس في الانتخابات بفظاظة وقسوة"[106]. واختتم تغريدته: "تذكّروا هذا اليوم إلى الأبد!". نعم، علينا أن نتذكّره لأنّه يُظهر زيف ديموقراطية الولايات المتحدة وكذلك زيف الاحتجاج الشعبويّ عليها. قليل من انتخابات الولايات المتحدة يتمتّع حقاً بالأهمية، مثل انتخابات حاكم كاليفورنيا في 1934 عندما خسر المرشّح الديموقراطيّ أبتون سنكلير Upton Sinclair لأنّ المؤسّسة بأكملها نظّمت حملة غير مسبوقة من

الأكاذيب والتشهير (أعلنت هوليوود أنّها ستنتقل إلى فلوريدا في حال فوز سنكلير، وما إلى ذلك). لكنّ إخفاق ترامب في إعادة انتخابه معاكس لإخفاق سنكلير. إنّه إخفاق شخص يستحق الإخفاق تماماً.

105 “Trump Praises Supporters as ‘Very Special’ after Mob Storms the Capitol,” *The Guardian*, January 6, 2021, https://www.theguardian.com/us-news/live/2021/jan/06/georgia-election-latest-news-senate-ossoff-warnock-democrats-republicans-trump-biden

106 Erik Pedersen, “Donald Trump Tweets About ‘Sacred Landslide Victory’,” *Deadline*, January 6, 2021, https://deadline.com/2021/01/donald-trump-speech-capitol-protest-go-home-election-was-stolen-1234666061/

الصورة التي ستبقى عن انتخابات الولايات المتحدة في 2020 هي صورة حشد غاضب غير راضٍ يهاجم البرلمان نيابةً عن رئيس يتمتّع بالشعبية حُرم سلطته نتيجة تلاعبات برلمانية... أيبدو هذا مألوفاً؟ بلى. كان ينبغي أن يحدث هذا في البرازيل أو بوليفيا، فهناك يكون لحشد من المؤيدين كامل الحق في اقتحام البرلمان وإعادة تنصيب الرئيس. أمّا في الولايات المتحدة، فكانت تجري لعبةٌ مختلفة كلًّيا. إذاً لنأمل أن يوقف ما حدث في 6 كانون الثاني/ يناير على الأقل فجور الولايات المتحدة وهي ترسل مراقبين إلى بلدان أخرى للحكم على نزاهة انتخاباتها، فانتخابات الولايات المتحدة نفسها تحتاج اليوم إلى مراقبين أجانب. الولايات المتحدة دولة مارقة، وليس منذ صار ترامب رئيساً لها. تُظهر الحرب الأهلية المستمرة (تقريباً) شرخاً كان موجوداً دوماً.

27

نخبك يا جوليان أسانج!

ثمّة دعابة قديمة من زمن الحرب العالمية الأولى تتحدّث عن تبادل البرقيات بين مقرّ قيادة الجيش الألمانيّ ومقرّ القيادة النمساوية الهنغارية. من برلين إلى فيينا، نصّ الرسالة: "الوضع في جانبنا من الجبهة خطير، لكنّه ليس كارثياً"، وكان الردّ من فيينا: "من جانبنا، الوضع كارثيّ، ولكنّه ليس خطيراً". يبدو ردّ فيينا كأنّه يعرض نموذجاً لكيفية ميلنا اليوم إلى الردّ على الأزمات، من جائحة كورونا إلى حرائق الغابات في غرب الولايات المتحدة وأماكن أخرى: نعلم أنّ هنالك كارثة وشيكة، وتحذّرنا وسائل الإعلام طوال الوقت، لكنّنا لسنا مستعدين بطريقة ما لأخذ الوضع على محمل الجدّ.

هنالك حالة مشابهة في مصير جوليان أسانج، فهي كارثة قانونية وأخلاقية تتواصل منذ سنوات. فكّروا فحسب في المعاملة التي يتلقّاها في السجن: عاجزٌ عن رؤية أولاده وأمهم وعاجزٌ عن التواصل بانتظام مع محاميه، وضحية تعذيب نفسيّ يهدّد بقاءه على قيد الحياة. يقتلونه برفق كما تقول الأغنية. لكنّ قلّة قليلة على ما يبدو تأخذ وضعه على محمل الجد وهي تدرك أنّ مصيرنا على المحكّ في حالته، فالقوى التي تنتهك حقوقه هي التي تمنع أيّ استجابة فعّالة للاحتباس الحراريّ والجائحة. إنّها القوى التي تسمح للجائحة أن تجعل الأغنياء أكثر غنىً وأن تكون وطأتها على الفقراء أشدّ. إنّها القوى التي تستغل الجائحة دون هوادة لتنظيم فضاءاتنا الرقمية والاجتماعية ومراقبتها، القوى التي تحمينا حتّى من حريتنا الخاصّة. مستعدون جميعنا تماماً للاحتجاج على القيود التي تفرضها الصين على الحريات الإنسانية الأساسية في هونغ كونغ... ألا يجدر بنا أن نعيد النظر في أنفسنا؟ لا بدّ من أن نتذكّر اليوم القول القديم لماكس هوركهايمر Max Horkheimer من أواخر ثلاثينيات القرن العشرين: "ينبغي لأولئك الذين لا يريدون التحدّث بأسلوبٍ نقديّ عن الرأسمالية أن يلزموا الصمت إزاء الفاشية أيضاً". أمّا نسختنا من هذا القول، فهي: ينبغي لأولئك الذين لا يريدون التحدّث عن الظلم الذي حلّ بأسانج أن يلزموا الصمت إزاء انتهاكات حقوق الإنسان في هونغ كونغ وروسيا البيضاء.

إنّ الاغتيال الحسن التخطيط والتنفيذ لشخصية أسانج هو أحد الأسباب التي لم تجعل الدفاع عنه يحفّز تحرًّكا واسعاً شبيهاً بتحرّكي "حياة السود مهمة" أو Extinction Rebellion [تمرّد على الانقراض]. الآن وقد بات بقاء أسانج على قيد الحياة على المحكّ، فحركة كتلك وحدها يمكن أن (ربما) تنقذه. تذكّروا كلمات أغنية "Here's to You" [نخبكما] (كتبتها جوان بايز Joan Baez ولحّنها إنيو موريكوني Ennio Morricone)، وهي الأغنية الأصلية لفيلم Sacco and Vanzetti [ساكو وفانزيتي]: "نخبكما، يا نيقولا وبارت/ باقيان إلى الأبد هنا في قلوبنا/ اللحظة الأخيرة والنهائية لكما/ فهذا الاحتضار هو انتصاركما". أُقيمت تجمعات حاشدة في أرجاء العالم كافّة دفاعاً عن ساكو وفانزيتي، وثمّة حاجة إلى مثل هذه التجمعات الآن دفاعاً عن أسانج، وإن كان بأشكال مختلفة. من غير الممكن أن يموت أسانج حتّى لو وافته المنية (أو اختفى في غياهب زنزانة سجن في الولايات المتحدة كالأموات الأحياء)، فهذا الاحتضار سيكون انتصاره. سيموت ليحيا داخلنا جميعاً. هذه هي الرسالة التي علينا جميعاً أن نسلمها لأولئك الذين يمسكون مصيره بأياديهم: إن قتلتم رجلاً، فستخلقون أسطورة ستواصل تعبئة الآلاف.

28
بشأن روح (انعدام روح) بوتين بالنسبة إلى بايدن

أنا بعيد كلّ البعد عن الإعجاب بترامب أو ببوتين، لكنّ ما قاله بايدن في إحدى المقابلات الأخيرة التي أجراها معه جورج ستيفانوبولوس George Stephanopoulos جعلني أشعر بالحنين إلى حدّ ما إلى مشاهد من سنوات ترامب. حينما سُئل بايدن هل يعتقد أنّ بوتين قاتِل، أجاب: "نعم، أعتقد أنّه قاتِل"[107]. ثم إنه أكّد تقارير ذكرت أنّه في 2011، عندما كان نائباً للرئيس، أخبر بوتين شخصياً أنّه لا "يملك روحاً". "لم أكن رجلاً حكيماً، فقد كنت وحيداً معه داخل مكتبه"، كما قال بايدن (ما الذي يعنيه ذلك؟ أنّه كان في إمكان بوتين قتله؟): "هكذا حدث الأمر، عندما قال الرئيس بوش (جورج دبليو): إنّني نظرت في عينيه وأبصرت روحه". "قلت إنّني نظرت في عينيك ولا أعتقد أنّك تملك روحاً، فنظر إليّ وقال: كلّ منّا يفهم الآخر" (ما الذي يُفترض أن يعنيه ذلك بحق الجحيم؟ إقراراً من بوتين بأنّه لا يملك روحاً، في حين أنّ بايدن يملك روحاً؟ أم أنّ كليهما يحتقر الآخر؟). كان ردّ بوتين السريع بارعاً: تمنّى لبايدن صحة جيدة ودعاه إلى نقاش علنيّ بشأن القضايا الوجودية والأخلاقية الكبرى على موقع التواصل Zoom.

[107] Dan Mangan, "Biden Believes Putin Is a Killer, Vows Russian Leader 'Will Pay a Price' for Trying to Help Trump Win the Election," CNBC, March 17, 2021, https://www.cnbc.com/2021/03/17/biden-says-putin-is-a-killer-will-pay-for-trying-to-help-trump-win-election.html

تتعارض كلمات بايدن القوية تعارضاً حادًّا مع ترامب الذي افترض في 2017 – عندما قال بيل أورايلي Bill O'Reilly مقدّم البرامج في شبكة Fox News إنّ بوتين "قاتل" – أنّ سلوك أميركا سيئ بقدر سوء سلوك الرئيس الروسيّ. قال ترامب: "عندهم كثير من القتلة، ولدينا كثير من القتلة". "ماذا، أتظن أنّ بلدنا بريء لهذا الحدّ؟"[108]. يُظهر ترامب هنا جرعة من الواقعية الصادقة، أمّا ادّعاء بايدن بأنّ بوتين لا يمتلك روحاً، فهو بكلّ بساطة ادّعاء خطأ. يمتلك القتلة المتوحشون "روحاً"، حياة داخلية غنية، ويظهر ذلك في الطريقة التي يحبون فيها إنتاج أوهام تسوّغ بطريقة ما

أفعالهم الفظيعة. فوراء كلّ جريمة سياسية كبيرة هنالك شاعر أو أسطورة دينية. عملياً لا يوجد تطهير عرقيّ دونَ شِعر، لماذا؟ لأنّنا نعيش في حقبة تتصوّر نفسها مثل حقبة ما بعد أيديولوجية. ما دامت القضايا العامّة الكبرى لم تعد تتمتّع بالقوّة لحشد الناس من أجل العنف الجماعيّ، ثمّة حاجة إلى قضية مقدّسة أكبر تجعل المخاوف الفردية الصغيرة بشأن القتل تبدو تافهة؛ الانتماءات الدينية أو العرقية تناسب هذا الدور تماماً. هنالك بطبيعة الحال حالات ملحدين مَرَضية قادرين على ارتكاب جرائم قتل جماعية من أجل المتعة فحسب، لكنّهم استثناءات نادرة، فالغالبية تحتاج أن تكون عديمة الإحساس اتجاه حساسيتها الأوّلية إزاء معاناة الآخر، ولهذا ثمّة حاجة إلى قضية مقدّسة. عادة ما يدّعي المؤدلِجون الدينيون – صواباً أو خطأً – أنّ الدين يحتاج خلافاً لذلك إلى أشرار لفعل أمور حسنة؛ اليوم ينبغي للمرء أن يلتزم بالأحرى ادّعاء ستيف وينبيرغ Steve Weinberg أنّ الأخيار يمكنهم – بوجود الدين أو بغيابه – فعل أمور حسنة وفي إمكان الأشرار عمل أمور سيئة، في حين أنّ الدين وحده يستطيع جعل الأخيار يفعلون أموراً سيئة.

108 Martin Pengelly, “Donald Trump Repeats Respect for ‘Killer’ Putin in Fox Super Bowl Interview,” *The Guardian*, February 6, 2017, https://www.theguardian.com/us-news/2017/feb/05/donald-trump-repeats-his-respect-for-killer-vladimir-putin

إذاً، إن كنتُ مناهضاً لبوتين، فليس لأنّه لا يمتلك روحاً إنّما بسبب ما هو موجود في روحه. هنالك مقطع في مقابلة أجرتها معه صحيفة *The Financial Times* في 2019، يجسّد كيف أنّه يتحدّث حقاً من قلبه. هنا أعلن رسمياً عدم تسامحه المطلق مع الجواسيس الذين يخونون أوطانهم، قائلاً: ”الخيانة هي أخطر جريمة يمكن اقترافها ولا بدّ من معاقبة الخونة“[109]. يتّضح من هذا الاحتدام أنّ بوتين لا يشعر بأيّ تعاطف شخصيّ مع سنودن Snowden أو أسانج، فهو لا يساعدهما إلّا لإغاظة أعدائه، ولا يسع المرء إلّا أن يتصور المصير المرتقب لسنودين أو أسانج روسيين. إذاً لا عجب من أن يقول بوتين في مقابلة أخرى إنّه رغم أنّ سنودين ليس خائناً لكنّه لا يستطيع أن يفهم كيف كان في إمكان سنودين أن يفعل ما فعله لبلده... هنا نتلمّس روح بوتين وكيف يعمل عقله.

109 Lionel Barber, Henry Foy, and Alex Barker, “Vladimir Putin Says Liberalism Has Become Obsolete,” *Financial Times*, June 28, 2019, https://www.ft.com/content/670039ec-98f3-11e9-9573-ee5cbb98ed36

إنكار أنّ لعدوّك السياسيّ روحاً لا يعدو انحداراً نحو الابتذال الذي ينسجم مع زلّات لسان بايدن الأخرى، ففي مساندته باراك أوباما في 2007 مثلاً، قال: "أعني، حصلتم على أوّل أميركيّ من أصل أفريقيّ وهو رجل واضح ومشرق ونظيف وحسن المظهر. أعني، إنّها قصة من قصص الأطفال يا رجل"[110]. ما تشير إليه هذه الأمثلة أنّه إذا كان على رئاسة بايدن أن تكون أفضل من رئاسة ترامب، فلن تكون كذلك بسبب روحه. كلّما كان اعتماده على روحه أقل، كان ذلك أفضل لنا جميعاً.

110 "A Dubious Compliment – Top 10 Joe Biden Gaffes," TIME, http://content.time.com/time/specials/packages/article/0,28804,1895156_1894977_1644536,00.html

29
النضال الطبقيّ مقابل النزعة الطبقية

في الحفل الذي أُقيم لتنصيب بايدن رئيساً، كان هنالك شخص طويل القامة سرق الأضواء بمجرد جلوسه هناك. يظهر كعنصر ناشز يعكّر مشهد الوحدة بين الحزبين: بيرني ساندرز. وكما عبّرت عن ذلك ناعومي كلاين Naomi Klein، ما يهمّ أكثر من قفّازيه هو وضعيته:

> التراخي والذراعان المتصالبتان والانعزال الجسديّ عن الحشد، الانطباع ليس عن رجل مُستبعد من حفلة وإنّما بالأحرى عن شخص غير مهتم بالمشاركة. حلّ قفّازا بيرني، في مناسبة كانت في المقام الأول عرضاً للوحدة الحزبية، محلّ كلّ شخص لم يكن يوماً من ضمن إجماع النخبة المصنّعة.[111]

[111] Naomi Klein, “The Meaning of the Mittens: Five Possibilities,” *The Intercept*, January 21, 2021, https://theintercept.com/2021/01/21/inauguration-bernie-sanders-mittens/

يعلم كلّ فيلسوف مدى إعجاب هيغل بنابليون عندما رآه يمتطي حصانه في أرجاء مدينة ينا Jena. كان هذا المشهد بالنسبة إليه كمشاهدة روح العالم (النزعة التاريخية السائدة) تمتطي حصاناً... سرعان ما أصبحت واقعة سرقة بيرني الأضواء في حفل تنصيب بايدن وصورته جالساً هناك فحسب أيقونةً تشير إلى أنّ روح العالم الحقيقية لزماننا كانت هناك، في شخصه المنعزل، يجسّد الارتياب بالتطبيع الزائف المعروض في الحفل. عبّر الاحتفاء بصورته عن أنّه لا يزال هنالك أمل في قضيتنا؛ يدرك الناس أنّ هنالك ضرورة لتغيير جذريّ. بدت خطوط الفصل مرسومة بوضوح بين المؤسّسة الليبرالية مُجسَّدة ببايدن مقابل الاشتراكيين الديموقراطيين الذين يُعَدّ بيرني ساندرز وألكسندريا أوكاسيو كورتيز أكثر ممثّليهم شعبية.

غير أنّ شيئاً ما حدث في الأسابيع الأخيرة يبدو أنّه يعكّر صفو هذه الصورة، فقد أقحمت كورتيز نفسها في مقابلاتها والمناسبات العامّة في الدفاع عن بايدن ضدّ

هجمات اليسار الاشتراكيّ الديموقراطيّ. ففي مقابلتها المنشورة في 19 آذار/ مارس في مجلة *Democratic Left* المتحدثة باسم اشتراكيي أميركا الديموقراطيين، قالت إنّها "تجمع بين الإشادة البالغة بـ'الحزب الديموقراطيّ' والإدانات الشريرة للاشتراكية"[112]. وكما ذكر إريك لندن Eric London فقد كانت في مقابلتها

[112] Eric London, "Alexandria Ocasio-Cortez Denounces Socialists and Praises Biden Administration, Democratic Party," World Socialist Web Site, March 25, 2021, https://www.wsws.org/en/articles/2021/03/26/aoc-m26.html

تقدّم "الحزب الديموقراطيّ" كأنّه تحوّل كلّيا إلى حزب الطبقة العاملة، وتقول إنّ إدارة بايدن والديموقراطيين الحاليين "يتغيّرون تغيًّرا جذرياً تامًّا باتجاه أكثر تقدّمية". لقد فرض ضغط اليسار "ما يقارب تغييراً جذرياً" بين قادة الديموقراطيين الراسخين... العائق الوحيد أمام تحقيق كمال مؤسّسة الحزب الديموقراطيّ هو معارضة الجناح اليساريّ. هذه السياسية التي شقّت طريقها المهنيّ بانتقاد "المؤسّسة الديموقراطية" والوقوف مثل شخص غريب عنها حوّلت نفسها اليوم إلى أحد عتاة المدافعين عن المؤسّسة وخصم لَدود للنقّاد الخارجيين.

إذاً، على هذا المنوال، ترفض كورتيز النقد اليساريّ لبايدن بعدّه "نقداً تمييزياً حقاً"[113] يُجيّش التمييز القديم والمريب للغاية بين "نقدٍ حسن النية" و"نقدٍ سيئ النية". تحاجج: "في وسع النقد السيئ النية أن يدمّر كلّ شيء بنيناه بسرعة... ليس لدينا الوقت أو الرفاهية لاستضافة الفاعلين السيئي النية في حركتنا" (بالمناسبة، أتذكّر بوضوح هذا التمييز من أيام شبابي عندما كان الشيوعيون الذين يتولّون السلطة يعارضون بانتظام النقد "البنّاء" بالنقد الهدّام المعادي للاشتراكية). إن لم يكن لدينا الوقت "لاستضافة الفاعلين السيئي النية في حركتنا"، أفلا يكون ذلك دعوةً خفية (ليست خفية جداً) للتطهير؟ تمضي كورتيز أبعد من ذلك، متَّهمة منتقدي بايدن اليساريين بإظهار ازدرائهم للفقراء والمضطهدين بانتقادهم الرئيس،[114] ثمّ إنها تغازل سياسات الهوية ضدّ "الماهوّية (essentialism) الطبقية" وتبعث من جديد خدعة اليسار الليبراليّ القديم القاضية باتّهام منتقديه اليساريين بأنّهم يخدمون اليمين: "عندما تقول إنّ شيئاً لم يتغيّر، فأنت تصِف الأشخاص المحميين الآن من الترحيل بأنّهم 'لا أحد'، ولا يمكننا السماح بذلك في حركتنا"[115]

(لا عجب في أنّ النزاع بين كورتيز والاشتراكيين الديموقراطيين الآن يدفع إلى تدخّل الشرطة، مع تقارير إعلامية تفيد بأنّ ضباط الشرطة يحضرون إلى منازل مستخدمي ‘تويتر’“ الذين ينتقدون كورتيز على وسائط التواصل الاجتماعيّ).[116] لكنّ إستراتيجية كورتيز مزدوجة هنا لأنّها تنتقد في الوقت عينه إدارة بايدن لعدم الذهاب بعيداً بما يكفي في الاتفاقية البيئية الجديدة[117] ولعدم الاستثمار الكافي في تجديد البنية التحتية[118] وتسخر من الشروط ”البربرية“ التي فرضها بايدن على الحدود،[119] وهي بهذه الطريقة تتبع إستراتيجية متماسكة: تريد من اليسار الراديكاليّ أن يضع ثقته وإيمانه بإدارة بايدن وأن يمارس في الوقت عينه ”النقد الحسن النية“ ويدفعه قُدُماً.

113 مذكور في:

London, “Alexandria Ocasio-Cortez Denounces Socialists.”

114 المرجع نفسه.

115 المرجع نفسه.

116 “Police Officers Show Up at Twitter User’s Home for Criticising Congresswoman AOC on Social Media, Her Spokesperson Denies Involvement,” *OpIndia*, April 9, 2021, https://www.opindia.com/2021/04/usa-police-visit-twitter-user-for-criticising-congresswoman-aoc/

117 Danielle Kurtzleben, “Ocasio-Cortez Sees Green New Deal Progress in Biden Plan, but ‘It’s Not Enough,’” NPR, April 2, 2021, https://www.npr.org/2021/04/02/983398361/green-new-deal-leaders-see-biden-climate-plans-as-a-victory-kind-of

118 Ben Winck, “AOC Says Biden’s Infrastructure Plan Is Way Too Small—She Wants a $10 Trillion Package,” *Business Insider*, April 1, 2021, https://www.businessinsider.com/aoc-biden-infrastructure-spending-plan-trillions-housing-health-care-recovery-2021-4

119 Carl Campanile, “AOC Finally Slams Biden’s ‘Barbaric’ Border Conditions, Says Families Deserve Reparations,” *New York Post*, March 31, 2021, https://nypost.com/2021/03/31/aoc-slams-barbaric-us-border-conditions-under-biden/

تكمن المشكلة التي أراها في هذا الاستخلاص المنسوب إلى كورتيز في افتراضه الضمنيّ أنّ اليسار الراديكاليّ يمضي بعيداً في اتجاه ”الماهوّية الطبقية“ ويُغفل في النتيجة التقدّم النسويّ والمعادي للعنصرية الذي تمضي فيه إدارة بايدن، ولكن هل يدافع الحزب الديموقراطيّ حقاً عن أهمية هذين النضالين ضدّ اليسار الراديكاليّ؟ وألا يدعم أيضاً بعض النسويات الراديكاليات ومناصري حركة ”حياة السود مهمة“ المؤسّسة الديموقراطية؟[120] انشقّ قسمٌ من الحركة عن الحركة الأوسع تحديداً بسبب دعم الأخيرة لـ”الحزب الديموقراطيّ“، أو كما عبّروا عن ذلك ”التحالف مع الحزب الديموقراطيّ هو التحالف ضدّ أنفسنا“،[121] فالانقسام بين المؤسّسة الديموقراطية واليسار الراديكاليّ لا علاقة له بقضية الماهويّة الطبقية.

120 بالمناسبة، لا بدّ من آن يلاحظ المرء هنا آنّ ترقية حركة "حياة السود مهمة" قتل رجال الشرطة السود إلى مرتبة الصورة النموذجية لعنف الدولة اليوم ليست بريئة بقدر ما يمكن أن تبدو عليه؛ تفيد القوة المذهلة لصور العنف المباشر هذه في التعتيم على العنف العنصري الأخطر والأوسع انتشاراً وغير المرئي إلى أبعد الحدود، الذي يُقرّه يومياً أعضاء المؤسّسة الليبرالية أنفسهم (أدين بنفاذ البصيرة هذا إلى أنجي سباركس Angie Sparks).

121 "'To Ally with the Democratic Party Is to Ally against Ourselves': BLM Inland Empire Breaks with BLM Global Network," *Left Voice*, February 4, 2021, https://www.leftvoice.org/blm-inland-empire-breaks-with-black-lives-matter-global-network

ما ينبغي توضيحه هنا أوَّلا أنّ النزاع – باستخدام اعتراض ماو تسي تونغ القديم – بين كورتيز واليسار الديموقراطيّ ليس "تناقضاً" بين الشعب وأعدائه وإنّما تناقض ضمن الشعب ذاته سيحلّه الحوار، وهذا يعني أنّه ينبغي– في حالتنا – ألّا يعامل أيّ طرف الطرفَ الآخر بوصفه عميلاً يعمل سراً لمصلحة العدو. لكن لنمضِ إلى السؤال الأساسيّ: من المصيب في هذا النزاع، أو أقلّه، من الأقلّ سوءاً؟ أميل إلى الإجابة عن هذا السؤال بصيغة ستالين القديمة: كلّ منهما أسوأ من الآخر؛ كيف على وجه التحديد؟

موقف اليسار الراديكاليّ – بمعنىً نظريّ محض – صحيح: بايدن ليس حلّاً على المدى البعيد، فالرأسمالية العالمية نفسها هي المشكلة في نهاية المطاف. غير أنّ بُعد النظر هذا لا يسوّغ في مطلق الأحوال ما يمكن أن يدعوه المرء انتهازية مبدئية؛ الموقف المريح لانتقاد كلّ تدبير تقدّميّ معتدل بوصفه غير كافٍ وانتظار حركة حقيقية لن تأتي بالطبع إطلاقاً. إذاً، كورتيز محقّة في أنّه لا يمكن نبذ بايدن بوصفه "ترامب بوجه إنسانيّ" (كما حاججتُ أيضاً)، فلا بدّ من دعم كثير من التدابير التي اتّخذتها إدارة بايدن أو اقترحتها، ومن ضمنها تخصيص مليارات الدولارات لمواجهة الجائحة والإنعاش الاقتصاديّ والوفاء بالالتزامات البيئية. كذلك، يجب أخذ تحرّك آخر لإدارة بايدن على محمل الجد وهو الإصلاح الضريبيّ الذي دافعت عنه وزيرة الخزينة جانيت يلين Janet Yellen التي تتبع بدقّة مقترح توماس بيكيتي بزيادة معدل الضرائب على الشركات في الولايات المتحدة من 21% إلى 28%، إضافة إلى ممارسة الضغط على المجتمع الدوليّ ليحذو حذوها ويرفع الضرائب إلى مستوىً مماثل... هذه هي "الماهويّة الطبقية" (دفعٌ باتّجاه عدالة اقتصادية) التي ينبغي أخذها على محمل الجد. أتفق مع كريس سيليزا Chris Cillizza في أنّ الكلمات الأكثر أهمية في خطاب بايدن في جلسة الكونغرس المشتركة في 28 نيسان/

أبريل 2021 هي: ”أصدقائي الأميركيين... إنّ نظرية تقاطر المنافع من الأعلى إلى الأسفل لم تفلح أبداً“[122].

[122] Chris Cillizza, “The Single Most Important Sentence in Joe Biden‘s Big Speech,” CNN, April 29, 2021, https://edition.cnn.com/2021/04/29/politics/biden-speech-congress-sotu/index.html

ليس في وسعي هنا مقاومة الإشارة إلى أنّ هذه التدابير التقدّمية اقتُرحت في ردّ على سياسات ترامب والجائحة، أي ما كانت لتحدث لولاها. إذاً، كنتُ محقّا في ادّعاء أنّ عهد ترامب والجائحة سيمهّدان الدرب أمام سياسات أكثر تقدّمية.

ولكن إن كان كلّ من الموقفين المتعارضين (الموافقة على أجندة الحزب الديموقراطيّ والراديكالية اليسارية الخاوية) خطأً بذاته، أفلا يرقى الجمع بين الاثنين (الادّعاء بأنّه يتعيّن علينا تكتيكياً دعم بايدن رغم معرفتنا أنّ سياسته لن تفلح) إلى تلاعب خبيث؟ وفقاً لهذا لا نزال رسمياً داخل النظام لكنّنا في الواقع نتابع أهدافنا الأكثر غموضاً وتطرًّفا. غير أنّ حقيقة موقف مثل هذا عادةً ما تكون عكسه: نعتقد أنّنا نتابع هدفاً متطرًّفا خفياً، لكنّنا في الواقع نتكيّف تماماً مع النظام، أو كما يقول دوين روسيل Duane Rousselle: ”هذه المحاولة البراغماتية للحفاظ على الأهمية – للبقاء في مجال التأثير داخل الحزب الديموقراطي – هي تحديداً ما يجب علينا مساءلته“[123]. ورغم ذلك، لا أعتقد في الحقيقة أنّ إستراتيجية دعم بعض تدابير بايدن تتضمّن تلاعباً خبيثاً ولا أنّها تقتضي بالضرورة أن نظلّ عالقين داخل النظام. في إمكاننا دعم بعض تدابيره بطريقة ”صادقة“ تماماً ولكن بافتراض أنّها لا تمثّل إلّا الخطوة الأولى التي ستفضي بالضرورة إلى خطوات أخرى. هذه هي الحال لأنّ النظام العالميّ القائم لا يمكنه تحمّل هذه التدابير من دون خطوات جذرية إضافية، فإن كان إنفاق مليارات مثلاً على مكافحة الجائحة سيسفر عن أزمة مالية، فسيكون هنالك ضرورة لمزيد من التدابير الجذرية في مجال الرقابة المالية، وكلّ ما علينا فعله هو الإصرار على هذه التدابير لفرض تحقّقها بالكامل.

[123] اتصال شخصي مع دوين روسيل.

إذاً لماذا كِلا طرفَي النزاع أسوأ من بعضهما بعضاً؟ يكمن جوهر المسألة في لوم ”الماهويّة الطبقية“ التي تخطئ في اعتقادي هدفها. الحريّ بنا بالطبع التخلي عن العبارة المبتذلة الماركسية القديمة القائلة إن نضال العمال هو النضال ”الحقيقيّ“ الوحيد، وينبغي وفقها للنضالات الأخرى جميعها (البيئيّ وتصفية الاستعمار والتحرّر الوطنيّ والنسويّ والمناهض للعنصرية وغيرها) أن تنتظر ويُتوقع أن تُحلّ تلقائياً إلى

هذا الحدّ أو ذاك حالما نظفر بالنضال الأكبر. ولكن أكثر من ذلك أحاجج في أنّه يتعيّن علينا أن نقبل بالكامل "الماهويّة الطبقية" بشرط أن نستخدم مصطلح "الماهيّة" بالمعنى الهيغلي الصارم. ورغم أنّ ماو تسي تونغ لم يفهم حقاً جدل هيغل (انظر هجومه السخيف على نفي النفي)، فإنّ مساهمته الأساسية في الفلسفة الماركسية – توضيحاته بشأن مفهوم التناقض – هي على مستوى مفهوم هيغل عن الماهيّة، فالأطروحة الأساسية في نصه الرائع *On Contradiction* [**في التناقض**] التي تميّز بين "التناقضات الرئيسية وغير الرئيسية في عملية ما، والأطراف الرئيسية وغير الرئيسية لتناقض ما" تستحق قراءة متمعّنة. يتمثّل توبيخ ماو "للماركسيين أصحاب الجمود العقديّ" في أنّهم "لا يفهمون أنّه في خصوصية التناقض تكمن تحديداً عموميّته"، فيكتب:

> ففي المجتمع الرأسماليّ على سبيل المثال، تشكّل القوتان المتناقضتان – البروليتاريا والبرجوازية – التناقض الرئيسيّ، أمّا التناقضات الأخرى كالتناقض بين الطبقة الإقطاعية المتبقية والبرجوازية، والتناقض بين برجوازية الفلاحين الصغيرة والبرجوازية، والتناقض بين البروليتاريا وبرجوازية الفلاحين الصغيرة، والتناقض بين الرأسمالية غير الاحتكارية والرأسمالية الاحتكارية، والتناقض بين الديموقراطية البرجوازية والفاشية البرجوازية، والتناقض بين البلدان الرأسمالية نفسها، والتناقض بين الإمبريالية والمستعمرات، فيقرّرها جميعاً ذلك التناقض الرئيسيّ أو يؤثّر فيها. عندما تشنّ الإمبريالية حرباً عدوانية على بلد مثل هذا البلد، يمكن لمختلف طبقاته – باستثناء حفنة من الخونة –تتحد مؤقّتا كي تخوض غمار حرب وطنية ضدّ الإمبريالية، وحينئذٍ يصبح التناقض بين الإمبريالية وذلك البلد هو التناقض الرئيسيّ، في حين تصبح مؤقّتا التناقضات جميعها بين مختلف الطبقات داخل ذلك البلد (بما فيها التناقض الرئيسيّ بين النظام الإقطاعيّ وجماهير الشعب الغفيرة) في مركز ثانويّ وتابع.[124]

124 Mao Tse-Tung, *On Practice and Contradiction* (London: Verso Books, 2010), p. 87.

هذه هي فكرة ماو الرئيسية: التناقض الرئيسيّ (العموميّ) لا يتداخل مع التناقض الذي يجب أن يُعامل بوصفه مهيمناً في وضع خصوصيّ؛ يكمن البُعد العموميّ حرفياً في هذا التناقض الخصوصيّ. في كلّ وضع بعينه، يُعَدّ التناقض المهيمن تناقضاً

"خصوصياً" مختلفاً، بالمعنى الدقيق أنّه من أجل الانتصار في معركةِ حلِّ التناقض الرئيسيّ فلا بدّ من معاملة تناقض خصوصيّ بوصفه تناقضاً مهيمناً إذ تكون الصراعات الأخرى كافّة تابعة له. ففي الصين الخاضعة للاحتلال اليابانيّ، وجب أن تكون الوحدة الوطنية في مواجهة اليابانيين هي الأمر المهيمن إذا ما أراد الشيوعيون الظفر بالنضال الطبقيّ، وكان أيّ تركيز مباشر في هذه الشروط على النضال الطبقيّ يتعارض مع النضال الطبقيّ نفسه. ربما تكمن هنا السمة الرئيسية "لانتهازية أصحاب الجمود العقائديّ": الإصرار على مركزية التناقض الرئيسيّ في لحظة مخطئة. يمكننا أن نرى فوراً كيف ينطبق هذا المفهوم على تعدّدية النضالات حالياً. تعني "الماهويّة الطبقية" اليوم معاملة النضال الطبقيّ ليس بوصفه ماهيّة ثابتة وإنّما بوصفه مبدأ فوق مقرِّر ينظِّم التفاعل الديناميّ بين نضالات متعدّدة. اليوم في الولايات المتحدة على سبيل المثال، لا يمكن التحدّث عن النضال الطبقيّ دون استحضار ما يتعرّض له السود من اضطهاد واستغلال. فالتركيز على النضال الطبقيّ "الصرف" بمعزل عن العِرق يخدم في نهاية المطاف الاضطهاد الطبقيّ.

قدّم موريزيو لازاراتو Maurizio Lazzarato أخيراً حجّة ضدّ "الماهويّة الطبقية"[125] يشير فيها إلى شعار الناشطة النسوية الإيطالية كارلا لونزي Carla Lonzi: "لنبصق على هيغل". يشدّد نصّ إبداعيّ من نصوص النسوية الإيطالية، *Sputiamo su Hegel* [لنبصق على هيغل] للونزي (1970)،[126] على الطابع الأبويّ لجدل هيغل ونظرية الاعتراف ويوسِّع نطاق هذا النقد الضاري لهيغل وصولاً إلى الماركسية. إلى جانب تركيز لونزي على الإنتاج والتنظيم الاجتماعيّ الهرميّ والسلطة، إن موقعها السياسيّ في شكل حزب يمثّل قاعدتها، ونقدها يختلف مع النظرة الماركسية للتاريخ بوصفه تقدُّما جدلياً على مراحل، إذ "يُحتجز" السود والنساء في "المراحل" الدنيا ولا تتمكّن النساء في نهاية المطاف من إحراز وعي الذات إلّا إذا التحقن بالمنطق الإنتاجويّ الذكوريّ.[127] ترفض لونزي هذه الرؤية بمجملها بوصفها لا تتوافق مع ثورة أصيلة؛ "تمثّل العملية الثورية قفزة، انقطاعاً غير جدليّ في تسلسل التاريخ سينفتح على ابتكار واكتشاف شيء لم يكن التاريخ يحتويه"[128].

125 انظر:

Maurizio Lazzarato, *Capital Hates Everyone: Fascism or Revolution*, trans. Robert Hurley (South Pasadena, CA: Semiotext(e), 2021).

126 متاح على الرابط:

http://blogue.nt2.uqam.ca/hit/files/2012/12/Lets-Spit-on-Hegel-Carla-Lonzi.pdf
127 Lazzarato, Capital Hates Everyone, p. 221.

128 المرجع نفسه، ص. 222.

فكرة لازاراتو هنا لا تعني أنّه يجب رفض الرؤية الماركسية ببساطة وإنّما أنّ نضال العمال والنضال النسويّ يخضعان لمنطقين مختلفين. وفقاً لتفسير لازاراتو للنقد النسويّ "لمركزية علاقات القوّة وعموديتها في 'الحزب'"، لا بدّ أن تبتكر المرأة ديموقراطيةً راديكاليةً كي تصبح موضوعاً سياسياً مستقلاً.[129] في وسع علاقات جديدة – أفقية وغير هرمية – توفير أساس لوعي جمعيّ خاصّ بالمرأة؛ "إنّ مفهوم وممارسة 'التمثيل' والتفويض غائبان ما دامت المشكلة لا تكمن في الاستيلاء على السلطة ولا إدارتها"[130]. ينبغي أن تتخلّى المرأة عن "وعود التحرّر بالعمل وبالصراع على السلطة التي تُعَدّ قيماً للثقافة الأبوية (والحركة العمالية). لا تطالب الحركة النسوية بأيّ مشاركة في السلطة ولكنّها على العكس تماماً تطالب بإدراج مفهوم السلطة والاستيلاء عليها في النقاش"[131].

129 المرجع نفسه، ص. 218.
130 المرجع نفسه، ص. 218.
131 المرجع نفسه، ص. 222.

لازاراتو على بيّنة من شِراك الماهويّة النسوية أو المناهضة للاستعمار. في حالة الماهويّة المناهضة للاستعمار "يصبح العدو أوروبا بحدّ ذاتها؛ تختفي الرأسمالية تحت غطاء الانقسام العرقيّ. ستشهد هذه الالتباسات تكراراً مؤسفاً في التفكير ما بعد الاستعماريّ لأنّ الثورة ستُلغى بالكامل"[132]. إذاً، ينبغي ألّا تَحلّ الماهويّة النسوية ببساطة محلّ الماهويّة الطبقية (حيث يكون اضطهاد النساء الشكل الأساسيّ للاضطهادات كافّة) أو الماهويّة المناهضة للاستعمار (الاستغلال والهيمنة الاستعماريين بوصفهما مفتاحاً لاستغلال الآخرين جميعاً والهيمنة عليهم). يؤكّد لازاراتو بالأحرى تعدّدية النضالات التحرّرية غير القابلة للاختزال وترداد الصدى بينها. الحريّ بنا هنا الاستشهاد بالمؤلفين المجهولين لكتاب *The Coming Insurrection* [التمرّد القادم]: "الحركات الثورية لا تنتشر بالعدوى بل بترداد الصدى/ شيء ما يتشكّل هنا بترديد صدى موجة الصدمة المنبعثة من شيء تشكّل هناك..."[133].

132 المرجع نفسه، ص. 221.

133 The Invisible Committee, *The Coming Insurrection* (South Pasadena, CA: Semiotext(e), 2009), p. 12.

كيف يحدث ترداد الصدى هذا بين النضال النسويّ ونضال العمال؟ هل يعلق نضال العمال بالضرورة في نموذج الإنتاجوية المتّسم بالمركزية؟ أم أنّ في وسع شكل النسوية المتّسمة باللامركزية أن تردّد صداها فيه؟ وهل في وسع النسوية المعاصرة أن تتلاءم حقاً مع معاداةٍ للاستعمار تحترم التقاليد السابقة للحداثة لتشكيل جبهة موحَّدة ضدّ التنظيم والإنتاج الحديثين؟ أليس صحيحاً بالأحرى أنّه ليس للنسوية الحديثة علاقة بالنماذج السابقة للحداثة لكنّها معادية لها بثبات؟ غير أنّ السؤال الأساسيّ هنا هو: هل التناحر الطبقيّ هو في الواقع مجرد تناحر في سلسلة من ضروب التناحر؟

هنالك دعابة طريفة من ألمانيا تحكي عن نقاش يجري بين تقدّمي هوياتيّ (identitarian) وماركسيّ: يقول الهوياتيّ: "نوع اجتماعيّ" فيردّ الماركسيّ: "طبقة". يقول الهوياتيّ: "نوع اجتماعيّ، عِرق" فيردّ الماركسيّ: "طبقة، طبقة". يقول الهوياتيّ: "نوع اجتماعيّ، عِرق، طبقة" فيردّ الماركسيّ: "طبقة، طبقة، طبقة"... رغم أنّه يُفترض بالدعابة أن تسخر من موقف الماركسيّ لكنّه محقّ في الواقع؛ تتمثّل الحقيقة في تكرار قوله في أنّ الطبقة (النضال الطبقيّ) تحدّد بلا نقاش مجمل الهويات الاجتماعية.[134] عندما يقول هوياتيٌّ: "هوية إثنية"، يحلل ماركسيّ كيف أنّ النضال الطبقيّ يتخلّل هذه الهوية، وكيف أنّها تُدرج في الكلّ الاجتماعيّ وتُستبعد منه، وما الامتيازات والمعوقات التي تواجهها (المهن وفرص التعليم المفتوحة لها أو المغلقة عليها) وما شابه. بالمثل، إنّ تحليلَ ماركسيٍّ لاضطهاد النساء ينظر في كيف أنّ إعادة الإنتاج الرأسمالية في بلد ما يعتمد على عملهن غير المأجور وإلى أيّ مدىً يُديم تموضعهنّ في عملية التنشئة الاقتصادية والاجتماعية حريتهنّ واستقلاليتهنّ أو يحول دونها، وإذا ما كانت أجزاءٌ من النضال النسويّ التي تهيمن عليها قيم الطبقة الوسطى هي نسويةً حقاً.

134 أدين بهذه الدعابة، وكذلك مجمل هذا المسار من التفكير، إلى محادثة مع أرنو فرانك Arno Frank.

يُهدر هذا الدور الخاص من النضال الطبقيّ عندما تُختزل الطبقة العاملة بمجموعة اجتماعية من بين مجموعات اجتماعية أخرى لا بدّ من حماية هويتها. في وسع المرء أن يشهد في ألمانيا وبلدان أخرى الظهور الحديث لمفهوم غامض يُدعى "نزعة طبقية"، وهو أساساً نسخة طبقية عن سياسة الهوية. يتعلّم العمال أن يحموا

ويعزّزوا ممارساتهم الثقافية الاجتماعية واحترام الذات، مؤكّدين وعيهم بالدور الحاسم الذي يؤدّونه في التنشئة الاجتماعية. إذاً تصبح حركة العمال عنصراً آخر في سلسلة الهويات، على غرار إثنية بعينها أو توجّه جنسيّ بعينه. مثل هذا "الحلّ لمشكلة العمال" هو ما يميّز الفاشية والشعبوية وهو يسبغ الاحترام على العمال ويعترف بأنّهم يتعرضون في كثير من الأحيان للاستغلال وكذلك يُعرب عن رغبته (غالباً بصدق) في تحسين أوضاعهم ضمن شروط النظام القائم. لقد دعا ترامب بوضوح على سبيل المثال إلى حماية العمال في الولايات المتحدة من المصارف والمنافسة الصينية المجحفة.

يتمثّل آخر مثال في ميدان السينما عن "نزعة طبقية" مثل هذه في فيلم Nomadland [أرض الرُحَّل] (كلوي جاو Chloe Zhao، 2020) الذي يصوّر الحياة اليومية "للبروليتاريا المترحلة" في بلدنا: عمال ليست لديهم بيوت دائمة يعيشون في عربات مقطورة ويتنقلون في الجوار من عمل مؤقّت إلى آخر، ويُعرَضون كأشخاص محترمين مفعمين بالطيبة العفوية وتضامن واحدهم مع الآخر، ويقطنون عالمهم الخاص المكوّن من عادات وتقاليد محدودة، ويتمتّعون بسعادتهم المتواضعة (حتّى العمل الموسميّ في مركز تعبئة وتغليف سلع شركة Amazon يمضي على خير ما يرام...) على هذا النحو، تودّ أيديولوجيتنا المهيمنة رؤية العمال. لا عجب في أنّ الفيلم كان الفائز الأكبر في جوائز الأوسكار الأخير. ورغم أنّ حياة الناس المصوّرة أميَل إلى البؤس، فالفيلم يدفعنا للاستمتاع بالتفاصيل الساحرة لطريقة عيش العمال الخاصة إذ كانت الرسالة الضمنية: تمتّعوا بأن تكونوا بروليتاريا مترحّلة!

ما يحدّد هويّة حركة العمّال الأصيلة هو على وجه التحديد رفض أن تكون عنصراً في سلسلة الهويات. التقيت في الهند ممثّلين عن الفئة الأدنى في الطبقة المغلقة الأدنى للمنبوذين: منظفو المراحيض الجافة. سألتهم عن المنطلق الأساسيّ في برنامجهم وما الذي يريدونه؟ فكان ردّهم الفوريّ: "نحن لا نريد أن نكون أنفسنا، ما نحن عليه". نجد هنا حالةً مثاليةً لما أطلق عليه هيغل وماركس: "التصميم المعارِض": التناحر الطبقيّ الجامع الذي يتخلّل المجال الاجتماعيّ بأسره ويجد نفسه واحداً من أنواعه في طبقة العمال الذين – وفقاً لجاك رانسيير Jacques Rancière – هم "جزء من لا جزء" من الجسد الاجتماعيّ الذي يُفتقر فيه إلى مكان ملائم، أي تناحرٌ مجسّد.

إذاً ما الذي يعنيه الصراع الطبقيّ في الهند في أيار/ مايو 2021، حيث سجّل عدد الإصابات اليومية الجديدة بكورونا في البلد رقماً قياسياً؟ أروونداتي روي Arundhati Roy محقّة في قولها إنّنا في الهند "نشهد جريمة ضدّ الإنسانية"[135]. لكنّ الدرس هنا ليس مجرّد درس إنسانيّ إذ ينبغي لنا أن ننسى الصراعات السياسية ونواجه بقوانا كافّة الكارثة الصحية، وعلينا كي نواجه الكارثة الصحية بكلّ قوّة إدخال كثير من أطراف الصراع الطبقيّ على الصعيدين العالميّ والمحليّ. لم نسمع إلّا حالياً – بعدما فات الأوان بالفعل – دعوات إلى البلدان المتقدّمة لمساعدة الهند. غالباً ما يعمل التضامن الدوليّ على شاكلة الزوج الذي يُضرب به المثل بأنّه ينتظر قيام زوجته بأعمال المطبخ ثمّ يعرض عليها بسخاء – عندما يتأكد أنّ عملها شارف على الانتهاء – مدّ يد العون. أُعلن أنّ الهند هي "صيدلية العالم" لتصديرها الأدوية، لكن الآن وقد أصبحت محتاجةً يواصل الغرب المتقدّم نزعة قومية في التعامل مع الجائحة بدلاً من تعبئة "شيوعية" شاملة وإسعافية لاحتواء الجائحة هناك. كذلك علينا أن نعترف بالأسباب الداخلية الواضحة: إنّ الهند "أنقذت العالم – البشرية بأسرها – من مأساة كبرى نتيجة سيطرتها الفعّالة على كورونا"، كما تباهى رئيس الوزراء مودي Modi في كانون الثاني/ يناير.[136] غير أنّ سياساته ذات النزعة القومية لم تتجاهل من الناحية الجنائية التحذيرات من مخاطر موجة جديدة من الإصابات فحسب، بل إنّه واصل هجومه المعادي للمسلمين (ضمن اللقاءات الانتخابية العلنية الكبيرة)، وهكذا أضاعت الهند فرصة فريدة لحشد تضامن إسلاميّ-هندوسيّ في مكافحة الجائحة.

[135] Arundhati Roy, "'We Are Witnessing a Crime Against Humanity': Arundhati Roy On India's Covid Catastrophe," *The Guardian*, April 28, 2021, https://www.theguardian.com/news/2021/apr/28/crime-against-humanity-arundhati-roy-india-covid-catastrophe

[136] Julia Hollingsworth, "Prime Minister Narendra Modi Could Have Prevented India's Devastating Covid-19 Crisis, Critics Say. He Didn't," CNN, May 1, 2020, https://edition.cnn.com/2021/04/30/india/covid-second-wave-narendra-modi-intl-hnk-dst/index.html

ولكن ألا ينطبق الأمر عينه على الاتجاه المعاكس؟ ألا تتخلّل التوتّرات الجنسية والعرقية التناحرَ الطبقيّ أيضاً؟ علينا أن نرفض هذا الحلّ لسبب محدّد: هنالك فارق شكليّ بين التناحر الطبقيّ وضروب التناحر الأخرى. في حالة ضروب التناحر في العلاقات القائمة بين الجنسين والهويات الجنسية، لا يهدف النضال من أجل التحرّر إلى القضاء على بعض الهويات وإنّما في خلق شروط تعايشها الودّي، وينطبق الأمر

عينه على التوتّرات بين الهويات الإثنية أو الثقافية أو الدينية؛ يتمثّل الهدف في تحقيق تعايشها السلميّ الاعترافَ والاحترام المتبادلين في ما بينها. أمّا الصراع الطبقيّ، فلا يعمل بهذه الطريقة، إذ إنّه لا يهدف إلى الاعتراف والاحترام المتبادلين إلّا في نسخه الفاشية أو النقابوية. الصراع الطبقيّ تناحرٌ "محض": إنّ هدف المضطهَدين والمستغَلين هو القضاء على الطبقات بحدّ ذاتها وليس المصالحة في ما بينها.[137] هذا هو السبب في أنّ الصراع الطبقيّ "يردّد صداه" في صراعات أخرى بطريقة مختلفة عن تلك التي تردّد فيها تلك الصراعات صداها فيه، فهو يُدخل في الصراعات الأخرى عنصراً من التناحر اللدود.

137 ثمّة مشكلتان أخريان لا بدّ من معالجتهما هنا: التناحر الجنسي والسلطة. أرى أنّ التناحر الجنسي مقوّم من مقوّمات الجنسانية، أي لا سبيل لإظهار علاقة جنسية غير تناحرية، وأنّ علاقات القوّة والهيمنة تسبق التمييز الطبقي ولا يمكن اعتبارها أحد آثار الاستغلال الاقتصادي. فقد ظهر النظام الأبوي والهيمنة الاجتماعية في وقت سابق، مع صعود مجتمعات العصر الحجري الحديث، وغفل ماركس عن أهمية هذا الانقطاع.

هكذا نتبيّن الآن السبب في أنّ كلا الطرفين، في النزاع بين كورتيز والاشتراكيين الديموقراطيين الراديكاليين، مخطئان رغم أنّ كلاً منهما مصيب في مواجهة الآخر. ما يشترك به الطرفان هو خطر الوقوع في الانتهازية: انتهازية نفعية من جانب (خطر الوقوع في الفضاء المهيمن والعمل كملحق "راديكاليّ" له)، وانتهازية مبدئية من جانب آخر (خطر رفض أيّ مشاركة كحلّ وسط وانتقاد الواقع بهذه الطريقة من مسافة آمنة). ما يفوت كلا الطرفين هو الوحدة الجدلية الصحيحة للنظرية والممارسة التي لا تسوّغ فيها النظرية تدابير محدّدة فحسب، بل تُشرعن لنا أيضاً التدخّل "عشوائياً" في وضع لا يتّسم بالشفافية، ما يجعلنا ندرك أنّ ذلك الوضع قد يتغيّر بطريقة غير متوقّعة نتيجة تدخّلنا. وكما قال ماكس هوركهايمر منذ عقود، وهو ما ينبغي أن يكون شعار اليسار الراديكاليّ الحقيقيّ: "تشاؤمٌ في النظرية، تفاؤلٌ في الممارسة".

30
”علينا أن نحيا إلى أن نموت“: ما الذي في وسع فرقة Rammstein قوله بشأن الحياة في أثناء الجائحة؟

تتمثّل عيّنة من الحكمة التي تُتحفنا بها وسائل الإعلام في أنّ الجائحة لمرض كورونا أحاطتنا علماً بحالات الطوارئ في حياتنا وبأخلاقياتنا وحدودنا البيولوجية. مفاد الرسالة أنّ علينا التخلي عن أحلامنا بالسيطرة على الطبيعة وقبول موقعنا المتواضع فيها. أهنالك عبرة أكثر مرارة من التعرّض للإذلال وجعلنا شبه عاجزين بسبب فيروس، وبسبب آلية تكاثر ذاتيّ بدائية لا يراها بعض علماء الأحياء حتّى شكلاً من الحياة؟ إذاً لا عجب في انتشار الدعوات إلى أخلاقيات تواضع جديدة وتضامن عالميّ... لكن أيكون هذا هو الدرس الصحيح الذي تقدّمه الجائحة؟ ماذا لو كانت مشكلة عيشنا في الجائحة مشكلةً معاكسة تماماً: ليس الموت بل الحياة، حياة غريبة تستمرّ، ولا تتيح لنا العيش بسلام ولا الموت بسرعة؟

ما الموقف الذي ينبغي لنا اتّخاذه إزاء الحياة في مأزقٍ مثل المأزق الذي ألمّ بنا؟ ربما تشير أغنية ”Dalai Lama“ [الدالاي لاما] لفرقة Rammstein إلى الإجابة الصحيحة. تستند الأغنية على نحو غامض إلى قصيدة ”Der Erlkönig“ (ملك العفاريت) لغوته Goethe، وهي قصيدة تحكي لنا عن أب وابن يمتطيان حصاناً عندما تبدأ الريح تنويم الصبيّ، وفي نهاية المطاف، يموت الصبيّ. أمّا الصبيّ في الأغنية، فهو في رحلة جوية مع والده. وكما الحال في القصيدة، تُهدهد المسافرين روحٌ غامضة ”تدعو“ الطفل إلى الانضمام إليها (رغم أنّ الصبيّ وحده يستطيع سماع دعوة الروح)، لكنّ الأب المذعور في القصيدة يمتطي الحصان طلباً للمساعدة وهو يحمل الصبيّ بين ذراعيه، ليجد أنّ ابنه قد مات. أمّا في أغنية Rammstein، فالأب نفسه يتسبّب في موت الصبيّ... ما علاقة هذا كلّه بالدالاي لاما؟ لا تسخر الأغنية من خوف الدالاي لاما الحالي من الطيران فحسب، لكنّ كلمات الأغنية تُظهر ارتباطاً أكثر حميمية بجوهر التعاليم البوذية. يتردّد صدى خوف الدالاي لاما من الطيران

بطريقة غريبة في شخصية الرب: ”لا مكان للإنسان في الهواء، ولذا يدعو الربّ في السماء أبناءه في الريح“ لإحداث اضطراب شديد سيتسبّب في موت الصبيّ. ولكن كيف؟ ليس بتحطيم الطائرة فحسب، بل كذلك بمطاردة روح الصبيّ مباشرة: ”جوقة تهطل من الغيوم/ تتسلّل إلى الأذن الصغيرة/ تعالَ إلى هنا، ابقَ هنا/ سنُحسن معاملتك/ نحن إخوتك“. لم يكن صوت الشيطان صرخةً وحشية بل همساً رخيماً حنوناً.

هذا الإبهام حاسمٌ: تُضاعف التهديد الخارجيّ الصريح جوقة من الأصوات المغوية لا يسمعها إلّا الصبيّ. يقاوم الصبيّ إغواءَ الاستسلام لهذه الأصوات، لكنّ الأب يضمّه بقوّة لحمايته من غير أن يلاحظ تقطّع أنفاسه وهكذا ”يدفع روح الصبيّ للخروج من جسده“ (لاحظوا النهاية المبهمة للأغنية: لا تقول الكلمات أبداً إنّ الطائرة سقطت فعلاً. لا تذكر سوى حدوث اضطراب شديد). يريد الأب (من الواضح أنّه يمثّل الدالاي لاما) حماية ابنه من تهديدٍ (اضطراب) واقعيٍّ خارجيّ، لكنّه من فرط حمايته لابنه يقتله. ثمّة تطابق أعمق هنا بين الدالاي لاما و”ملك الرياح“. يتمثّل الإيحاء الواضح في أنّ الحماية البوذية من الألم والمعاناة تُميتنا، وتستبعدنا من الحياة. إذاً، مفاد رسالة أغنية ”الدالاي لاما“– باستخدام العبارة الساخرة الشهيرة المقتبسة من الأبيات الأولى[138] من النشيد الوطنيّ لجمهورية ألمانيا الديموقراطية – هو فعلياً: “Einverstanden mit Ruinen / Und in Zukunft abgebrannt” (”توافقوا مع الركام/ واحرقوه في المستقبل“)[139].

[138] العبارة الأصلية في النشيد: ”انهضوا من الركام/ وتوجهوا نحو المستقبل“. (م.)

[139] Roberto de la Puente, “Einverstanden mit Ruinen (Agree with Ruins),” paperblog, originally published December 11, 2012, https://de.paperblog.com/ einverstanden-mit-ruinen-472883/

رغم ذلك تضفي الأغنية على هذه الحكمة التشاؤمية النمطية انعطافاً إضافياً يتمثّل في اللازمة المركزية في الأغنية: ”Weiter, weiter ins Verderben / Wir müssen leben bis wir sterben“ (”إلى مزيد من الخراب/ علينا أن نحيا إلى أن نموت“). هذا ما دعاه فرويد ”دافع الموت“ في أنقى صوره، ليس الموت نفسه وإنما حقيقة أنّ علينا أن نحيا إلى أن نموت، هذه الإطالة اللانهائية للحياة، هذا الدافع القهريّ اللانهائي للتكرار. اللازمة هي ما تُدعى بالفرنسية lapalissade (حكمة مكرورة فارغة مثل ”قبل لحظة من وفاة السيد لا باليس، كان لا يزال حياً“). لكنّ

فرقة Rammstein تلتفّ على الحكمة الواضحة: "مهما طال عمرك، ففي النهاية ستموت"، وتُحلّ محلّها: "إلى أن تموت، عليك أن تحيا". ما لا يجعل نسخة الفرقة تكراراً فارغاً هو البُعد الأخلاقيّ: قبل أن نموت لسنا مجرّد أحياء (بالطبع)، فعلينا أن نحيا. الحياة بالنسبة إلينا نحن البشر قرارٌ، التزامٌ إيجابيّ، إذ يمكننا أن نفقد إرادة العيش.

هذا الموقف "علينا أن نحيا إلى أن نموت" هو الموقف الصحيح الواجب علينا أن نعتمده اليوم بما أنّ الجائحة تذكّرنا جميعاً بمحدوديتنا وفنائنا، وكيفية اعتماد حياتنا على تفاعل مبهم بين (ما يبدو لنا) حالات طارئة. المشكلة الحقيقية كما نختبرها يومياً تقريباً لا تكمن في أنّنا قد نموت وإنّما في أنّ الحياة تستمرّ في حالة من عدم اليقين وتتسبّب في إحباط دائم وفقدان إرادة المضيّ قُدُماً. يجعلنا الافتتان بكارثة شاملة ونهاية حضارتنا مُشاهدين يتمتّعون مَرَضياً بتلاشي الحياة الطبيعية. غالباً ما يغذّي إحساسٌ زائفٌ بالذنب (الجائحة بوصفها عقاباً على طريقة عيشنا الفاسدة، وما شابه) هذا الافتتانَ. أمّا مع بشائر اللقاح وانتشار متحوّرات جديدة للفيروس، فنحن نعيش في حالات إغلاق مؤجّلة إلى ما لا نهاية. لاحظوا كيف يتغيّر الإطار الزمنيّ للمَخرج: في الربيع، تحدّثت السلطات في أحيانٍ كثيرة عن تطوّرات من حيث تغيّرات طفيفة مقدارها أسبوعان ("بعد أسبوعين، من المفترض أن يصبح الوضع أفضل")، ثمّ في خريف 2020، أصبحت شهرين، ثم تُقارب نصف عام (في صيف 2021، أو ربما بعد ذلك، ستبدأ الأمور في التحسّن). سُمعت أصوات أخرى ترجئ بالفعل نهاية الجائحة إلى 2022 وحتّى 2024... كلّ يوم يحمل أخباراً: اللقاحات فعّالة على متحوّرات جديدة، أو ربما ليست كذلك. لم يكن اللقاح الروسيّ Sputnik V فعّالا في البداية لكنّه يبدو كذلك الآن. هنالك تأخيرات كبيرة في إمدادات اللقاح لكنّ معظمنا سيتلقى اللقاح بحلول الصيف... من الواضح أنّ هذه التذبذبات التي لا تنتهي تولّد لذّاتها الخاصة التي تيسّر علينا النجاة من بؤس حياتنا أيضاً.

كما الحال في أغنية "الدالاي لاما"، يُمثّل مرض فيروس كورونا الاضطراب الذي مزّق حياتنا اليومية. ما الذي أثار غضب آلهة اليوم؟ لقد شعروا بالإهانة من تلاعباتنا في مجال الوراثة الحيوية وتدميرنا البيئة. ولكن من الدالاي لاما في واقعنا؟ بالنسبة إلى كثيرٍ من أولئك الذين يحتجون على الإغلاق والتباعد الاجتماعيّ، يتمثّل الدالاي لاما الذي يتظاهر بحمايتنا لكنّه في الواقع يخنق حرياتنا الاجتماعية في جوهر

الإجراءات الوقائية التي تُنفّذ لمكافحة الجائحة. نَظَم جورجيو أغامبين حديثاً قصيدة قصيرة بعنوان "Si è abolito l'amore" [لو أُلغي الحب]، توضّح موقفه من هذه الإجراءات:[140]

[140] Giorgio Agamben, "Si è abolito l'amore," Quodlibet, November 6, 2020, https://www.quodlibet.it/giorgio-agamben-si-bolito-l-amore

لو أُلغي الحب/ باسم الصحة/ فالصحة ستلغى أيضاً.
لو أُلغيت الحرية/ باسم الطب/ فالطب سيلغى أيضاً.
لو أُلغي الإله/ باسم العقل/ فالعقل سيلغى أيضاً.
لو أُلغي الإنسان/ باسم الحياة/ فالحياة ستلغى أيضاً.
لو أُلغيت الحقيقة/ باسم المعلومة/ فلن تلغى المعلومة.
لو أُلغي الدستور/ باسم حالة الطوارئ/ فلن تلغى حالة الطوارئ.

كلّ شيء مغلوط بصدد هذه المتحوّرات بالحكمة عينها. أوَّلا، التوقعان الأخيران مخطئان: لو أُلغيت الحقيقة، فستلغى المعلومة أيضاً لأنّ المعلومة لا تعمل إلّا على خلفيةِ حقيقة، على خلفية أفق يحدّد كيفية فهم المعلومة. ولو أُلغي الدستور، فستلغى حالة الطوارئ أيضاً لأنّ حالة الطوارئ لن تعود طوارئ وإنّما حالة طبيعية جديدة. ثانياً تناظُر الأبيات الأربعة الأولى زائف: الحب بمعناه الأصليّ غير صحيّ، مثلما يشكّل الوقوع في الحب رضًّا مؤلماً يُخلّ بتوازن حياتنا اليومية. إذاً الحب نفسه هو الذي يلغي الصحة قبلاً. لو أُلغي الطب باسم الحرية، فالحرية الوحيدة المتبقية هي حرية الموت. الإله والعقل: أيّ عقل؟ هنالك تصوّر للعقل لا يحتاج إلهاً لكنّه بعيد عن الحتمية الطبيعانية العامّة. فكّروا فحسب في الفيزياء الكَمّية... وأيّ إله؟ كتب أغامبين: "ما الذي سيكونه إله لا تُوجّه إليه الصلوات والتضحيات؟" علينا بوصفنا من أتباع لاكان أن نقلب السؤال: ما الذي ستكونه تضحية لا توجّه إلى إله؟ أهنالك تضحية لا تفترض قبلاً شخصية الآخر المتعالي؟ مرّة أخرى، إجابة لاكان هي: بلى، إنّها التضحية التي تُدعى "الإخصاء الرمزيّ"، تضحية هي بحدّ ذاتها فعل إيجابيّ، إيماءة تفسح المجال أمام سَعة عيش جديدة. وأخيراً الإنسان والحياة: ألا يكمن الخطر اليوم بالأحرى في إلغاء الحياة باسم الإنسان، باسم تصوّر بعينه عن حرية الإنسان وكرامته (مثل أخلاقيات الحرب) يمكن أن يؤدّي إلى تدمير ذاتيّ كلّيّ؟

سأعبّر عن حجتي المضادة بصيغة أغامبين: ”لو أَلغي الطب باسم الحرية، فستُلغى الحرية أيضاً. لو أُلغيت الحياة باسم الإنسان، فسيُلغى الإنسان أيضاً“.

تُحدّد عبارة Rammstein ”علينا أن نحيا إلى أن نموت“ مَخرجاً من هذا المأزق: مكافحة الجائحة ليس بالانسحاب من الحياة وإنّما بالعيش بمنتهى القوّة. أهنالك من هو أكثر حياة اليوم من ملايين العاملين في مجال الرعاية الصحية الذين يخاطرون بوعيٍ كامل بحيواتهم يومياً؟ لقد لقي كثيرون منهم حتفهم لكنّهم ظلّوا أحياءً إلى أن وافتهم المنية. لا يقتصر الأمر على أنّهم يضحّون بأنفسهم من أجلنا، بل إنّهم حتّى أقلّ من أجهزة إبقاء على الحياة اختُزلت بحياة عارية. إنّهم اليوم أولئك الأكثر حياةً من غيرهم.

31
بيانٌ أوروبيّ

لا يزال بعضنا يتذكّر المطلع الشهير لكتاب *The Communist Manifesto* [**البيان الشيوعيّ**]: ”شبح يطارد أوروبا، شبح الشيوعية. ضدّ هذا الشبح اتحدت قوى أوروبا العجوز كلّها في حلف مقدّس: البابا والقيصر، مترنيخ Metternich وغيزو Guizot، الراديكاليون الفرنسيون وجواسيس الشرطة الألمانية...“. ألا يمكننا استخدام الكلمات عينها لوصف وضع ”أوروبا“ في التصوّر العام ليومنا هذا؟ شبحٌ يطارد العالم، شبحُ المركزية الأوروبية. ضدّ هذا الشبح اتحدت قوى أوروبا العجوز كلّها والنظام العالميّ الجديد في حلف مقدّس: بوريس جونسون وبوتين، سالفيني Salvini وأوربان، مناهضو العنصرية المؤيدون للمهاجرين وحُماة القيم الأوروبية، التقدّميون الأميركيون من أصول لاتينية والرجعيون العرب، صهاينة الضفة الغربية والشيوعيون الصينيون ”الوطنيون“...

لكلٍّ من معارضي أوروبا صورته الذهنية الخاصة عن أوروبا. فرض بوريس جونسون خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ لأنّه يرى أنّ بيروقراطية بروكسل دولة هائلة تحدّ من السيادة البريطانية وحرية تدفّق الرأسمال البريطانيّ، في حين أيّدت أجزاء من ”العمال“ خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبيّ لأنّهم يرون بيروقراطية بروكسل أداة لرأس المال الدوليّ، تحدّ من تشريعات وضوابط الدفاع عن حقوق العمال. ثمّ إنّ اليساريين الأميركيين في أميركا اللاتينية يماهون بين المركزية الأوروبية والاستعمار الأبيض، في حين يحاول بوتين تفكيك الاتحاد الأوروبيّ لتعزيز نفوذ روسيا حتّى خارج البلدان السوفياتية السابقة. كذلك، يكره الصهاينة المتطرّفون أوروبا لأنّها متعاطفة للغاية مع الفلسطينيين، في حين يرى بعض العرب الهَوس الأوروبيّ بخطر معاداة السامية بمنزلة تنازل للصهيونية. ويرى سالفيني وأوربان الاتحاد الأوروبيّ جماعة متعدّدة الثقافات تُمثّل تهديداً لقيم أوروبا التقليدية الأصيلة بفتحها البوابات أمام المهاجرين من ثقافات أجنبية، في حين يرى المهاجرون أوروبا حصناً للعنصرية البيضاء التي لا تسمح لهم بالاندماج الكامل فيها. والقائمة تطول.

تلقّت هذه المواقف الانتقادية إزاء أوروبا دفعاً في أثناء الجائحة، وقد أُلقي اللوم على النزعة الفردية الأوروبية بالأعداد المرتفعة من الإصابات بكورونا في أوروبا خلافاً لمعدّلات الإصابة المنخفضة في البلدان الآسيوية بسبب روح الجماعة الأقوى فيها. عُدّ الاتحاد الأوروبيّ غير فعّال وعاجزاً عن تنظيم عمليات تطعيم سريعة، واستسلمت أوروبا تدريجياً لنزعة قومية في توزيع اللقاحات. في الوقت عينه، اتُّهمت أوروبا بتفضيل سكانها والتغافل عن مساعدة بلدان العالم الثالث المعدمة (علينا على الأقل أن نعترف هنا بأنّ تأخر الاتحاد الأوروبيّ في إجراء عمليات التطعيم كان الثمن الذي دفعه مقابل موقفه المبدئيّ بصدد التوزيع العادل للقاحات بين أعضائه كافّةً).

كذلك، ينبغي للمرء أن يضع نصب عينيه أنّ المدافعين عن أوروبا منقسمون وفق الأسس عينها: لدينا النظرة "التكنوقراطية" لأوروبا بوصفها عاملاً فعالاً آخر في الرأسمالية العالمية، والنظرة الليبرالية إلى أوروبا بوصفها فضاء بارزاً لحقوق الإنسان والحريات، ولدينا النظرة المحافظة لأوروبا بوصفها اتحاد هويات قومية صلبة... كيف نوجّه أنفسنا في هذه البلبلة؟ من السهولة التمييز بين مختلف ملامح أوروبا، الشرّيرة منها والخيّرة، بتبنّي موقف نرفض فيه أوروبا التي أنجبت الاستعمار الحديث والعنصرية والعبودية، في حين نؤيد أوروبا حقوق الإنسان والانفتاح المتعدّد الثقافات. يُذكّر حلّ مثل هذا بسياسيّ أميركيّ من حقبة حظر الكحول الذي أجاب حين سُئل عن موقفه من شرب الخمر: "إن كنت تقصد بالخمر ذلك المشروب الذي يجعل أمسية مع الأصدقاء رائعة، فأنا معه تماماً. أمّا إن كان المقصود من الخمر الويلات التي تسبب العنف المنزليّ وتجعل الناس متعطلين عن العمل ومنحطين، فأنا أعارضه بالكامل!". بلى، أوروبا تصوُّر معقد زاخر بالتوتّرات الداخلية، لكن علينا أن نتّخذ قراراً واضحاً وبسيطاً: هل لا يزال في وسع "أوروبا" أنّ تظلّ مفيدة بوصفها دالّة حاكمة بتعبير لاكان، اسماً من الأسماء التي ترمز إلى ما يمثّله الكفاح في سبيل التحرّر؟

تتمثّل أطروحتي في أنّه الآن على وجه التحديد – أوروبا آخذة في الانحدار وإرثها يتعرّض لأقوى الهجمات – يتعيّن على المرء أن يتّخذ قراراً لمصلحة أوروبا. فهذه الهجمات لا تستهدف أساساً إرث أوروبا العنصريّ والمحافظ، بل الإمكانية التحرّرية الفريدة من نوعها في أوروبا: الحداثة العلمانية والتنوير وحقوق الإنسان والحريات

والتضامن الاجتماعيّ والعدالة والنسوية... لا يقتصر سبب وجوب التمسّك باسم "أوروبا" على أنّ السمات الحسنة تطغى على السمات السيئة، بل يتمثّل السبب الأساسيّ في أنّ الإرث الأوروبيّ بذاته يوفّر الأدوات النقدية المثلى لتحليل ما حدث من خطأ في أوروبا. هل يدرك أولئك الذين يعارضون "المركزية الأوروبية" أنّ المصطلحات التي يستخدمونها في نقدهم هي بجوهرها جزءٌ من الإرث الأوروبيّ؟

من الواضح أنّ التهديد الأوضح للإمكانية التحرّرية تلك يأتي من الداخل، من شعبوية اليمين الجديد التي تهدف إلى تدمير الإرث التحرّريّ الأوروبيّ. أوروبا اليمين هي أوروبا الدول القومية المصمِّمة على الحفاظ على هوياتها المميِّزة. عندما زار ستيف بانون فرنسا منذ بضعة أعوام، ألقى خطاباً أنهاه بالكلمات التالية: "ليبارك الرب أميركا وتحيا فرنسا!"[141]. تحيا فرنسا، تحيا إيطاليا، تحيا ألمانيا... ولكن ليس أوروبا. حريّ بنا أن ننتبه إلى أنّ هذه النظرة إلى أوروبا تتضمّن وضع خرائط مختلفة كلّيًا لفضائنا السياسيّ.

141 David Reid, "Bannon Tells French Far-Right: Let Them Call You Racist," CNBC, March 12, 2018, https://www.cnbc.com/2018/03/12/steve-bannon-tells-france-right-wing-to-embrace-racist-tag.html

لاحظ المحافظ العظيم توماس سترينز إليوت في كتابه *Notes Towards the Definition of Culture* [**ملاحظات نحو تعريف الثقافة**] أنّ هنالك لحظات يكون الخيار الوحيد فيها هو خيار بين الطائفية وعدم الإيمان، عندما تكون الطريقة الوحيدة لإبقاء الدين حيًّا هي إحداث انشقاق طائفيّ عن جثمانه الأصليّ. ذلكم خيارنا الوحيد اليوم: لا نستطيع الإبقاء على إرث أوروبا حيًّا إلّا بـ"انشقاق طائفيّ" عن النسخة الديموقراطية الليبرالية العادية للإرث الأوروبيّ باستئصال أنفسنا من جيفة أوروبا العجوز.

تتمثّل الطريقة الوحيدة لنكون أوروبيين حقيقيين اليوم في العمل على نطاق عالميّ لا يركّز على أوروبا في مساعدة الهند مثلاً والآخرين في توفير اللقاحات والتعبئة على الصعيد الدوليّ ضدّ الاحتباس الحراريّ وتنظيم الرعاية الصحية العالمية.

32

أيّ لعبة توقّفت عن العمل؟

تتركّز إحدى ومضات الروح القليلة في عصرنا المظلم في الجدل المحيط بمنصتَي WallStreetBets وRobinhood وشركة GameStop. لبضعة أيام في أواخر كانون الثاني/ يناير 2021، طغت الأخبار المثيرة للجدل بشأن منصّة WallStreetBets على الأخبار السيئة المعتادة عن الجائحة لمرض كورونا والطرائف الأخيرة لترامب. القصة معروفة، فدعونا نلخّص النقاط الرئيسية على غرار ما تفعله موسوعة Wikipedia. تُعَدّ WallStreetBets فرعاً من فروع منتدى Reddit الإلكترونيّ حيث يناقش ملايين من المشاركين تداولات الأسهم وخيارات البيع، وهي معروفة بطابعها الساذج وترويجها إستراتيجيات التداول المشاكسة. معظم الأعضاء من صغار المتداولين الشبّان أو صغار المستثمرين أو مجرّد هواة شبّان يجهلون ممارسات الاستثمار الأساسية وتقنيات إدارة المخاطر، فتُعَدّ نشاطاتهم بمنزلة مقامرة. يستخدم أعضاء كثيرون Robinhood لتداول الأسهم وخيارات البيع المخصّصة للهواة، وهي منصّة عرضت بدايةً صفقات دون عمولة للأسهم وصناديق المؤشرات المتداولة عن طريق تطبيق على الهاتف الجوال قبل أن تُطلِق منتجات إضافية. يعتمد المتداولون في WallStreetBets على انخفاض سعر النقود (أسعار الفائدة). من الواضح أنّ ما فتح فضاء المنصّة هو عدم يقينٍ غير مسبوق جلبته إلى حياتنا جائحة كورونا: توعُّد بالموت والفوضى والاحتجاجات الاجتماعية، وهنالك كثير من أوقات الفراغ الناجمة عن إجراءات الإغلاق والحجر الصحيّ أيضاً.

كانت العملية الأكثر شهرة للمتداولين في المنصّة استثمارهم الهائل غير المتوقّع في أسهم GameStop. نتيجة رؤية المتداولين أنّ الشركة كانت تفقد قيمتها تدريجياً، استجابوا بشراء الأسهم ما أدّى إلى ارتفاع الأسعار والتسبّب في الذعر والتقلبات في الأسواق. لم يكن قرار الاستثمار في الشركة قائماً على أيّ شيء عملت عليه (تطوير منتج مربح جديد مثلاً)، بل اقتصر الأمر على رفع قيمة أسهمها مؤقَّتا ثمّ التلاعب بالتقلبات، وما يعنيه ذلك هو أنّ هنالك ضرباً من انعكاسٍ ذاتيّ

يَسِم المنصّة. فما يدور في الشركات التي يختار المشاركون الاستثمار فيها له دورٌ ثانويّ والأساسيّ هو تأثير أنشطتهم الخاصة في الأسواق.

يرى منتقدو المنصّة في مثل هذا الموقف دلالةً واضحة على العدميّة، واختزال تداول الأسهم بالمقامرة، وكما عبّر عن ذلك أحد المشاركين في المنصّة: "تحوُّلت من مستثمر عقلانيّ إلى مقامر مريض يائس غير عقلانيّ". خير ما يمثّل هذه العدميّة هو مصطلح "yolo" (you only live once) [تعيش مرّة واحدة لا غير] المستخدم في مجتمع المنصّة لوصف الأشخاص الذين يخاطرون بكامل محفظتهم في تداول أسهم أو خيارات بيع بعينها. لكنّ ما يدفع المشاركين في المنصة ليس مجرّد عدميّة، فعدميّتهم تدلّ على لا مبالاة اتجاه النتيجة النهائية. وكما قال جيرمي بلاكبورن Jeremy Blackburn وهو أستاذٌ مساعد في علوم الحاسوب: "ليست الغايات هي المهمّة. إنّها الوسيلة. إنّها حقيقة أنّك تضع رهانك. إنّه المكان الذي فيه القيمة في هذا كلّه. بالتأكيد، يمكنك الحصول على المال أو أن تفلس لكنّك لعبت اللعبة وقمت بذلك بطريقة مجنونة"[142]. أليس هذا ضرباً من ضروب إبطال الاستلاب كشفُ اللعبة على حقيقتها (بكلّ ما فيها من شطط)؟ يميّز جاك لاكان في نظريته عن التحليل النفسيّ بين اللذة المباشرة (الاستمتاع بالموضوع الذي نرغب فيه) وفائض المتعة. مثاله الأساسيّ هو طفل يلعق/ هي طفلةٌ تلعق ثدي الأم: يقوم الطفل/ تقوم الطفلة بذلك بداية لإشباع جوعه/ جوعها، لكنّه يبدأ/ لكنّها تبدأ بالاستمتاع بفعل اللعق بحدّ ذاته ويواصل/ تواصل ذلك حتّى بغياب الجوع. ينطبق الأمر عينه على التسوق (يستمتع كثيرون بنشاط التسوّق أكثر من استمتاعهم بما يبتاعونه فعلياً) أو النشاط الجنسيّ عموماً. يُخرِج المشاركون في تلك المنصّة إلى العلن فائض المتعة المتحقّق من المقامرة في سوق الأوراق المالية.

142 Jon Sarlin, "Inside the Reddit Army That's Rocking Wall Street," CNN, January 30, 2021, https://edition.cnn.com/2021/01/29/investing/wallstreetbets-reddit-culture/index.html

كيف يعمل هذا في فضائنا السياسيّ؟ تُمثّل تلك المنصّة تمرًّدا شعبوياً غامضاً على الصعيد السياسيّ. عندما تنازلت منصّة Robinhood أمام الضغوط ومنعت صغار المستثمرين من شراء الأسهم، عارضت كورتيز هذا التحرّك بحجّة صحيحة: "هذا الأمر غير مقبول، من الضروريّ أن نعرف الآن المزيد عن قرار RobinhoodApp@ بمنع صغار المستثمرين من شراء الأسهم في حين تكون صناديق التحوّط قادرة على

تداول الأسهم بحرية على النحو الذي تراه مناسباً“[143] (أعادت المنصّة التداول لاحقاً). ساندَ تيد كروز Ted Cruz كورتيز من وجهة النظر الشعبوية اليمينية المتطرفة المعارضة للمصارف الكبيرة و Wall Street(كانت كورتيز محقّة في رفض التعاون).

143 تغريدة نشرتها ألكسندريا أوكاسيو كورتيز في:
https://twitter.com/AOC/status/1354830697459032066

في وسعنا تخيّل الهول الذي كان في وسع WallStreetBets أن توحي به في Wall Street: تدخُّل مكثّف في سوق الأوراق المالية يقوم به ”هواة“ لا يتبعون قواعد اللعبة وقوانينها (بل إنّهم لا يريدون معرفتها) ويبدون في النتيجة من وجهة نظر المستثمرين المحترفين كمجانين ”غير عقلانيين“ يفسدون اللعبة. تتمثّل السمة الرئيسية لأعضاء مجتمع تلك المنصة تحديداً في الدور الإيجابيّ لعدم المعرفة هذا، فهم يولّدون آثاراً مدمّرة في واقع تبادلات السوق نتيجة تجاهل المعرفة ”العقلانية“ لقواعد وقوانين الاستثمار التي يزعم متداولو الأسهم ”المحترفون“ أنّهم يطبّقونها.

تعني الجاذبية الشعبية للمنصّة أنّ ملايين الأشخاص العاديين، وليس سماسرة المال المبرّزين فحسب، يستطيعون المشاركة فيها. لقد انفتحت جبهة جديدة في الحرب الطبقية الأميركية. وكما غرّد روبرت رايش: ”دعوني أوضّح الأمر: هل استقطاب شركة GameStop أعضاء منتدى Reddit هو تلاعب بالسوق، في حين أنّ بيع أصحاب مليارات صندوق التحوّط للأسهم على المكشوف هو مجرّد إستراتيجية استثمار؟“[144]. من كان في وسعه توقّع هذا: تحوّل حرب طبقية إلى نزاع بين مستثمري الأسهم والمتداولين أنفسهم؟

144 Christine Romans, “Hedge Funds Bitching about Reddit Can Cry Me a River,” CNN, January 29, 2021, https://edition.cnn.com/2021/01/29/investing/populist-uprising-reddit-wall-street/index.html

إنّه مرّة أخرى قتلٌ للأشخاص الطبيعيين، بالإحالة إلى عنوان كتاب أنجيلا ناغل. وكما وضّح أحد التقارير: ”بالنسبة إلى منصّة WallStreetBets، ثقافة الأشخاص الطبيعيين التي تقف في مواجهتها هي ثقافة الاستثمار ’الآمن‘ السائدة: التركيز على المكاسب البعيدة المدى والوصول إلى الحدّ الأقصى من خطة حسابك التقاعدي 401 (K) وشراء صناديق المؤشرات“ (index funds)[145]. لكن هذه المرّة لا بدّ من ”قتل“ الأشخاص الطبيعيين حقاً. لماذا؟ المفارقة هي أنّ Wall Street نموذج التنبؤات الفاسدة والتداول الداخليّ الذي يقاوم دائماً بحكم التعريف تدخّل الدولة

وضوابطها يعارض حالياً المنافسة غير العادلة ويدعو إلى فرض ضوابط الدولة... أمّا عن الاتّهام الصادر عن Wall Street بأنّ Robinhood هي منصة مقامرة، فيكفيه تذكّر أنّ إليزابيث وارن اتّهمت صناديق التحوّط مراراً وتكراراً باستخدام سوق الأوراق المالية "كأنّها نادي قمار خاص بها". موجز القول: تقوم WallStreetBets بأسلوب صريح وقانونيّ بما يقوم به Wall Street سراً وبأسلوب غير قانونيّ.

145 Sarlin.

من المحال تحقّق يوتوبيا الرأسمالية الشعبوية لتلك المنصّة، المثل الأعلى لملايين الأشخاص العاديين من العمال والطلبة نهاراً الذين يتلهون بالاستثمارات مساءً، ولا يمكن إلّا أن تنتهي بفوضى مدمّرة للذات. ولكن أليس من جوهر طبيعة الرأسمالية أن تنتابها الأزمات دورياً – الأزمة الكبرى في 1928 والانهيار الماليّ في 2008 (التي تسبّبت فيها صناديق التحوّط "العقلانية")، مكتفين بذكر الحالتين الأكثر شهرة – وأن تخرج منها أكثر قوّة؟ لكن في كلتا الحالتين وكذلك في أزمة المنصّة، كان محالاً (ولا يزال) أن يُستعاد التوازن بآليات السوق الراسخة؛ الثمن باهظ وهنالك حاجة إلى تدخّل خارجيّ (حكوميّ) هائل. هل في مستطاع الدولة استعادة التحكم في اللعبة واستعادة الوضع الطبيعيّ السابق الذي دمّرته المنصّة؟ الصين بتحكّم حكومتها الصارم في سوق الأوراق المالية هي النموذج هنا، لكنّ تطبيق ذلك في الغرب لا يقتضي تغييراً جذرياً في السياسة الاقتصادية فحسب، فمن غير الممكن تحقيق ذلك إلّا نتيجة تحوّل سياسيّ اجتماعيّ عالميّ.

أظهر الفائض الذي أخرجته المنصّة إلى العلن اللاعقلانية الكامنة في سوق الأوراق المالية نفسها؛ إنّها لحظة انكشاف حقيقتها. ليست هذه المنصّة تمرًّدا على Wall Street، لكنّها شيء يُحتمل أن يكون أكثر تخريباً بكثير. إنّها تخرّب النظام نتيجة فرط تماهيها به أو بالأحرى نتيجة تعميمه وفي النتيجة إبراز عبثيته. إنّه يشبه مقاربة مرشّح دخيل خاض الانتخابات الرئاسية الأخيرة في كرواتيا. كانت النقطة الأساسية في برنامجه: "الفساد للجميع! أعدكم بألّا يكون في وسع النخبة وحدها الاستفادة من الفساد. سيكون في وسعكم جميعاً أن تستفيدوا منه!". عندما ظهرت لافتات تحمل هذا الشعار في أرجاء زغرب جميعها باتت حديث المدينة، وتفاعل الناس بحماسة معها رغم معرفتهم أنّها دعابة... بلى، كانت أنشطة المشاركين في المنصّة في كانون الثاني/ يناير عدميّة، لكنّ هذه العدميّة ملازمة

لسوق الأوراق المالية عينها وهي قيد العمل بالفعل في Wall Street. علينا للتغلّب على هذه العدميّة أن نخرج بطريقة ما من لعبة سوق الأوراق المالية. لحظة الاشتراكية تتوارى في الخلفية وتنتظر من يغتنمها كصدوع تظهر في مركز الرأسمالية العالمية عينه.

هل سيحدث هذا؟ من المؤكد تقريباً أنّه لن يحدث، لكنّ ما يوجب اهتمامنا هو أنّ أزمة المنصّة تشكّل تهديداً آخر غير متوقّع لنظام يتعرّض بالفعل لهجوم من جوانب متعدّدة (الجائحة والاحتباس الحراريّ والاحتجاجات الاجتماعية...)، وهذا التهديد يأتي من صميم قلب النظام وليس من خارجه. يجري إعداد مزيجٍ متفجّر، وكلّما تأجّل الانفجار، سيكون أشدّ تدميراً.

33
ضوء في نهاية النفق؟

نقرأ مراراً وتكراراً في وسائل إعلامنا أنّنا في ”بداية نهاية“ الجائحة. ورغم أنّ أعداد الإصابات والوفيات لا تزال تتصاعد، فإنّ ملايين الناس حصلوا بالفعل على اللقاح، وفي النتيجة ثمّة الآن على الأقلّ ضوءٌ في نهاية النفق كما يقول المثل. ورغم المخاوف بشأن كيفية نجاتنا في الشهور القليلة القادمة فالناس باتت تتنفس الصعداء. نستحق هذا الاسترخاء بما أنّ ما كان يدعو للإحباط بشأن الجائحة هو تحديداً عدم وجود مَخرج واضح في الأفق: الشعور بأنّ نهاية العالم تتطاول من غير نهاية. أمّا الآن، فيبدو كأنّ الكابوس سينتهي قريباً؛ سنحاول محوه من ذاكرتنا والعودة إلى الحياة الطبيعية في أقرب وقت ممكن. بعض المثقفين المصمِّمين على إيجاد معنىً أعمق في كلّ كارثة يستحضرون أبياتاً من قصيدة Patmos لفريدريش هولدرلين Friedrich Hölderlin، ”Wo aber Gefahr ist, wächst das Rettende auch“ (”ولكن حيث تستفحل المخاطر، ينمو أيضاً ما يُنقِذ“) بعدّها ذات صلة بمأزقنا.[146] أين تكمن هذه الصلة على وجه التحديد؟ هل تكمن في مجرّد إنقاذ العلم لنا باكتشاف اللقاحات في زمن قياسيّ؟ هل تكمن في أنّ الجائحة تذكّرنا بفنائنا ومواطن ضعفنا وبأنّنا جزء من الطبيعة ولسنا سادتها، فتشفينا في النتيجة من غطرستنا؟

146 “Hölderlin-Trost auch in der Coronavirus-Krise: ‘Wo aber Gefahr ist, wächst das Rettende auch,’” SWR2 Kulturgespräch.

سيكون مناسباً أكثر قلب أبيات هولدرلين: ”ولكن حيث ينمو ما ينقذنا، تستفحل المخاطر أيضاً“. تتعدّد هذه المخاطر. لنبدأ بالتحذير الصادر عن خبراء ”منظمة الصحة العالمية“ من أنّه ”رغم أنّ جائحة كورونا كانت بالغة الشدّة لكنّها ليست بالضرورة الجائحة الكبيرة، وأنّ على العالم التعايش مع كورونا“[147]. لا يقتصر الأمر على أنّ الجائحة لم تنتهِ بعد (تواصل أعداد الإصابات تزايدها على هيئة موجات)، إذ إنّ آفات جديدة تلوح في الأفق: الاحتباس الحراريّ وحرائق الغابات والجفاف تُدمّر بيئتنا. ستوجِّه الآثار الاقتصادية للجائحة ضرباتها في وقت لاحق معطيةً دفعاً جديداً

للاحتجاجات العامّة. ثمّ إنّ التحكّم الرقميّ في حياتنا سيتواصل، في حين تتكاثر مشكلات الصحة النفسية... سيتعيّن علينا ليس العيش مع كورونا فحسب، وإنّما مع مزيج كامل من الظواهر المترابطة، ولهذا نحن الآن في غمار اللحظة الأخطر من مجمل الجائحة. سيكون الاسترخاء الآن أشبه بالاستغراق في النوم خلف عجلة القيادة لسيارة تسير بسرعة على طريق متعرج. علينا اتّخاذ قرارات كثيرة لا تستند إلى العلم جميعها. لحظتنا الحالية هي لحظة الخيارات السياسية الجذرية.

147 Melissa Davey, "WHO Warns Covid-19 Pandemic Is 'Not Necessarily the Big One,'" *The Guardian*, December 29, 2020, https://www.theguardian.com/world/2020/dec/29/who-warns-covid-19-pandemic-is-not-necessarily-the-big-one

صحيح أنّ العلم قد ينقذنا – غريتا ثانبيرغ محقّة في وجوب أن نثق بالعلم – ولكن علينا أيضاً بروح علمية حقيقية التسليم بأمرين لاحظهما يورغان هابرماس: مع الجائحة لم نتعلّم أموراً جديدة فحسب، بل توصّلنا كذلك إلى معرفة أنّنا لا نعرف أشياء كثيرة، فضلاً عن أنّنا أُكرهنا على التصرّف في مثل هذا الوضع المستغلق على الفهم ونحن لا نعرف ما الآثار التي ستترتّب على تصرّفنا.[148] وعلى النحو الذي ناقشناه، لا يتعلّق هذا الجهل بالجائحة بحدّ ذاتها فحسب، وإنّما بما هو أكبر منها: عواقبها النفسية والاجتماعية والاقتصادية. ولا يقتصر الأمر على أنّنا لا نعرف ما يحدث، بل يتعلّق بمعرفتنا أنّنا لا نعرف، وهذا الجهل هو بحدّ ذاته واقع اجتماعيّ مُدرج في طرق عمل مؤسّساتنا.

148 انظر:

Markus Schwering, "Jürgen Habermas über Corona: ‚'So viel Wissen über unser Nichtwissen gab es noch nie'" *Frankfurter Rundschau*, April 10, 2020, https://www.fr.de/kultur/gesellschaft/juergen-habermas-coronavirus-krise-covid19-interview-13642491.html

علينا هنا أن نخطو خطوة أخرى. لا يقتصر الأمر اليوم على أنّنا نعرف أكثر فأكثر ما لا نعرفه؛ يبدو أحياناً أنّ الواقع نفسه يسلك سلوك من نَسي قوانينه الخاصة. نعرف الدعابة المتعلّقة "بالمعرفة في الواقع": يعرف الحَجَر القانون الذي ينبغي له أن يمتثل له حين يتهاوى.... لكنّ الدرس الأساسيّ في الفيزياء الكَمّية هو أنّ الطبيعة نفسها لا تعرف كلّ قوانينها، ولهذا تفاعل ألبرت أينشتاين Albert Einstein مع الإرباك الذي تثيره الفيزياء الكَمّية، ومبدؤها الأساسيّ عدم التعيين في الطبيعة. وهذا يعني ببساطة – من وجهة نظر أينشتاين – أنّ الفيزياء الكَمّية نظرية غير مكتملة تُغفل متغيّرات مجهولة. ثمّة مفارقة كبرى في حقيقة أنّ حوار أينشتاين ونيلز بور

Niels Bohr الأكثر شهرة تتعلّق بالله رغم أنّهما ملحدان: لاحظ أينشتاين أنّ "الله لا يلعب بالنرد"، وارتدّ بور: "كفّوا عن إخبار الله بما يجب أن يفعل". لم يكن اختلافهما بشأن الله وإنّما بشأن طبيعة كوننا. لم يكن في وسع أينشتاين قبول أنّ الطبيعة نفسها "غير كاملة" بمعنىً ما. يبدو أنّ الجائحة توضح صوابَ رأي بور.

يُفسح عدم التعيين هذا الذي يمضي نزولاً حتّى يبلغ المستويات ما دون الذرية المجالَ أمام تدخّلاتنا، لكن إذا اضطلعنا به اضطلاعاً كاملاً فحسب، أي إذا رفضنا الحتمية بنسختيها الرئيستين: المذهب الطبيعيّ والعناية الإلهية. ردًّ لاهوتيّ سلوفينيّ (يدعو إلى إبقاء الكنائس مفتوحةً رغم ضوابط الحجر الصحيّ) على منتقديه القائلين إنّ دعوته ستتسبّب في فقدان أرواح كثيرة رداً مباشراً: "مهمة الكنيسة هي الخلاص وليست الصحة"[149]. مجمل القول: موت الآلاف ومعاناتهم لا يهمّ مقارنةً بخلاصهم اعتماداً على الرب... هذا ما كانت تقوم به الأم تيريزا في كالكوتا. كانت مهمتها الاعتناء "بالجياع والعراة والمشرّدين والمعاقين والمكفوفين والمجذومين والذين يشعرون بأنّهم منبوذون ومكروهون ولا يحظون برعاية المجتمع جميعهم، والذين باتوا عبئاً على المجتمع ويتجنّبهم الآخرون"[150]. ولكن كما أوضح المنتقدون، اعتنت بخلاصهم واعتناقهم الكاثوليكية على فراش الموت أكثر من اعتنائها بصحتهم.[151] إذاً نستطيع أن نتخيل بسهولة ما الذي كانت ستفعله الآن والجائحة تفتك بالعالم: لا للقاحات ولا حتّى لأجهزة التنفس ولا شيء سوى تقديم العزاء الروحيّ في الجو الكئيب الذي يحيط بنا في الساعات الأخيرة من حياتنا... وفي وسعنا أن نتخيل ما الذي سيحدث في المستقبل القريب إذا واصلت الجائحة انتشارها أيضاً (بطفرات جديدة للفيروس مثلاً) وجعلت اللقاحات عديمة الجدوى: سيموت الناس على نطاق أشمل من نطاق الإنفلونزا الإسبانية، وبسبب عدم وجود أيّ رؤية لكيفية احتواء الجائحة سوف تتخلّى سلطاتنا عن مهماتها لمجرّد تقديم الرعاية إلى المحتضرين بما فيها الحبوب التي تُمكّن من الموت من دون ألم، في حين ستعرض الكنيسة اهتداءات جماعية لتقليل اكتئابنا مع وعد بالخلاص للمؤمنين.

149 "Verniki vecˇinsko ne podpirajo nadškofovega poziva vladi, naj odpravi prepoved izvajanja verskih obredov," *Domovina*, December 16, 2020, https://www.domovina.je/verniki-vecinsko-ne-podpirajo-nadskofovega-poziva-vladi-naj-odpravi-prepoved-izvajanja-verskih-obredov/

150 Mother Theresa, cited in "Missionaries of Charity," Wikipedia,

https://en.wikipedia.org/wiki/Missionaries_of_Charity

151 انظر:

Christopher Hitchens, *The Missionary Position: Mother Theresa in Theory and Practice* (London: Verso Books, 2013).

إذاً خير ما يلخّص خيارنا النهائيّ بداية نصّ كتبه وودي آلن Woody Allen يعود تاريخه إلى 1979: "يواجه الجنس البشريّ أكثر من أيّ وقت مضى من التاريخ مفترق طرق. يفضي الطريق الأول إلى القنوط واليأس المطلق، والآخر إلى الفناء التامّ؛ دعونا نصلِّ كي نتحلّى بالحكمة لاختيار ما هو صائب"[152]. يتمثّل الخيار الصائب في الاضطلاع بالقنوط اعترافاً منّا باليأس المطلق من مأزقنا. ما لم نعبر نقطة الصفر هذه، فلن يكون في وسعنا بناء مجتمع جديد مقبل. قد يفضي بنا الخيار الخطأ إلى مجتمع منقسم جديد يعيش فيه أصحاب الامتيازات في جُزر معزولة في حين تعيش غالبية الناس في ظروف وحشية. تُعَدّ المساواة اليوم أكثر من أيّ وقت مضى ضرورةً ملحّة وليس مجرّد مثل أعلى مُبهم. اللقاحات للجميع والرعاية الصحية الشاملة والمكافحة العالمية لأزمة المناخ أضحت أموراً ضرورية. ثمّة مؤشرات على أنّه حتّى الشركات مقبلة على قبول ذلك. قال أوجور شاهين Uğur Şahin المدير التنفيذيّ لشركة BioNTech – هو تركيّ يعيش في ألمانيا أدّى دوراً رئيسياً في اختراع لقاح رائد – في مقابلة أُجريت معه أواخر 2020: "لا يبدو الأمر جيداً في هذه اللحظة؛ تظهر فجوة بسبب نقص في اللقاحات المعتمدة الأخرى وعلينا أن نجسر هذه الفجوة بلقاحنا"[153]. إنّها لحظة نادرة ومدهشة في الرأسمالية المتأخرة حين يطلب مدير تنفيذيّ في إحدى الشركات من منافسيه أن يصبحوا أقوى لأنّه يعلم أنّهم لن يتمكّنوا من الانتصار في مكافحة الأزمة الصحية العالمية إلّا معاً.

152 Woody Allen, "My Speech to the Graduates," the *New York Times*, August 10, 1979, https://www.nytimes.com/1979/08/10/archives/my-speech-to-the-graduates.html

153 "Gaps in Pfizer/BioNTech Vaccine Supply Likely," *The Guardian*, January 1, 2021, https://www.theguardian.com/world/live/2021/jan/01/coronavirus-live-news-new-covid-variant-b117-in-united-states-since-october

إذاً لعلّ الطريقة المناسبة التي نختتم بها هي في تكرار التحذير الشهير الذي يضاف أحياناً لفكرة الضوء في نهاية النفق: دعونا نتأكد من أنّ هذا الضوء ليس ضوءَ قطار يندفع نحونا.

34
ثلاثة مواقف أخلاقية

يتحدّث هيغل في تصدير كتابه *Encyclopaedia* [**الموسوعة**] عن ثلاثة مواقف فكرية أساسية إزاء الموضوعية (drei Stellungen des Gedankens zur Objektivität). للتعامل مع المآزق الأخلاقية الحالية، يبدو لي أنّه من المناسب توضيح المواقف الأساسية الثلاثة التي يتّخذها مفكّرو اليوم إزاء الفوضى المشوشة التي نعيش ضمنها.

يتمثّل الموقف الأول في أنّ خبيراً يتعامل مع مهمّة خاصة فرضها عليه الذين يتولّون السلطة يتجاهل ببالغ السعادة السياق الاجتماعيّ الأوسع لنشاطه. يقدّم فيليب كيندر ديك Philip K. Dick في روايته من جنس الخيال العلميّ *Time Out of Joint* [زمن مفكّك الأوصال] (نُشرت في 1959) نسخة متطرّفة عن مثل هذه الكوكبة. تحكي لنا القصة عن شخص يُدعى راغل غام Ragle Gumm يعيش (أو يظن أنّه يعيش) في ضاحية أميركية هادئة عام 1959،[154] وتتضمّن مهنته غير المعتادة فوزه المتكرر بجائزة مالية في المسابقة لصحيفة محلية تُدعى: "أين سيكون الرجل الأخضر الصغير في المرّة المقبلة؟". تبدأ الرواية بحدوث أشياء غريبة لغام: يختفي كشك المشروبات الغازية وتحلّ محلّه قُصاصة ورقية صغيرة مطبوع عليها بحروف كبيرة: "كشك المشروبات الغازية"، إضافة إلى حالات شذوذ تدلّ على أنّ غام يعيش في عالم اصطناعيّ. تدعوه امرأة من الجوار إلى حضور حصة دراسية في الدفاع المدنيّ حيث يشاهد النموذج لمصنع حربيّ مستقبليّ تحت الأرض، فينتاب غام إحساسٌ لا يتزعزع بأنّه كان داخل هذا المبنى مرّات عدة من قبل... يتصاعد الإرباك تدريجياً بالنسبة إلى غام، ويبدأ الخداع المحيط به (يُحافَظ عليه لحمايته واستغلاله) بالانكشاف. يتعلّم أنّ مدينته المثالية واقع مشيّد مُعدّ لحمايته من الحقيقة المرعبة بأنّه يعيش فعلياً في 1998 حين تخوض الأرض حرباً ضدّ مستوطنين في القمر يقاتلون في سبيل مستوطنة قمرية دائمة مستقلّة سياسياً عن الأرض.

154 المختصر التالي يعتمد بلا خجل مدخل "Time Out of Joint" في موسوعة Wikipedia.

يمتلك غام قدرة فريدة تتمثّل في التنبؤ بالأماكن التي ستستهدفها هجمات المستوطنين النووية. عمل غام على هذا العمل في السابق لمصلحة الجيش لكنّه انضمّ لاحقاً إلى المستوطنين وخطّط سراً للهجرة إلى القمر، ولكن قبل أن يحدث هذا الأمر شرعَ في التراجع إلى عالم خياليّ قائم إلى حدّ كبير على البيئة لشبابه المثالية نسبياً. لم يعد قادراً على تحمّل مسؤوليته كحامٍ وحيد للأرض من الهجمات النووية التي يشنّها القمر، وهكذا خُلقت المدينة الزائفة في ذهن غام للتكيّف مع تراجعه إلى طفولته وعقلنته إذ يستطيع مواصلة تنبئه بالضربات النووية تحت الستار لتقديم مدخلات إلى المسابقة لصحيفة غير ضارة، ودون هواجس أخلاقية ترتبط بكونه في "الجانب الخطأ" من الحرب الأهلية. حين يتذكّر غام أخيراً تاريخه الشخصيّ الحقيقيّ يقرّر بعد هذا كلّه الهجرة إلى القمر بسبب شعوره بأنّه ينبغي ألّا تُنكر أيّ حكومة على الناس حقّ الاستكشاف والهجرة.

يحاكي مأزق غام تماماً دور العلماء اليوم الذين يعملون لمصلحة المؤسّستين الفكرية والعسكرية، فمعظمهم يعيشون في فضاءات الحرم الجامعيّ المثالية والمصطنعة أو ضواحي الأغنياء محميين من فوضى الحياة المعاصرة؛ يبدو عملهم من وجهة نظرهم كأنّه جهد مرح يرمي إلى الحلّ لألغاز رياضية، في حين تستخدم المؤسّسة أعمالهم لفرض السيطرة الاجتماعية وتعزيز القوّة العسكرية.

ينجح غام في الرواية في الخروج من عالمه المنعزل وبلورة موقف نقديّ يمكّنه من الانخراط في السياسة. ولكن هنالك مواقف نقدية ومواقف حاسمة، والموقف النقديّ "الجذريّ" (الموقف الأخلاقيّ الثاني الذي أقترح أن يؤخذ بالحسبان هنا) يحتوي فخاخه الخاصة. تقدّم الفرقة التشيلية Los Prisonieros [السجناء] في أغنيتها "Nunca quedas mal con nadie" (لن تترك انطباعاً سيئاً أبداً) صورة مثالية عن اليسار "الراديكاليّ" الزائف؛ إليكم بعض كلمات الأغنية:

> أتظنون أنّكم تحتجّون؟/ أتظنون أنكم متمردون؟/ تتذمّرون من التلوّث/ تتحدّثون عن الأتمتة/ تدافعون عن الإنسانية/ تبكون لأنّ العالم بهذا السوء/ تنتقدون المجتمع/ تقولون إنّ كلّ شيء يجب أن يتغيّر/ على خشبة المسرح، تسبغون على صوتكم طابع التراث الشعبيّ/ "تسقط المدينة وتلوّثها"/ بألحانكم اللطيفة وتعاطفكم الرومانسيّ/ لن تتركوا انطباعاً سيئاً لدى أيّ

شخص/ تقولون لي إنّكم تحتجّون/ ولكن.../ موقفكم لا يزعج أحداً/ هل هدفكم مهاجمة شيء ما، أم مجرد الحصول على التصفيق؟/ تتذمّرون من مطلقي القنابل/ تقولون إنّهم سيكونون نهاية العالم/ لكنّكم لا تسمّون أحداً/ تخافون من أن تتركوا انطباعاً سيئاً/ تظنون أنّكم ثوريون ومثيرون للجدل/ لكنّكم لا تتركون انطباعاً سيئاً/ لستم سوى نسخة سيئة من خواجات هيبيين/ موقفكم، أنصتوا أيّها الملتحون الأغبياء/ باع نفسه فينال تصفيق أصحاب الضمير التافه/ تناقضون احتجاجكم الشهير برمّته/ بألحانكم الجميلة والمعقّدة/ تتظاهرون بالكفاح.../ ولستم سوى قطعة لطيفة من القذارة!

رغم أنّ هذه الأغنية تستدعي شخصيةً تشكّل جزءاً من الوضع في تشيلي، لكنّ راهنيتها عالمية. غالباً ما أتحدّث عن كيف أنّنا نجد في أسواق اليوم سلسلةً كاملة من منتجات انتُزعت منها خصائصها الضارة: قهوة منزوعة الكافيين أو قشدة منزوعة الدسم أو جعّة منزوعة الكحول... والقائمة طويلة: جنس افتراضيّ ومعاشرة منزوعة المعاشرة وفن إدارة الخبرات كالسياسة المنزوعة السياسة والتعدّدية الثقافية الليبرالية المتسامحة حتّى اليوم بوصفها تجربة للآخر المحروم من آخريته المزعجة. أضافت فرقة Los Prisonieros شخصية أساسية أخرى من فضائنا الثقافيّ إلى هذه السلسلة: المحتجّ المنزوع الكافيين. إنّه محتجّ يقول (أو ينشد) الأشياء الصحيحة كلّها لكنّه ينتزع منها بطريقة ما ميزتها المهمّة. يرتاع من الاحتباس الحراريّ ويكافح التحيّز الجنسانيّ والعنصرية ويطالب بتغيير اجتماعيّ جذريّ، والجميع مدعوون للانضمام إلى شعور كبير بالتضامن العالميّ، لكنّ ذلك كلّه يعني فحسب أنّه ليس مطلوباً منه تغيير حياته (ربما مجرّد التبرع هنا وهناك). يواصل مسيرته المهنية، منافِس دون هوادة، لكنّه في الجانب الصائب.

كتب جورج أورويل George Orwell في مقدمة روايته *Animal Farm* [**مزرعة الحيوانات**] أنّه إن كانت الحرية تعني أيّ شيء، فهي تعني "الحقّ في إخبار الناس بما لا يرغبون في سماعه". وهذا ما لا يفعله المحتجّ المنزوع الكافيين إطلاقاً، فهو يُسمع جمهوره ما يرغب هذا الجمهور بسماعه. وما الذي يرغب في سماعه؟ لا يزال الموقف السائد بين "اليساريين الراديكاليين" الأكاديميين اليوم هو عينه الموقف الذي عرضه أورويل في 1937 بصدد الفوارق الطبقية عندما كتب: "جميعنا

يعارضون الفوارق الطبقية، لكنّ قلّة من الناس تريد حقاً إلغاءها. هنا تعثر على حقيقة مهمّة مفادها أنّ كلّ رأي ثوريّ يستمدّ جزءاً من قوته من قناعة خفية بأنّه ما من شيء يمكن تغييره"[155]. يشير أورويل إلى أنّ الراديكاليين يذكرون الحاجة إلى التغيير الثوريّ كنوع من شعار خرافيّ يعمل حقاً على تحقيق العكس، أي يمنع حدوث التغيير فعلياً. يتجلّى ذلك حالياً في يساريّ أكاديميّ ينتقد الإمبريالية الثقافية الرأسمالية، لكنّه في الواقع يرتعب من فكرة أن مجال دراسته قد يتضعضع. لهذا نحن بحاجة إلى فِرق كفرقة Los Prisonieros لمواجهة حقيقتنا بكلّ ما تتطلّبه من وحشية لا ترحم. علينا أن نستجمع الشجاعة لتسمية الشرور التي تُحيق بنا بأسمائها.

155 George Orwell, *The Road to Wigan Pier* (1937), available online at http://gutenberg.net.au/ebooks02/0200391.txt

دعونا نأخذ مثالاً حديثاً من جزء آخر من العالم لشخص "يعارض كلّ احتجاجاتهم الشهيرة بألحانٍ معقّدة وجميلة". في كانون الثاني/ يناير 2020، دعا رئيس بلدية القدس موشيه ليون Leon Moshe مشاركين من منتدى المحرقة اليهودية العالميّ إلى حفل كوكتيل فريد من نوعه تضمّن منسّق أغانٍ في كهف تحت البلدة القديمة.[156] لا يمكن عدّ مثل هذا الحدث خاتمةً مناسبةً لإحياء ذكرى المحرقة إلّا في عالمنا المقلوب رأساً على عقب، حين تصبح الفواحش على نحوٍ متزايد جزءاً من الحياة العامّة اليومية. فلا عجب في أنّ أياماً فصلت هذا الحدث عن تكشّف فاحشة أخرى، "خطة سلام" الشرق الأوسط الخاصّة بترامب: اقتراح للسلام بين طرفين لم يُستشر بشأنها إلّا أحدهما في حين جرى تجاهل الطرف الآخر.

156 Nir Hasson, "Jerusalem Mayor Invites Holocaust Forum Attendees to Cocktail Party," *Haaretz*, January 20, 2020, https://www.haaretz.com/israel-news/.premium-j-lem-mayor-invites-holocaust-forum-attendees-to-cocktail-party-complete-with-dj-1.8414774

اقترح كارلو غينزبرغ Carlo Ginzburg تصوراً مفاده أنّ الخزي من بلدك وليس حبه قد يكون علامةً حقيقية على انتمائك إليه.[157] حدث مثال مهمّ على مثل هذا الخزي في 2014 عندما نشر مئات من الناجين من المحرقة والمتحدّرين من الناجين إعلاناً مأجوراً في صحيفة *The New York Times* يُدينون فيه ما أشاروا إليه بعدّه "مذبحة الفلسطينيين في غزة واستمرار احتلال فلسطين التاريخية واستعمارها"[158]. جاء في البيان: "نشعر بالانزعاج من تجريد الفلسطينيين المتطرّف والعنصريّ من

إنسانيتهم في المجتمع الإسرائيلي“. نأمل اليوم أن يستجمع كثيرون من الإسرائيليين شجاعتهم للشعور بالخزي من السياسات الصادرة عن قادة من أمثال نتنياهو Netanyahu وترامب باسمهم، وليس الخزي بطبيعة الحال من كونهم يهوداً وإنّما – خلافاً لذلك – الخزي ممّا تفعله سياسات إسرائيل في الضفة بما هو أثمن إرث اليهودية نفسها. وهذا ما تخبرنا به أغنية ”Nunca quedas mal con nadie“ لفرقة Los Prisonieros وأغانٍ أخرى: أحياناً، يكون شعورك بالخزي من بلدك هو الطريقة الوحيدة للانتماء الكامل إليه وللقتال في سبيله.

157 انظر:

Carlo Ginzburg, "The Bond of Shame," in *New Left Review* 120 (November/ December 2019), p. 35–44.

158 Matthew Kassel, "NY Times Runs Ad from Holocaust Survivors Condemning Israel, Attacking Elie Wiesel," *The Observer*, August 25, 2014, https://observer.com/2014/08/ny-times-runs-ad-from-holocaust-survivors-condemning-israel-attacking-elie-wiesel/

إذاً ما الذي سيكونه الموقف الثالث إزاء جنون عالمنا المقلوب رأساً على عقب، موقفٌ سيسمح لنا بتجنّب فخاخ الموقف النقديّ من دون الوقوع مرّة أخرى في تأكيد الواقع كما هو؟ أو بمصطلحات أكثر أخلاقية: كيف سنواصل العيش بعد أن نتخلّص من أوهام الموقف النقديّ؟ جمع منظّر الكوارث (البيئية والاقتصادية وغيرها) جان بيير دوبوي Jean–Pierre Dupuy في كتابه الأخير La catastrophe ou la vie [الكارثة أو الحياة][159] تأمّلاته بشأن جائحة كورونا. يصف في بداية الكتاب التحدّي الذي مثّلته الجائحة لنظرية تأثير الكوارث الخاصة به. ينطلق في هذه النظرية من هنري برغسون Henri Bergson الذي يصف في كتابه *The Two Sources of Morality and Religion* [**منبعا الأخلاق والدين**] الأحاسيس الغريبة التي انتابته في 4 آب/ أغسطس 1914 حين أُعلنت الحرب بين فرنسا وألمانيا. المهمّ هنا هو كيفية القطع بين ما قبل ذلك اليوم وما بعده. بدت الحرب لبرغسون قبل اندلاعها ”ممكنة ومستحيلة في الآن عينه، فكرة معقّدة ومتناقضة استمرت حتّى النهاية“[160]. بعد اندلاع الحرب، صارت فجأة واقعيةً وممكنةً، والمفارقة تكمن في هذا الظهور بأثر رجعيّ للاحتمالية:

159 Jean-Pierre Dupuy, *La catastrophe ou la vie* (Paris: Editions du Seuil, 2021).

160 Henri Bergson, *Œuvres* (Paris: PUF, 1991), pp. 1110–1111.

لم أزعم يوماً أنّ في وسع المرء إدخال الواقع في الماضي وفي النتيجة

العودة بالزمن إلى الوراء. لكنّ المرء يستطيع إدخال الممكن هناك من دون أيّ شك، أو أنّ الممكن يُدخِل نفسه بالأحرى هناك في كلّ لحظة. بقدر ما يخلق نفسَه واقع جديد لا يمكن التنبؤ به، فإنّ صورته تعكس نفسها خلف نفسها في الماضي غير المحدّد: يجد هذا الواقع الجديد نفسه ممكناً في كلّ وقت لكنّه لا يبدأ في أن يكون ممكناً على الدوام إلّا في اللحظة المحدّدة لظهوره الفعليّ، وهذا سبب قولي إنّ احتماليته التي لا تسبق واقعه ستسبقه ما إن يظهر هذا الواقع.[161]

[161] Bergson, *Œuvres*, p. 1340.

كان الناس قبل اندلاع الحرب على دراية تامّة بأنّ هنالك تهديداً بنشوب نزاعٍ عسكريّ، لكنّهم لم يعتقدوا حقاً أنّها يمكن أن تنشب؛ لقد عدّوا نشوب الحرب مستحيلاً. تُعدّ المعرفة في نظريتنا المعرفية اليومية أعلى (أقوى) من الاعتقاد: تعتقد بشيء ما لا تستطيع معرفته كاملاً، وينبغي أن تنطوي المعرفة الكاملة تلقائياً على الاعتقاد. لكن في حالة برغسون، يمكنك أن تحوز المعرفة من دون أن تنطوي آلياً على الاعتقاد. حالما اندلعت الحرب، عاد موقف الناس إلى طبيعته بسرعة وتلقائية: لقد قُبلت الحرب بوصفها أمراً ممكناً. تتمثّل المفارقة في أنّ واقعية الحدوث تسبق الاحتمالية وتؤسّس لها: ما إن يُعَدّ شيء ما مستحيلاً ويتحقق في الواقع، حتّى يصبح ممكناً.

غير أنّ الأمور مع الجائحة مضت (تقريباً) بالاتجاه المعاكس. فقبل تفشّي الجائحة، نوقشت على نطاق واسع احتماليته وحتّى حتميته؛ كان الجميع يُعوّلون على هذا التفشّي، بل في وسع المرء أن يظنّ أنّ هذه المعرفة لم تكن تنطوي على عدم الاعتقاد. لذلك في حين عُدّ وقوع الكارثة الفيروسية ممكناً ما دامت متوقّعة فحسب، لم نتمكّن في الواقع من حمل أنفسنا على الاعتقاد بوقوعها حين أصابتنا حقاً. لم "تُطبَّع" وإنّما عُدّت (لا يزال كثيرون يُعدّونها) مستحيلة، وأُنكرت نتيجة مجموعة من الطرائق المختلفة (الإنكار الصريح ونظرية المؤامرة وما إلى ذلك). على المرء هنا أن يضع في عدّه الجانب الزمنيّ: حين نتحدّث عن كوارث كبرى كالجوائح والاحتباس الحراريّ، حتّى في حالة الذعر، فنحن قاعدةً عامّة لا نحدّد وقوعها في المستقبل القريب (عقد أو نحو ذلك)، كما يتجلّى ذلك في الادّعاء الذي كثيراً ما

نسمعه: "إن لم نتحرّك الآن، فعاجلاً سيكون الأوان قد فات". أو نحدّد وقوع الكارثة في منطقة بعيدة (تختفي الشعاب المرجانية شمالي أستراليا، تذوب الأنهار الجليدية...). لكنّ الجائحة وقعت توًّا وأصابتنا بكلّ قوّتها وأوشكت على التسبّب في توقّف حياتنا الاجتماعية.

إذاً، أيّ موقف أخلاقيّ علينا اعتماده في مثل هذا المأزق؟ العائق الأساسيّ الذي يعترض التزامنا الأخلاقيّ التامّ وما يمنعنا من مواجهة المشكلة بصورة فعّالة هو ببساطة الإرهاق. إنّ المفارقة في ما يُدعى إرهاق كورونا تتمثّل في أنّ ما يتعبنا في هذه الأيام – رغم الاعتقاد عموماً بأنّ الامتثال لعادات مستقرّة ومتكرّرة مسؤول عن جعل الحياة متعبة – هو تحديداً غياب مثل هذه العادات المستقرّة. تعِبنا من العيش في حالة دائمة من الاستثناء عاجزين عن الاسترخاء في حياتنا اليومية بانتظار تعليمات جديدة من الدولة تخبرنا كيف نتفاعل. نشر كثيرون، من بينهم راينر باريس Rainer Paris، مقالات تستهجن تدمير الجائحة المستمر حياتنا اليومية وتستعرض التهديدات التي تفرضها على النشاطات الرتيبة التي تحافظ على تماسك مجتمع ما.[162] كانت إحدى أفضل دعابات سام غولدوين Sam Goldwyn القائمة على المفارقات حين أُخبر بأنّ النقاد يتذمّرون من وجود كمٍّ مفرطٍ من القوالب الجامدة القديمة في أفلامه، فكتب مذكّرة إلى قسم السيناريو في شركته مفادها: "نحن بحاجة إلى مزيدٍ من القوالب الجامدة الجديدة". وهذا صحيح بصورة عامة؛ مهمّتنا الأصعب اليوم تتمثّل في خلق "قوالب جامدة جديدة" لحياتنا اليومية المعتادة.

162 انظر:

Rainer Paris, "Die Zerstörung des Alltags," WELT, September 23, 2020, https://www.welt.de/kultur/plus216264982/Corona-Die-Zerstoerung-des-Alltags.html

هنالك بالطبع فوارق ثقافية كبيرة في الكيفية التي يعمل فيها الإحساس السائد بالإرهاق. إنّ بيونغ تشول هان Byung–Chul Han محقّ تماماً حينما يشير إلى أنّ الإرهاق الناجم عن كورونا أشدّ في مجتمعات الغرب المتقدّمة لأنّ المواطنين هناك يعيشون أكثر من أيّ مكان آخر تحت ضغط الإكراه على الإنجاز:

> الإكراه لتحقيق ما نُخضع أنفسنا له... يرافقنا في أوقات فراغنا ويعذّبنا حتّى في نومنا وغالباً ما يفضي إلى ليلٍ بلا نوم. لا يمكن التعافي من الإكراه على

الإنجاز. هذا الضغط الداخليّ هو على وجه الخصوص ما يجعلنا متعبين... صعود الأنانية والتذرّر والنرجسية في المجتمع ظاهرةٌ عالمية. تُحوّلنا وسائط التواصل الاجتماعيّ إلى منتجين، أصحاب مشاريعٍ ذواتُهم أعمالٌ تجارية. تُعولِم هذه الظاهرة ثقافة الأنا التي تتسبّب في تآكل المجتمع وكلّ ما هو اجتماعيّ. ننتج أنفسنا ونعرضها دائماً. إنتاج الذات هذا – "العرض" المستمر للأنا – يجعلنا متعبين ومحبطين... التعب الأساسيّ في نهاية المطاف نوع من تعب الأنا، يكثّفه العمل من المنزل نتيجة زجّنا بعمق في ذواتنا. الآخرون الذين في وسعهم صرف انتباهنا عن أنانا مفقودون... غياب الشعائر سبب آخر للتعب الناجم عن العمل من المنزل. باسم المرونة، نفقد الهياكل والبنى الزمنية الثابتة التي تعمل على استقرار الحياة وتنشيطها.[163]

[163] Byung-Chul Han, “The Tiredness Virus,” *The Nation*, April 12, 2021, https://www.thenation.com/article/society/pandemic-burnout-society/

ربّما ظن أحدهم أنّه إذا كان التعب الاكتئابيّ ناجماً عن الطريقة التي "ننتج بها ذواتنا" باستمرار في الرأسمالية المتأخرة، فإنّ إجراءات الإغلاق المتصلة بالجائحة يجب أن تجعل الأمور أسهل؛ بما أنّنا ننعزل اجتماعياً أكثر فأكثر، من المفترض أن نتعرّض لضغوط أقلّ للإنجاز بدلاً من الآخرين. لكن لسوء الحظ التأثيرُ معاكسٌ تقريباً، إذ تنتقل تواصلاتنا الاجتماعية وتلك الخاصّة بأعمالنا إلى حدٍّ كبير لبرنامج Zoom والوسائط الاجتماعية الأخرى حيث ننهمك في عرض ذواتنا وإنتاجها بكثافة أشد، مهتمين بكيفية ظهورنا. لقد قُضيَ إلى حدّ كبير على فضاءات التواصل الاجتماعيّ التي نستطيع فيها الاسترخاء والهرب من ضغوط إظهار ذواتنا. إذاً تكمن المفارقة في أنّ "عرضنا" المستمرّ – مع ظروف الإغلاق والعمل من المنزل المتصلين بالجائحة – يتعزّز بمعنى ما: يتألق المرء بالطاقة على Zoom، ويجلس متعباً بمفرده في المنزل.

لذلك، يمكننا أن نرى بوضوح كيف أنّ شعوراً بسيطاً كالتعب هو أيديولوجيّ في نهاية المطاف، نتيجةً للعبة عرض الذات التي هي جزء من أيديولوجيتنا اليومية. حدّد ملادن دولار Mladen Dolar[164] مأزقنا باستعارة مصطلح من والتر بنيامين: جدلية في طريق مسدود. يُعَدّ هذا الموقف موقف ترقّب ننتظر فيه بقلق أن تبدأ الأمور بالتحرّك أيضاً، وأن ينفجر الجديد. لكنّ الشعور بالترقّب والخدر وتنامي عدم الاستجابة الذي يدفع أعداداً متزايدة من الناس إلى تجاهل الأخبار والتوقّف حتّى عن الاهتمام

بالمستقبل مضلِّلٌ للغاية. إنّه يخفي حقيقة أنّنا نستغرق في زمن تغيير اجتماعيّ غير مسبوق. لقد تغيّر النظام الرأسماليّ العالميّ بصورة كبيرة منذ ظهور الجائحة، فالقطيعة الكبيرة التي انتظرناها بصبر نافد تحدث بالفعل.

164 اتصال شخصي.

يتمثّل ردّ الفعل العاديّ على هذه القطيعة المستمر – الشكل السائد للتفكير بالجائحة – في مزيج من الأشكال المتوقّعة: لم تتفجّر مع الجائحة توتّراتنا الاجتماعية والاقتصادية فحسب، بل ذُكّرنا بأنّنا جزءٌ من الطبيعة ولسنا مركزها أيضاً، وأنّ علينا في النتيجة أن نغيّر طريقة عيشنا بالحدّ من فردانيتنا، وتطويرَ أشكال جديدة من التضامن وقبولَ مكاننا المتواضع وسط الحياة على الأرض، أو كما عبّرت عن ذلك جوديث بتلر Judith Butler:

> عالمٌ صالحٌ لسكن البشر يعتمد على أرض مزدهرة ليس للبشر مكان في مركزها. نعارض السموم البيئية ليس كي نتمكّن نحن البشرَ من العيش والتنفس من دون خوف التسمّم فحسب، بل كذلك لأنّه لا بدّ من أن يكون للماء والهواء حياة لا تتمحور حولنا. عندما نفكّك الأشكال الجامدة من الفردانية في هذه الأزمنة المتشابكة، ففي وسعنا تخيّل الحصة الأصغر التي يجب أن تؤدّيها عوالم البشر على هذه الأرض التي نعتمد على تجدّدها، والتي تعتمد بدورها على دورنا الأصغر والأكثر وعياً.[165]

165 Judith Butler, “Creating an Inhabitable World for Humans Means Dismantling Rigid Forms of Individuality,” *TIME*, April 21, 2021, https://time.com/5953396/judith-butler-safe-world-individuality/

وجدتُ سمتين إشكاليتين على الأقل في تلك النبذة. أوَّلا، لماذا استهداف ”الأشكال الجامدة من الفردانية“؟ أليست المشكلة اليوم هي مشكلة معاكسة: غلبة أشكال فائقة المرونة من الفردانية مهيأة لاستيعاب أيّ أوضاع جديدة، تعيش تحت ضغط دائم ”لإعادة ابتكار“ نفسها مرّة تلو أخرى وتعاني من كلّ شكل مستقرّ بوصفه شكلاً ”قمعياً“؟ فضلاً عن ذلك أليست الجائحة صادمة لهذه الدرجة تحديداً لأنّها حرمتنا من طقوسنا اليومية الثابتة والجديرة بالثقة؟

ثانياً أليس من السهولة الإصرار على أنّه ”لا بدّ من أن يكون للماء والهواء حياة لا تتمحور حولنا“ أي علينا أن نتبنّى دوراً أكثر تواضعاً على الأرض؟ يتطلّب الاحتباس

الحراريّ والتهديدات البيئية الأخرى منا تدخّلات جماعية مباشرة في بيئتنا والتوازن الهشّ لأشكال الحياة، وهي ستكون قوية بأسلوب لا يصدَّق. حين نقول إنّ ارتفاع معدّل درجة الحرارة على الصعيد العالميّ ينبغي أن يظلّ أقلّ من درجتين مئويتين فنحن نتحدّث (ونسعى لنتصرّف) مثل مديرين عامّين للحياة على الأرض، وليس مثل نوع متواضع من أنواع الحياة الأخرى. من الواضح أنّ تجدّد الأرض لا يعتمد على "دورنا الأصغر والأكثر وعياً"، بل على دورنا الضخم وهو الحقيقة الكامنة تحت مجمل الحديث عن محدوديتنا وفنائنا. ما نحصل عليه هنا هو الشكل الأقصى من الفجوة القائمة بالفعل في العلم الحديث والنظرة الذاتية. إنّ العلم الحديث والنظرة الذاتية اللذان يهدفان إلى التغلّب على الطبيعة يرتبطان بصرامة بعلاقة وثيقة مع رؤية للبشرية بوصفها مجرد نوعٍ آخر من الأنواع الحية على الأرض. إن كان علينا أن نهتم بحياة الماء والهواء أيضاً، فهذا يعني على وجه التحديد أن نكون ما دعاه ماركس "كائنات عالمية"، عندما تكون قادرة على الخروج من ذواتنا وعلى النظر إلينا بوصفنا لحظة ثانوية من عمومية الطبيعة. في عصور ما قبل الحداثة عندما تصوّرت البشرية نفسها ذروة الخليقة، تضمّن هذا التصوّر على نحو مفارق موقفاً أشدّ تواضعاً.

تلكم هي المفارقة التي علينا الإبقاء عليها في هذه الأزمنة المجنونة: قبول أنّنا نوع من بين الأنواع الحية على الأرض، وفي الوقت عينه التفكير والتصرّف ككائنات عالمية. إنّ الهرب إلى التواضع المريح لمحدوديتنا وفنائنا ليس خياراً، بل هو دربٌ يفضي إلى كارثة.

35
كومونة باريس بعد 150 عاماً

نحتفل في 2021 بالذكرى السنوية لمرور 150 عاماً على كومونة باريس التي استمرت شهرين وعشرة أيام على وجه التحديد (من 18 آذار/ مارس إلى 28 أيار/ مايو 1871). بعد هزيمة فرنسا الشائنة في الحرب مع ألمانيا ووصول الجيش الألمانيّ إلى أبواب باريس، تولّى سكان باريس سلطتهم الخاصة وسارعوا إلى تنظيمها خارج إحداثيات سلطة الدولة القائمة. وبعد أن سحقت القوات الحكومية الفرنسية كومونة باريس (وقتلت كثيرين من أعضاء الكومونة في ما دُعي "الأسبوع الدامي") أجرت الحكومة تحقيقاً في أسباب اندلاع الانتفاضة:

> استنتج التحقيق أنّ السبب الأساسيّ للعصيان المسلّح كان عدم الإيمان بالله وأنّه ينبغي تصحيح هذه المشكلة على وجه السرعة. وقرّر أنّ هنالك حاجة إلى صحوة أخلاقية أهمّ بنودها ترحيل 4500 عضو من أعضاء الكومونة إلى كاليدونيا الجديدة. هنالك هدف ذو شقّين لهذا الإجراء: تمنّت الحكومة أن يقوم أعضاء الكومونة بتمدين شعب الكاناك Kanak المحليّ في الجزيرة أيضاً، وأنّ يعيد التعرّف إلى نظام الطبيعة أعضاء الكومونة إلى جانب "الخير".[166]

166 “Paris Commune,” Wikipedia, https://en.wikipedia.org/wiki/Paris_Commune

من السهولة ملاحظة التناقض هنا: يعني القرار ضمناً الاعتراف بأنّ فرنسا نفسها فاسدة، فكي يعود أعضاء الكومونة إلى جانب الخير عليهم أن يُعزلوا بين المتوحشين (غير المسيحيين) الأقرب إلى الطبيعة ويقوموا في الآن عينه "بتمدينهم"... كيف؟ بالفساد الفرنسيّ؟ (هو تناقض مشابه لا أثر له لدى كثير من غير الراضين عن حضارتنا الفاسدة الذين يبحثون عن الأصالة بين من هم أقلّ تطوًّرا، لكنّهم في الواقع يجلبون السمّ للأخيرين بما أنّهم يُسقطون تصورهم عن الأصالة عليهم؟). لا يسع المرء إلّا أن يأمل أن يكون التأثير عكس التأثير المقصود وأن يتضامن أعضاء الكومونة المنفيون مع شعب الكاناك المستعمَر.

يسهل الادّعاء بأثر رجعيّ – من وجهة النظر المتميّزة للإدراك المتأخر – أنّ أعضاء الكومونة جعلوا افتراضياً كلّ خطأ ممكناً وأنّه كان محكوماً عليهم بالإخفاق. لكنّهم شكّلوا بدايةً جديدة جذرياً؛ كانت كومونة باريس أوّل حكومة للعمال في التاريخ، المرّة الأولى التي يستولي فيها العمال الحديثون على السلطة وهذا كافٍ لينطبق عليها ما قاله هيغل عن الثورة الفرنسية:

> لم يسبق منذ وقفت الشمس في السماء ودارت الكواكب حولها أن تصوّر الإنسان أنّ وجوده يتركّز في رأسه – في الفكر – واستلهم منه في بناء عالم الواقع. كان أناكساغوراس Anaxagoras أوّل من قال إنّ العقل يحكم العالم. ولكن حتّى الآن لم يُقدم الإنسان على الإقرار بضرورة أن تحكم الفطنة الواقعَ الروحيّ. ومن ثمّ كان هذا فجراً عقلياً مجيداً وشاركت الكائنات المفكّرة جميعاً في بهجة هذه الحقبة. حرّكت مشاعر شخصية نبيلة عقول البشر في ذلك الوقت وجاشت حماسة روحية في أرجاء العالم.[167]

167 G. W. F. Hegel, *The Philosophy of History*, trans. J. Sibree (Kitchener, ON: Batoche Books, 1990), https://www.marxists.org/reference/archive/hegel/works/hi/lectures4.htm

رغم ذلك، سرعان ما لفت التعارضُ بين الحدثين النظر: بعثت الثورة الفرنسية مشاعرَ ساميةً في الجماهير في أرجاء أوروبا كافّة (تذكّروا وصف كانط الشهير لهذا التأثير)، في حين قوبلت كومونة باريس عموماً بالرعب. بعد أن مُنيت الكومونة بالهزيمة، حضر كُتّاب "متنورون" – من جورج ساند George Sand إلى غوستاف فلوبير Gustave Flaubert – محاكماتِ أعضاء الكومونة لمشاهدة حالات البشرية المنحطّة. كذلك نبذ نيتشه Nietzsche الكومونة بوصفها آخر تمرّد للعبيد... الاستثناء النبيل هنا كان العجوز فيكتور هوغو Victor Hugo الذي حارب في سبيل منح عفوٍ عن أعضاء الكومونة المسجونين. تتمثّل الاستمرارية بين الثورة الفرنسية والكومونة في مستوى آخر. بدا استقبال الجمهور المستنير للثورة الفرنسية في طورها الأول حماسياً، لكنّ هذه الحماسة تحوّلت إلى رعب حين تولّى اليعاقبة الأمر: 1789 نعم، 1793 كلّا. كانت الكومونة على مستوى الديناميّة السياسية عودة ظهور لعام 1793، لكنّها لم تكن كذلك بالضبط، فقد حدث مع الكومونة أمر لم يحدث في 1793.

رغم إشادة ماركس بالكومونة بوصفها "شكلاً اكتُشف أخيراً" للتغلّب على الدولة وتحرير البروليتاريا – أي بوصفها أوّل اختبار لما ستبدو عليه "ديكتاتورية البروليتاريا" – علينا أن نلاحظ أنّ الكومونة كانت مفاجأة لماركس نفسه. نميل إلى التغاضي عن أنّ الماركسيين كانوا أقلية في الكومونة. في تفسير ماركس المظفّر للكومونة في كتابه *The Civil War in France* [**الحرب الأهلية في فرنسا**] الذي كتَبه في أثناء الكومونة وبعدها مباشرة، استأثر مجدًّدا بحدث همّشت فيه غالبية من الفوضويين (anarchist) والبرودونيين (Proudhonist) والباكونيين (Bakuninist) أتباعَه. فضلاً عن ذلك لم تتكوّن القاعدة الشعبية من العمال فحسب، بل كذلك من الحرفيين وأصحاب الأملاك الصغيرة وغيرهم. فقد كان الشخص الذي عدّه أعضاء الكومونة أنفسهم قائداً لهم أوغست بلانكي Auguste Blanqui، وهو اشتراكيٌّ ثوريّ فرنسيّ كان مهتمًّا بالثورة نفسها أكثر من اهتمامه بالمجتمع المستقبليّ الذي سينجم عنها. لم يؤمن بلانكي – خلافاً لماركس – بالدور المهيمن للطبقة العاملة ولا بالحركات الشعبية؛ لقد اعتقد أنّ على مجموعة صغيرة تحقيق الثورة، وستقيم هذه المجموعة ديكتاتوريةً مؤقّتة بالقوّة. ستسمح هذه المدة من الطغيان الانتقاليّ بإكمال أساس نظام جديد تُسلَّم السلطة بعدها إلى الشعب. باختصار، كان بلانكي لينينياً منذ البداية.

في 17 آذار/ مارس 1871، أمرَ أدولف تيير Adolphe Thiers – القائم بأعمال رئيس الحكومة الفرنسية في حالة الارتباك التي أعقبت هزيمة فرنسا في الحرب التي شنّتها على ألمانيا – باعتقال بلانكي لدرايته بما يمثّله من تهديد. بعد بضعة أيام، اندلع العصيان المسلّح الذي عملت عليه الكومونة وانتُخب بلانكي رئيساً للكومونة المتمرّدة. عرض أعضاء الكومونة إطلاق سراح سجنائهم جميعهم إذا أطلقت حكومة تيير سراح بلانكي، لكنّ عرضهم قوبل بالرفض. ماركس نفسه كان مقتنعاً بأنّ بلانكي – رغم نقده له – هو القائد الذي افتقدته الكومونة. لم يركّز بلانكي على برنامج الثورة. لقد كان هدفه تشكيل مجموعة منظّمة ستسحق الدولة وتستولي على السلطة. لا عجب في أنّ لينين نفسه رقص على الثلج في باحة الكرملين عندما استمرت مدة السلطة البلشفية أكثر من مدة الكومونة بيوم. ولكن هل كان النظام البلشفي وريثاً حقيقياً للكومونة؟ بلى، فقد شرعن البلاشفة عهدهم بدايةً بشعار: "كلّ السلطة للسوفياتات (المجالس المحلية)!" لكنّهم سرعان ما حلّوها.

إذاً، لماذا فاجأت الكومونة ماركس؟ ما الذي تعلّمه منها؟ لقد تصوّر الثورة قبل الكومونة مجموعةً من الإجراءات تنفّذها سلطة مركزية (تأميم المصارف ورعاية صحية شاملة وتعليم عام مجّانيّان وغير ذلك ممّا ورد في نهاية البيان الشيوعيّ). تمثّلت "مفاجأة" الكومونة في التنظيم الذاتيّ المحليّ للشعب ومحاولتها إقامة ديموقراطية تنمو من الأسفل، أي من المجالس المحلية بمشاركة فعّالة من الشعب (لم يقم اليعاقبة بمثل هذه الخطوة فقد كانت تعني في حالتهم حلّ الجمعية الوطنية، وهو السبب في فقدانهم السلطة بمجرّد تصويت في الجمعية).

أيمكن أن تظلّ الكومونة نموذجاً لنا اليوم؟ حين يُستنفد الشكل السائد للتمثيل السياسيّ، فهل في إمكان مشاركتنا السياسية أن تعيش حياة جديدة نتيجة يقظة الشعب المباشرة؟ بلى، لكنّ درس التاريخ القاسي يتمثّل في أنّ الصعوبة تأتي لاحقاً، أي حينما تتحوّل الحماسة الشعبية إلى تنظيم سياسيّ فعّال ببرنامج محدّد. تذكّروا الطابع اللامركزيّ و"الفوضويّ" لمحتجّي "السترات الصفراء" في فرنسا وافتقارهم إلى القيادة. في وسع المرء أن يزعم أنّ هذا الطابع كان على وجه التحديد مصدر قوّتهم وساعدهم في كشف الفجوة بين التجربة العادية والتمثيل السياسيّ. بدلاً من مفوّض واضح يوجّه المطالب إلى الدولة ويطرح نفسه في النتيجة شريكاً في الحوار، نحصل على ضغط شعبيّ متعدّد الأشكال، وما يضع الذين يتولّون السلطة في حالة ذعر هو تحديداً أنّ هذا الضغط لا يمكن أن يتوضّع في عدو واضح، إنّما يظلّ نسخة لما يدعوه أنتونيو نيغري Antonio Negri "الحشد الغفير". إذا عبّر مثل هذا الضغط عن نفسه بمطالب ملموسة، فلن تكون هذه المطالب متعلّقة بما يتمحور الاحتجاج حوله... لكن لا بدّ في مرحلة ما أن تترجم المطالب الهيستيرية نفسها على هيئة برنامج سياسيّ (أو ستختفي). تعبّر مطالب المحتجّين عن استياء أعمق من النظام الرأسماليّ الديموقراطيّ الليبراليّ بذاته فلا يمكن تلبية المطالب إلّا نتيجة عملية التمثيل السياسيّ البرلمانيّ. بعبارة أخرى: تنطوي الاحتجاجات على مطلب أعمق بمنطق مختلف لتنظيم سياسيّ اقتصاديّ، وهنا تظهر الحاجة إلى قائد جديد لتفعيل هذا المطلب الأعمق.

الحلّ لا يتمثّل في التنظيم الذاتيّ للمجتمع المدنيّ وتعبئته بطريقة ما للاستيلاء على الدولة مباشرة والحلول محلّها. الحكم المباشر للحشد الغفير مجرّد وهم، فمن الضروريّ كقاعدة استدامته في جهاز دولة قويّ.

قال ترامب في خطاب تنصيبه في 2017: "لاحتفال اليوم معنىً شديد الخصوصية لأنّنا لا نقوم اليوم بمجرّد نقل السلطة من إدارة إلى أخرى أو من حزب إلى آخر، لكنّنا ننقل السلطة من واشنطن العاصمة ونعيدها إليكم، أنتم الشعب"[168]. حتّى الآن كانت النخُب تَحكم، ولكن: "كلّ هذا يتغيّر بدءاً من الآن وهنا لأنّ هذه اللحظة هي لحظتكم وإنّها تخصّكم. إنّها تخصّ كلّ المجتمعين هنا اليوم وكلّ من يشاهدنا في أرجاء أميركا كافّة. إنّه يومكم". ينبغي ألّا نأخذ هذه الكلمات مجرَّد ديماغوجية رخيصة، وإنّما مؤشر على ما يُعَدّ مكمن الخطأ في صميم فكرة سلطة الشعب المباشرة. وعلى طريقة بلانكي، حاول الشعب بالتأكيد الاستيلاء على السلطة باقتحام مبنى البرلمان في كانون الثاني/ يناير 2021. بالطبع، كان "الشعب" في هذه الحالة الطبقة الوسطى البيضاء التي تعرّضت امتيازاتها للتهديد، لكنّ تحرّكاتهم كانت ردًّا على أزمة أعمق في التمثيل.

168 "2017 Donald Trump Inauguration Speech Transcript," January 20, 2017, *POLITICO*, https://www.politico.com/story/2017/01/full-text-donald-trump-inauguration-speech-transcript-233907

أيكون الحلّ هنا ضرباً من العودة إلى الكومونة برؤيتها وممارستها للديموقراطية المباشرة؟ هل علينا أن نعارض حشد مبنى البرلمان "الزائف" وحشد "السترات الصفراء" "الأصيل"؟ لعلّ ما نشهده اليوم مع سياسات "ما بعد الحقيقة" يؤذن بنهاية كامل فكرة الإرادة لشعب أصيلة وحقيقية، عادةً ما يجري التلاعب بها وتشويهها، إنّما علينا الكفاح من أجل تمثيلها اللائق. الوسيلة الوحيدة لهزيمة شعبوية ترامب ليست في الزعم بأنّها لا تمثّل الشعب حقاً وأنّه ينبغي أن تعبّر إرادة الشعب الحقيقية عن نفسها خارج الشعبوية؛ حقيقة أنّه يمكن "التلاعب" بإرادة الشعب بمثل هذه الطريقة الشاملة تشير إلى طابعها الخياليّ. وعلى طريقة هيغل، يجب في النتيجة قلب نقد التمثيل إلى نقد ما يُفترض أن يمثّله التمثيل. وللوصول إلى هذه النقطة علينا إجراء مقارنة ليس بين الكومونة والوضع الحالي، بل بين الوضع الحالي والثورة الفرنسية في 1848. تذكّروا وصف ماركس الذائع الصيت بجدارة لموقف الفلاحين السياسيّ بوصفهم طبقة في كتاباته عن ثورة 1848:

> يشكّل الفلاحون الصغار كتلة ضخمة يعيش أعضاؤها في ظروف متشابهة ولكن دون أن يدخلوا في علاقات متشعبة في ما بينهم. إنّ أسلوبهم

في الإنتاج يعزلهم الواحد عن الآخر بدلاً من أن يدفعهم إلى علاقات متبادلة... بهذه الطريقة، تتكون الجمهرة العظمى من الأمة الفرنسية بمجرد إضافة مقادير متناظرة مثلما تُكوَّن رؤوس البطاطا في كيس بطاطا... إنّهم لا يستطيعون تمثيل أنفسهم ولا بدّ أن يمثّلهم غيرهم. ولا بدّ لممثّلهم أن يظهر في الوقت عينه سيداً لهم وسلطةً فوقهم وسلطةً حكومية غير محدودة تحميهم من الطبقات الأخرى وترسل إليهم الغيث وضوء الشمس من فوق. ولهذا، يجد النفوذ السياسيّ للفلاحين الصغار تعبيره النهائيّ في واقع أنّ السلطة التنفيذية تُخضِع المجتمع لنفسها.[169]

[169] Karl Marx, “The Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte,” in *Marx and Engels Selected Works* (Moscow: Foreign Languages Publishing House, 1955), vol. 1.

ألم يكن الأمر عينه في مصر عندما أطاحت احتجاجات الربيع العربيّ – بمطالبها بتمثيل سياسيّ لائق – بنظام مبارك وجاءت بالديموقراطية؟ لكن بالديموقراطية تَوجّه أولئك غير الممثّلين إلى التصويت وأوصلوا "الإخوان المسلمون" إلى السلطة، في حين هُمّش المشاركون في الاحتجاجات الشعبية وغالبيتهم من شبّان الطبقة الوسطى المتعلمين بأجندة الحرية الخاصّة بهم. تنفجر اليوم مشكلة التمثيل في بلدان الغرب المتطوّرة أيضاً، إذ إنّ طبقات بأسرها لا تُمثِّل نفسها، بل ترفض بقوّة أن تكون ممثَّلة لأنّها تتصوّر أنّ شكل التمثيل بذاته زائف، وعندما يحتشدون يكون احتشادهم في ظلّ راية زعيم شعبويّ. ربما يكون ما يلي أحد التعريفات الموجزة للشعبوية: حركة الذين لا يثقون بالتمثيل السياسيّ. إنّ ما قاله ماركس عن احتجاجات الفلاحين الفرنسيين في 1848 يناسب تماماً الهجوم على مبنى البرلمان: "دخولهم في الحركة الثورية بمكرهم الأخرق وسذاجتهم المسرفة وسموهم البليد وتطيّرهم المحسوب وعرضهم الهزليّ المثير للشفقة ونشازهم التاريخيّ الغبيّ المدروس والعرض التهريجيّ التاريخيّ عالمياً والهيروغليفية غير المفهومة بالنسبة إلى العقل المتحضّر، اتّسم هذا الرمز بكلّ جلاء بسِمات تلك الطبقة التي تمثّل البربرية في قلب الحضارة".[170] كان المهاجمون "الثوريون" ماكرين على نحو أخرق (يظنون أنّهم يخدعون أيّ شخص بكلماتهم الجوفاء) وساذجين بإسراف (في اتّباع ترامب تجسيداً للحرية الشعبية) وسامين ببلادة (يستحضرون التقليد العظيم للآباء المؤسّسين الذي خانته حكومة الولايات المتحدة)؛ لقد تحرّكوا

بموجب تطيٍّر محسوب (لم يؤمنوا في الواقع بنظريات المؤامرة الخاصة بهم التي اعتمدوا عليها) وعرضوا مهزلة مثيرة للشفقة (عبر محاكاة الحماسة الثورية) ومثّلوا نشازاً تاريخياً غبياً مدروساً (بالدفاع عن قيم الحرية الأميركية القديمة)... بناءً على هذا كانوا حقاً "هيروغليفية غير مفهومة": انفجار بربرية معادية للتنوير أدخلت تناحرات خفية إلى حضارتنا.

170 Karl Marx, "The Class Struggles in France, 1848 to 1850," in *Selected Works*, vol. 1 (Moscow: Progress Publishers, 1969), https://www.marxists.org/archive/marx/works/1850/class-struggles-france/ch02.htm

غالباً ما يُلتقط هذا الاتجاه المعادي للتنوير الذي يسم عصرنا في مصطلح "حقبة ما بعد الحقيقة". يقودنا حادث وقع أخيراً في نظام الولايات المتحدة القانونيّ إلى جوهر هذه الظاهرة العجيبة. ففي آذار/ مارس 2021، رفعت شركة Dominion Voting Systems المختصة بأجهزة وبرمجيات التصويت الإلكترونيّ دعوى تشهير على المحامية اليمينية المؤيدة لترامب سيدني باول Sidney Powell لادّعاءاتها أنّ الشركة – مصنّعة أجهزة التصويت الإلكترونيّ التي استخدمتها بعض المقاطعات في انتخابات 2020 – حوّلت أصواتاً لمصلحة الرئيس ترامب إلى أصواتٍ لمصلحة الرئيس المنتخب بايدن (فضلاً عن ادّعائها أنّ للشركة ارتباطات بنظام الراحل هوغو شافيز في فنزويلا). كان ردّ باول على الدعوى القضائية مثيراً للعجب، فقد زعمت في دعوى قضائية جديدة أنّ العقلاء لن يصدّقوا تأكيداتها بحدوث تزوير بعد انتخابات 2020 الرئاسية:

> بالفعل، وصف المدّعون أنفسُهم البيانات المطروحة بأنّها "اتّهامات جامحة" و"ادّعاءات غريبة"، وعدّوها مراراً وتكراراً "مستبعدة أصلاً"، بل "مستحيلة". إنّ مثل هذه التوصيفات عن التصريحات التشهيرية المزعومة تدعم أكثر موقف المدّعى عليهم بأنّ العقلاء لن يقبلوا مثل هذه التصريحات بوصفها حقائق، إنما ينظرون إليها بوصفها مجرّد ادّعاءات تنتظر أن تتفحّصها المحاكم نتيجة عملية التخاصم.[171]

171 Katelyn Polantz,"Sidney Powell Argues in New Court Filing that No Reasonable People Would Believe Her Election Fraud Claims," CNN, March 23, 2021, https://edition.cnn.com/2021/03/22/politics/sidney-powell-dominion-lawsuit-election-fraud/index.html

يستند هذا المنطق إلى أنّ هذه التصريحات تشهيرية حقاً (يمكن مقاضاة المرء بسببها) إذا أخذها على محمل الجدّ بعض العقلاء على الأقلّ. إذاً، إن وصِفت التصريحات الإشكالية بأنّها "غريبة" و"مستبعدة"، أي إن لم يكن ممكناً أن يأخذها على محمل الجدّ أشخاص عقلاء، فهي ليست تشهيراً ولا يمكن مقاضاة المرء بسببها... في وسع المرء أن يتخيّل دفاعاً عن هتلر مُصاغاً بالمصطلحات عينها، أي أنّ فكرته عن مؤامرة اليهود البلاشفة كانت غريبة للغاية ومستبعدة، ومن غير الممكن لشخص عاقل أن يأخذها على محمل الجدّ... تكمن المشكلة في أنّ ملايين لاقوا حتفهم بسبب هذه الفكرة الغريبة. يصدق أمر مماثل (رغم أنّه ليس من الوزن عينه بطبيعة الحال) على باول: تسبّبت تصريحات مثل تصريحاتها في حشد ملايين وقرّبت الولايات المتحدة من حافة الحرب الأهلية وتسبّبت في وقوع قتلى.

السؤال الأساسيّ هو: إذا كانت باول تدرك حين نشرت تشهيراتها أنّ العقلاء جميعهم سيرونها سخيفةً وباطلة، فلماذا نشرتها؟ للتلاعب بحشد من غير العقلاء وإغوائهم عن طريق تعبئة غرائزنا غير العقلانية؟ الأمور أكثر تعقيداً هنا: نعم، كانت باول مدركة أنّه لا توجد أسس عقلانية لتشهيراتها وكانت تعلم أنّها تنشر أكاذيب، لكن بدا الأمر كأنّها وقعت في فخ نصبته بنفسها فتماهت مع ما كانت تعلم أنّه ليس صحيحاً. لم تكن متلاعبةً تستثني نفسها من أكاذيبها. لقد كانت بالضبط في موضع "ضحاياها" عينه.

تتّخذ تشهيراتها شكل الشائعات، لكنّها شائعات ارتقت إلى مرتبة الخطاب العام. تُمثّل باول الحقبة الجديدة التي تنشط فيها الشائعات صراحةً في الفضاء العام وتشكّل رابطاً اجتماعياً.[172] يُعَدّ أسلوبها في الإنكار الولعيّ التزاماً بالإنكار التقليديّ في ما يتعلّق بالكرامة العلنية لشخص ما ("أعلم أنّ لزعيمنا خطايا خاصة، لكنّني سأتصرّف كأنّه خالٍ منها للحفاظ على كرامته"): "رغم أنّني لا أعلم في الواقع إذا كانت هذه الشائعات صحيحة، فسأنشرها كأنّها صحيحة...".

172 انظر:

"Four Reflections on Power, Appearance, And Obscenity," in Slavoj Žižek, *Pandemic! 2: Chronicles of a Time Lost* (New York, NY: OR Books, 2020).

واجهتُ منذ عقود منطقاً مشابهاً عندما خُضت نقاشاً حاداً مع معادٍ للسامية يُدافع عن صحة "بروتوكولات صهيون" (وصف لخطة يهودية سرية للهيمنة على العالم

اختلقتها الشرطة السرية القيصرية الروسية قرابة 1900)، أشرت إلى الكيفية التي أُثبت فيها بأسلوب مقنع أنّها مختلقة (كثير من الأخطاء الواقعية في النصّ توضّح بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّها زائفة)، لكنّ المعادي للسامية أصرّ على أنّ البروتوكولات حقيقية. وفي معرض ردّه على اللوم الواضح بصدد وجود أخطاء في النصّ، حاجج في أنّ اليهود أنفسهم هم الذين أقحموا الأخطاء لإظهار أنّ البروتوكولات مزيفة إذ لا يأخذها الأغيار على محمل الجدّ في حين يكون من هم على دراية بكلّ شيء قادرين على استخدامها مبدأً توجيهيًّا خالياً من الشكوك.

تحاول سيدني باول أن تسوّق لنا حقيقةً ما حاول المعادي للسامية المجنون تخيّله، فهي ترفض ما قالت عنه بنفسها إنّه غريب ومستبعد ويجب ألّا يؤخذ على محمل الجد إذ تتأكّد أنّ كلماتها ستستمر في إحداث تأثيرات حقيقية. على هذا النحو، تعمل الأيديولوجيا في حقبة ما بعد الحقيقة الخاصّة بنا. لن يعود في وسعنا اليوم – نحن عالقون في عملية تفكّك تدريجيّ للفضاء العام المشترك – التعويل على الثقة بالشعب وبأنّه ما لم نمنح الشعب فرصة تحطيم سحر التلاعبات الأيديولوجية، فلن يتوصّل إلى إدراك حقيقتها الملموسة. هنا نواجه المحدودية المهلكة لطابع "انعدام القيادة" لدى المحتجّين الفرنسيين – هو طابعٌ أُشيدَ به كثيراً – ولتنظيمهم الذاتيّ الفوضويّ؛ ليس كافياً لقائد أن يصغي إلى الشعب ويصيغ اهتماماته ورغباته في برنامج. كان العجوز هنري فورد Henry Ford محقًّا بتجاهل ما أراده الناس عندما طوّر السيارة المنتَجة على نحو متسلسل، وكما عبّر عن ذلك بإيجاز: لو سألت الناس ماذا يريدون، فسيكون جوابهم: "حصاناً أفضل وأقوى لجرّ عرباتنا". ينطبق الأمر عينه على قائد سياسيّ نحتاجه اليوم. أراد محتجّو "السترات الصفراء" حصاناً أفضل (أقوى وأرخص)؛ المفارقة في هذه الحالة أنّهم أرادوا وقوداً أرخص لسياراتهم. ينبغي أن تتاح لهم رؤية مجتمع لا تكون فيه أسعار الوقود مهمّة مثلما لم يعد سعر علف الحصان مهمًّا بعد إدخال السيارات.

لكنّ هذا بالطبع ليس سوى جانب واحد من جوانب كونك قائداً ناجحاً. الجانب الآخر، الجانب النقيض، هو القدرة على اتّخاذ قرارات صعبة عندما لا يكون تجنّبها ممكناً: أيّ مجموعة من الجنود ستضحي في ساحة المعركة وأيّ مريض سيُترك ليموت عندما لا تتوافر موارد كافية وما إلى ذلك. وكما يقول طبيب سابق في المسلسل التلفزيونيّ New Amsterdam: "يعتمد القادة خيارات تجعلهم لا ينامون

الليل. إن نمت بهناء، فلن تكون منهم". تكمن المفارقة في أنّ التجاوز الذي لا تستطيع استيعابه آليات التمثيل السياسيّ الانتخابيّ لا يمكنه أن يجد تعبيراً ملائماً إلّا في قائد أو هيئة قيادية قادريْن على فرض مشروع اجتماعيّ واقتصاديّ بعيد المدى ولا تقيّده مدة محدودة تفصل بين انتخابيين... ألا يبدو ذلك مثل عسكرة شاملة؟ بلى، الشيوعية المقبلة ستكون شيوعية حرب أو لن تكون هنالك أيّ شيوعية.[173]

173 للاطلاع على مناقشة أكثر تفصيلاً، انظر:

Fredric Jameson et al., ed. Slavoj Žižek, *An American Utopia: Dual Power and the Universal Army* (London: Verso Books, 2016).

هذه هي الكيفية التي ينبغي لنا أن نتأمل فيها إرث الكومونة اليوم: بدلاً من الضياع في ذكريات الحنين إلى الماضي علينا التركيز على كيفية تخيّل تعبئة شعبية اليوم في ظروف طبقة عاملة مشتّتة يجتازها عدد من المصالح المتضاربة. وكما أدرك هيغل تمام الإدراك، لا يعكس قائد (أو هيئة قيادة جماعية) محتوىً أساسياً يسبق وجودها، أي "إرادة الشعب الحقيقية". يخلق القائد الحقيقيّ الشعبَ حرفياً بوصفه عاملاً سياسياً موحَّداً انطلاقاً من فوضى مشوشة من ميول غير متّسقة. حين اندلعت في صيف 1953 احتجاجات العمال في برلين الشرقية، نظَم بريخت قصيدة قصيرة بعنوان "الحل":

بعد انتفاضة 17 حزيران/ يونيو
وزع أمين عام اتحاد الكتاب
منشورات في شارع ستالين
تنصّ على أنّ الشعب
قد خسر ثقة الحكومة
ولا يمكنه استعادتها
سوى بجهود مضاعفة. ألا يكون من الأسهل
على الحكومة في هذه الحالة
أن تحلّ الشعب
وتنتخب غيره؟

عادة ما تُقرأ هذه القصيدة بوصفها استنكاراً ساخراً لغطرسة الحزب، ولكن ماذا لو أخذناها وصفاً واقعيًّا لما يحدث في كلّ عملية تحرّرية جذرية حقيقية تعيد فيها القيادة حرفياً خلق الشعب، و"تنتخب" شعباً آخر كقوّة سياسية منضبطة؟ علينا أن نتخلّى عن الحلم أو الأمل في أنّ النسوية ومعاداة العنصرية ونضالات مجتمع الميم وحماية الأقليات ونضالات العمال والنضالات من أجل حرية التعبير وأعداء خطاب الكراهية وجهود حرية المعلومات وغير ذلك ستنضم في لحظة ما إلى حركة كبيرة واحدة تسير فيها النسويات المتحولات والمسلمات جنباً إلى جنب ويحتجّ فيها الطلاب الذين يشعرون أنّ حريتهم الفكرية مقيّدة مع العمال الذين لا تسمح لهم أجورهم بالبقاء على قيد الحياة. ومن هذا المنطلق، اشتكى آلان باديو من أنّ المشاركين في احتجاجات Occupy Wall Street [احتلّوا وول ستريت] وأولئك المحتجّين في تركيا ومصر في 2011 جاء معظمهم من الطبقات الوسطى المتعلّمة ولم يحرّكوا الطبقة العاملة الصامتة. بإشارة باديو إلى تحرَّكيْ "السترات الصفراء" في فرنسا و"احتلوا وول ستريت"، يخطو خطوةً إضافيةً إلى الأمام ويقول إنّ الطبقة العاملة في العالم الغربيّ المتطوّر هي بالفعل جزء مما دعاه لينين "أرستقراطية العمال" التي تميل إلى العنصرية وتفسدها الطبقة الحاكمة والمحرومة أيّ إمكانية تحرّرية إذ إنّها لم تعد حليفاً. لقد انقضى حلم المشهد الشهير في 1968 حين ذهب الطلاب إلى مصنع سيارات رينو ليلتقوا بالعمال فيه. علينا بالأحرى أن نحاول إقامة رابط بين المثقفين المتعطلين عن العمل وغير المستقرين وبين الطلاب المستائين والمهاجرين... ما يتربص خلف هذه الجهود هو بحث يائس عن تجسّد حاليّ لعامل تحرّريّ حقيقيّ سيحلّ محلّ طبقة ماركس العاملة. مرشح باديو هو "البروليتاريون الرحّل".

بفقدان مرجعية أساسية للشعب على المرء أن يتخلّى أخيراً عن أسطورة براءة الكومونة كأنّ أعضاءها كانوا شيوعيين قبل السقوط (إرهاب القرن العشرين "الشموليّ") وكأنّ حلم التعاون المشترك المباشر في الكومونة تحقّق من دون هياكل وسيطة مستلَبة، حتّى لو أكل الناس الفئران فعلياً... ماذا لو كانت مهمتنا الصحيحة اليوم – بالتناقض مع كيفية التغلّب على استلاب مؤسّسات الدولة وإقامة مجتمع يتّسم بشفافية ذاتية – عكس ذلك تقريباً: إحداث "استلاب جيد" وابتكار نمط مختلف من سلبية الغالبية؟ تتمثّل صيغة تعبئة الحشد في نسخة سياسية من

عبارة فرويد “Wo Es war, soll Ich Werden” (سيحل الوعي محلّ اللاوعي): لا بدّ أن يحلّ التنظيم الحزبيّ محلّ الحشد الهيوليّ، أو كما كان هيغل سيعبّر: حيث يتخمّر الجوهر الشعبيّ الهيوليّ لا بدّ أن تفرض الذات الحسنة التنظيم النظامَ والوجهة. لكن علينا اليوم إضافة انعطافة أخرى إلى هذه الصيغة وأن نتحرّك من الذات رجوعاً إلى الجوهر، أي إلى جوهر آخر تخلقه الذات ونظام اجتماعيّ جديد نتمكّن فيه من العيش بثقة ومتابعة حياتنا.

36
لماذا لا أزال شيوعياً

أنا أوّل من يعترف بأنّ الحلم الشيوعيّ للقرن العشرين قد ولّى، وموقفي بعيدٌ بقدر ما يمكن تخيّله من النغمة الغبية القديمة بأنّ الشيوعية فكرة جيدة لم يفسدها إلّا المحرّفون الشموليون. لا، هنالك مشكلات بالفعل في النظرة الأصلية فينبغي إخضاع ماركس ذاته لإعادة تقويم صارم أيضاً. بلى، عمل الشيوعيون الذين تولّوا السلطة على أمور جيدة، القائمة طويلة: التعليم والصحة ومحاربة الفاشية، لكنّ انتصارهم الحقيقيّ الوحيد عموماً حدث في الصين بعد 1980، قصة النجاح الاقتصاديّ الأعظم على ما يقال في تاريخ البشرية إذ صعد مئات الملايين من حياة الفقر إلى حياة الطبقة الوسطى. كيف حقّقت الصين ذلك؟ عُرّف اليسار في القرن العشرين بمعارضته اتجاهين أساسيين في الحداثة: سيطرة رأس المال بفردانيته العدائية وديناميّاته الاستلابية، وسلطة الدولة البيروقراطية التسلّطية. ما نحصل عليه في صين اليوم هو تحديداً دمج هاتين السمتين في شكله الأقصى: دولة تسلّطية قوية وديناميّات رأسمالية متوحشة، وهذا الشكل الأكثر جدوى من اشتراكية اليوم... ولكن أهذا ما أريده؟

تصير الصين اليوم نموذجاً لما دعاه هنري فاريل Henry Farrell ”السلطوية الشبكية“؛ مفاد الفكرة أنّه

> إذا تجسّست دولة على الناس بما يكفي وسمحت لأنظمة التعلّم الآليّ بتجسيد سلوكهم والردّ عليه، فمن الممكن خلق ”منافس أكثر كفاءة في إمكانه أن يهزم الديموقراطية في عقر دارها“ عبر توفير احتياجات كلّ شخص بطريقة أفضل ممّا تستطيع الديموقراطية توفيره. الصين مثال جيد عن هذا الأمر. يقول مؤيّدو الصين ومنتقدوها إنّها بالتعلّم الآلي والمراقبة الشاملة تخلق أوتوقراطية مستدامة قادرة على حلّ ”المعضلة التسلّطية الأساسية“: ”جمع المعلومات وتبويبها والاستجابة بما يكفي لاحتياجات مواطنيها كي

تبقى مستقرّة". لكنّ فاريل يخمّن أنّ هذا ليس ما يحدث في الواقع، فالصين في الواقع غير مستقرّة على نحو لا يُصدّق (إضرابات مفاجئة وتحرّكات مناصرة للديموقراطية لا يمكن إيقافها ومعسكرات اعتقال وفقاعات الديون وانهيار التصنيع وعمليات اختطاف متكرّرة وفساد واسع النطاق وما شابه).[174]

174 Cory Doctorow, "Networked Authoritarianism May Contain the Seeds of Its Own Undoing," BoingBoing, November 25, 2019, https://boingboing.net/2019/11/25/mote-in-the-cctvs-eye.html

لقد اكتشف الغرب استخداماً أفضل للرقابة الرقمية: ديموقراطية شبكية يدعوها بعضهم "رأسمالية المراقبة" إذ يُتسامح مع الديموقراطية والحرية ولكنّهما تُفرغان من فعاليتهما. يوضّح هذا الشكل الجديد من الرقابة الرقمية سبب تمرّد الناس في الديموقراطيات الليبرالية: إنّهم لا يتمرّدون على الحرية بل يتمرّدون على ما تقوله لهم تجاربهم اليومية، وهو أنّ الديموقراطية الشبكية هي بمعنىً ما أشدّ استبداداً من السلطوية الشبكية.

من الشائع اليوم التشديد على الطابع "الإعجازيّ" لسقوط جدار برلين قبل ثلاثين عاماً. لقد كان أشبه بحلم تحقّق وتحقّق ما لا يمكن تخيّله وما لم يكن ممكناً قبل بضعة أشهر من ذلك الوقت: تفكّك الأنظمة الشيوعية التي انهارت كبيت من الورق. ومن كان في وسعه في بولندا أن يتخيّل انتخابات حرّة يفوز فيها ليخ فاليسا Lech Wałęsa رئيساً للبلد؟ رغم ذلك لا بدّ من إضافة أنّ "معجزة" أكبر حدثت بعد بضع سنواتٍ فحسب في 1995: عودة الشيوعيين السابقين إلى السلطة نتيجة انتخابات ديموقراطية حرّة هُمّش فيها فاليسا وباتت شعبيته أقلّ بكثير من شعبية الجنرال فويتشخ ياروزلسكي Wojciech Jaruzelski الذي سحق قبل عقد ونصف حركة "التضامن" بانقلاب عسكريّ. أتت المفاجأة الثالثة بعد عقدين: تقع بولندا حالياً في قبضة الشعبويين اليمينيين الذين يرفضون الشيوعية والديموقراطية الليبرالية معاً... إذاً ما الذي جرى هنا وما الذي أفضى إلى هذه التقلّبات غير المتوقّعة؟

قد يميل المرء إلى توضيح ذلك الأمر بمصطلحات "الواقعية الرأسمالية" إذ كانت المشكلة ببساطة أنّه لم تكن لدى الأوروبيين الشرقيين صورة واقعية عن الرأسمالية وكانت لديهم توقّعات صبيانية طوباوية. في الصباح التالي لحماسة أيام النصر المُسكرة، كان على الناس أن يصحوا ويخضعوا لعملية مؤلمة لتعلّم قواعد الواقع الجديد، أي الثمن المدفوع مقابل الحرية السياسية والاقتصادية. يبدو الأمر

كأنّ على اليسار الأوروبيّ أن يموت مرتين: أوّلًا يساراً شيوعيًّا "شموليًّا"، ثمّ يساراً ديموقراطياً معتدلاً راح يتراجع تدريجياً منذ تسعينيات القرن العشرين.

غير أنّ الأمور أكثر تعقيداً بقليل، فحينما احتجّ الناس على الأنظمة الشيوعية في أوروبا الشرقية لم تكن الرأسمالية هي ما يدور في خَلد الغالبية العظمى من الناس، فلقد أرادوا ضماناً اجتماعياً وتضامناً ونوعاً تقريبياً من العدالة. أرادوا حرية أن يعيشوا حياتهم خارج رقابة الدولة وأن يجتمعوا ويتحدّثوا كما يحلو لهم وحياة بسيطة حافلة بالصدق والإخلاص والتحرّر من التلقين الأيديولوجيّ البدائيّ والنفاق السافر السائد... باختصار شديد، كانت المُثُل الغامضة التي قادت المحتجّين مستمدّة إلى حدٍّ بعيد من الأيديولوجيا الاشتراكية نفسها. وكما تعلّمنا من فرويد: يعود ما هو مكبوت بصورة مشوّهة. في أوروبا، عاد مكبوت الاشتراكية في مخيلة المنشقّين على هيئة شعبوية يمينية.

أثبت يورغان هابرماس في تفسيره سقوط الشيوعية في أوروبا الشرقية أنّه آخر أتباع يسار فوكوياما، لقبوله الصامت بأنّ النظام الديموقراطيّ الليبراليّ القائم هو أفضل نظام ممكن وأنّه ينبغي لنا ألّا نتحدى فرضياته الأساسية وفي الآن عينه علينا أن نكافح لجعله أكثر عدالة. ولهذا رحّب تحديداً بما عدّه يساريون كُثر قصوراً كبيراً في الاحتجاجات المناهضة للشيوعية في أوروبا الشرقية: حقيقة أنّ هذه الاحتجاجات لم تكن بدافع أيّ رؤًى جديدة لمستقبل ما بعد الشيوعية. وعلى حدّ تعبيره، كانت ثورات أوروبا الوسطى والشرقية مجرّد ثورات "تصحيحية" أو "استدراكية" تَمثّل هدفها في تمكين تلك المجتمعات من الظفر بما كان الأوروبيون الغربيون يمتلكونه بالفعل. بعبارة أخرى: العودة إلى الحالة الطبيعية التي تعيشها أوروبا الغربية.

مع ذلك، إنّ حركة "السترات الصفراء" واحتجاجات هونغ كونغ والاحتجاجات المشابهة الأخرى اليوم (في إسبانيا وكوريا الجنوبية وأماكن أخرى) ليست بتاتاً تحرّكات استدراكية، فهي تُجسّد الانقلاب غير الاعتياديّ الذي يميّز الوضع العالميّ الحالي. لقد عاد التناحر القديم بين "الناس العاديين" والنُخب الرأسمالية المالية مع الانتقام، أي مع انفجار "الناس العاديين" احتجاجاً على النُخب المتّهمة بأنّها تتعامى عن معاناتهم ومطالبهم. غير أنّ الجديد هو إثبات اليمين الشعبويّ أنّه أكثر براعة من اليسار في توجيه هذه الانفجارات نحو وجهته. لذلك، كان آلان باديو محقًّا تماماً بقوله بشأن "السترات الصفراء": "*Tout ce qui bouge n'est pas rouge*" (ليس كلّ ما

يتحرّك – يثير الاضطرابات – أحمر). يشارك اليمين الشعبويّ حالياً في تاريخ عريق من الاحتجاجات الشعبية التي كانت بمعظمها يسارية. بل إنّ بعض ثورات اليوم يمكن عدها حالة ممّا يُدعى أحياناً ثورات الأغنياء. تذكّروا أنّ كتالونيا – مع مقاطعة الباسك – هي الجزء الأغنى من إسبانيا وأنّ هونغ كونغ أغنى بكثير من الصين من حيث معدّل الدخل الفرديّ.

إذاً هنا تكمن المفارقة التي علينا مواجهتها: خيبة الأمل الشعبوية من الديموقراطية الليبرالية هي الدليل على أنّ ثورة 1989 لم تكن مجرّد ثورة استدراكية. كان هدف الاحتجاجات التي أدّت إلى سقوط الأنظمة الشيوعية أكثر من العودة إلى الحالة الطبيعية الرأسمالية الليبرالية، وكان اليمين الشعبويّ الجديد هو الذي نجح في التقاط هذا الاستياء الشديد من الحالة الطبيعية الرأسمالية. تحدّث فرويد في كتابه *Unbehagen in der Kultur* [**قلق في الحضارة**] عن السخط أو القلق في الحضارة؛ اليوم وبعد ثلاثين عاماً من سقوط الجدار، تقف الموجة الجديدة المستمرّة من الاحتجاجات في الديموقراطيات الليبرالية نفسها (مثالها النموذجيّ "السترات الصفراء" في فرنسا) شاهداً على نوع من القلق في الرأسمالية الليبرالية، والسؤال الأساسيّ: من سيكون الأكثر بروزاً في التعبير عن هذا السخط؟ هل سيُترك للشعبويين القوميين كي يستغلوه؟ هنا تكمن مهمّة اليسار الكبيرة: ترجمة السخط المختمر إلى برنامج تغيير قابل للتطبيق.

في المشهد الأخير من فيلم V for Vendetta [ثاء رمزاً للثأر]، يتقدّم آلاف من أهالي لندن غير المسلحين الذين يرتدون أقنعة Guy Fawkes نحو مجلسي البرلمان، ومن دون تلقّي أوامر، يسمح الجيش للحشد بالدخول ويتولّى الشعب زمام الأمور... حسناً إنّها لحظة انتشاء لطيفة، لكنّني مستعد لبيع أمي في سوق النخاسة مقابل مشاهدة الجزء الثاني من الفيلم. ما الذي سيحدث غداة انتصار الشعب حينما ستنقضي العاطفة الجياشة وتعود الحياة اليومية إلى مجراها الطبيعيّ؟ كيف سينظّم الناس (يعيدون تنظيم) حياتهم اليومية؟

يُقدّم توماس بيكيتي إجابة عن هذا السؤال في كتابه *Capital and Ideology* إذ يقترح ديموقراطية اجتماعية مُجذّرة.[175] يتمثّل مقترح بيكيتي في إعادة تطبيق دولة الرفاهية وتجذيرها، ليس بتأميم الثروات كافّة كما في شيوعية النمط السوفياتيّ إنّما بالإبقاء على الرأسمالية وإعادة توزيع الأصول بمنح كلّ بالغ مبلغاً مقطوعاً من

المال في عمر الخامسة والعشرين. ستسمح الضرائب التصاعدية على الدخل التي يقترحها للحكومات بمنح دخل أساسيّ يعادل 60% من متوسط الأجر في الأمم الغنية وتغطية تكاليف إنهاء الاعتماد على الكربون في الصناعة. إضافة إلى ذلك ينبغي أن يحظى الموظفون بنسبة 50% من مقاعد مجالس إدارات الشركات. كذلك ينبغي أن يُحدَّد سقف قوّة التصويت حتّى بالنسبة لأكبر مالكي الأسهم بعشرة بالمئة، وعلينا تطبيق ضريبة كربون إفرادية باستخدام بطاقة شخصية تتعقّب مساهمة كلّ شخص في الاحتباس الحراريّ... لكن ماذا لو لم يرغب الأغنياء في دفع معدلات المصادَرة الضريبية هذه وقرّروا الهجرة؟ يقترح بيكيتي رسم خروج ونظام عدالة عالميّ يجعل التواري من المصادَرة في أيّ مكان مستحيلاً. لبلوغ هذه الغاية، يتخيّل بيكيتي برلماناً فوق وطنيّ يتألف من أعضاء ينتمون إلى المجالس التشريعية الوطنية.

175 بيكيتي محقّ في تشديده على الأيديولوجيا التي تؤدّي دوراً أساسياً في المجتمع حتّى في عصر يُشيد بنفسه بوصفه ما بعد أيديولوجي. لكنّ تركيز بيكيتي على الأيديولوجيا بالغ السذاجة بمجمله، فهو يفهمها بطريقة حرفيّة تماماً قائلاً إنّ اليسار كان يستطيع أن يمضي أبعد من ذلك في تطبيق دولة رفاهية ديموقراطية اجتماعية لكنّه أضاع هذه الفرصة منذ سبعينيات القرن العشرين بسبب العماء الأيديولوجي.

خير مثال على الطرفين النقيضين لمأزق اليسار الراديكاليّ اليوم هو الحوار التلفزيونيّ الثريّ والطويل بين بيكيتي وآلان باديو.[176] تتمثّل رؤية باديو في أنّ البروليتاريا المترحّلة – المنبثقة قوَّة ثورية عالمية جديدة تتجاوز الدولة القومية والديموقراطية البرلمانية – تُلغي الرأسمالية. علينا من وجهة نظر باديو أن نتجاوز الديموقراطية كما نعرفها نحو أممية ثورية جديدة. ورغم تقديم مقترح بيكيتي لنفسه بوصفه براغماتياً غير أنّه ليس أقلّ طوباوية لأنّه يبحث عن حلٍّ ضمن إطار الرأسمالية والإجراءات الديموقراطية.

176 انظر:

“Contre Courant – Avec Thomas Piketty,” QG TV, November 18 2019, https://www.youtube.com/watch?v=roNWZwo0lS4

كذلك هنالك حلم ثالث: إحياء الديموقراطية المحلية، وهو من وجهة نظري أسوأ من مقترحَي بيكيتي وباديو. على ممارسات "الديموقراطية المباشرة" اليوم من الأحياء الفقيرة إلى الثقافة الرقمية "ما بعد الصناعية" أن تعتمد على جهاز دولة. يتوقّف بقاؤها على نسيج كثيف من آليّات صناعية "مستلَبة": من أين تأتي المياه والكهرباء؟ من يضمن سيادة القانون؟ إلى من نلجأ للحصول على الرعاية الصحية؟

كلّما كان مجتمعٌ ما محكوماً ذاتياً، كان على هذه الشبكة أن تعمل بسلاسة وبأسلوب غير منظور. ربما علينا تغيير هدف نضالات التحرّر من التغلّب على الاستلاب إلى فرض نوع صحيح من الاستلاب، أي كيف نحقّق الأداء السلس للآليّات الاجتماعية (غير المرئية) "المستلَبة" التي تحافظ على فضاء الجماعات "غير المستلَبة"؟ هذا ما يجعل دولة الرفاهية جذّابة إلى هذا الحدّ: ليس عليّ مساعدة الفقراء بنفسي، بل سيفعل ذلك جهاز حكوميّ مجهول الهوية نيابة عني ويتيح لي تجنّب مواجهة المستبعَدين والمعوزين وجهاً لوجه.

إذاً – مرّة أخرى – لماذا لا أزال متشبّثًا بهذه اللعنة التي تُسمّى شيوعية وأنا أعلم أنّ مشروع القرن العشرين الشيوعيّ قد أخفق معلناً ولادة أشكال جديدة من الإرهاب الإجراميّ؟ دعوني أبدأ بحقيقة أنّنا نعيش في عصر تتخلّله احتمالات تُنذر بنهاية العالم؛ هنالك تعدّد للتهديدات المنذرة بنهاية العالم، ونقيض حقيقيّ لها. شريطة أنّه عندما أتحدّث عن تهديدات تُنذر بنهاية العالم، فأنا مدرك تمام الإدراك مدى غموض هذا المجال وصعوبته وأنّه لا يفصل سوى خيط رفيع بين التصورات الدقيقة للمخاطر الحقيقية والسيناريوات الخيالية للكارثة العالمية التي تنتظرنا. ثمّة متعة خاصّة بالعيش في نهاية الزمان وبانتظار كارثة ما، والمفارقة تكمن في أنّنا نتيجة التركيز تحديداً على الكارثة المقبلة نتجنّب فعلياً مواجهتها. وأنا لا أتبنّى الشيوعية بوصفها حلّاً لمصائبنا، بل بوصفها (لا تزال) التسمية الأفضل التي تُمكّننا من القبض على المشكلات التي تواجهنا اليوم وتصوّر مَخرج منها.

نمّر بلحظة انقلاب مثيرة للاهتمام لو عاشها هيغل، لابتهج بها. في العقد أو العقدين المنصرمين، تحوّلت عبارة فوكوياما عن "نهاية التاريخ" (حيث لدينا أفضل تشكيلة اجتماعية ممكنة) إلى نسختها المنذرة بنهاية العالم؛ لم نصل بعد إلى نهاية التاريخ لكنّنا نقترب من النهاية تحت ستار كارثة تُنذر بنهاية العالم... ثمّة سمة شكلية تبقى هي نفسها في نسختَيّ "النهاية": الإحساس بالاستمرار اللانهائيّ. عالم فوكوياما هو عالم لا يحدث فيه ما هو جديد أو عظيم إذ تمضي الحياة فحسب بتحسينات محلية (العالم الذي وصفه كوجيف Kojeve منذ عقود بأنّه عالم الغطرسة)، ونهاية العالم دائماً ما توشك أن تكون هنا أيضاً – حين نستمر في ضرب من ضروب عالم النسيان الذي لا ينتهي – نهاية زمن اختبرنا استحالة نهايته (انتهائه). اعتدنا مثل هذا الوضع في الفن (يحتضر منذ أكثر من قرن) والفلسفة

(تتخلّى عن نفسها وتتغلّب عليها منذ أيام هيغل حتّى يومنا هذا). وفي كلتا الحالتين، يُفضي الموت إلى إنتاجية استثنائية وانتشار أشكال جديدة كأنّ حقيقة الموت تتمثّل في خلود غريب.

في النتيجة الأمر الوحيد الذي يمكن فعله هنا هو قلب المنظور بأسره: لقد وصلنا إلى النهاية بالفعل لكنّنا لم نلاحظها فحسب. نحن نشبه هرّة في طُرفة رسوم متحرّكة قديمة تمشي فوق هاوية ولا تسقط إلّا حين تلاحظ أنّه ما من أرض تحت قوائمها. يجب أن تتمثّل نقطة انطلاقنا في أنّ نهاية العالم – بمعنىً ما – قد حدثت بالفعل: تخضع مجتمعاتنا بالفعل لرقابة وتحكّم شديدين على الصعيد الرقميّ وتتوالى التغيّرات في بيئتنا بالفعل ويتحرّك الملايين بالفعل. فعلينا أن نترك وراءنا استعارة أنّ الساعة هي "الثانية عشرة ظهراً إلّا خمس دقائق"، فرصتنا الوحيدة للتحرّك ومنع وقوع الكارثة. إنّها الثانية عشر ظهراً وخمس دقائق بالفعل، والسؤال: ما العمل في كوكبة عالمية جديدة بالكامل؟ وهذا بالطبع لا يعني أنّه ينبغي ألّا نكافح لمنع الكوارث التي تنتظرنا. بالعودة إلى طُرفة الرسوم المتحرّكة، يقع وضعنا الحالي في مكان ما بين نهايتين: النهاية الأولى هي ما يحدث حين نمشي من دون وجود أرض تحت أقدامنا، والنهاية الثانية هي ما يحدث حين نسقط فعلياً. نحن نمشي بالفعل فوق هاوية ولقد فقدنا الأرض تحت أقدامنا، لكنّ الطريقة الوحيدة لعدم ملاقاتنا حتفنا – خلافاً للهرّة – هي أن ننظر إلى الهاوية ونتصرّف وفقاً لذلك.

كما لاحظت ألينكا زوبانتشيتش Alenka Zupančič بوضوح، الدليل القاطع على أنّ نهاية العالم البيئية قد حدثت بالفعل هو أنّه أُعيد تطبيعها بالفعل. نتأمل "عقلانياً" باطّراد كيفية تكييف أنفسنا معها، وحتّى الاستفادة منها (نقرأ أنّ أرجاء شاسعة من سيبيريا ستُفتح للزراعة وأنّه يمكنهم بالفعل زراعة الخضراوات في غرينلاند وأنّ ذوبان الجليد في القطب الشماليّ سيجعل طريق نقل البضائع من الصين إلى الولايات المتحدة أقصر بكثير...) تتمثّل إحدى حالات التطبيع النموذجية في ردّ الفعل السائد على عمليات فضح المبلِّغين عن المخالفات – أمثال أسانج ومانينغ Manning وسنودن – الذي لا يمثّل إنكاراً ("موقع WikiLeaks ينشر أكاذيب") بقدر ما يشبه: "نعلم جميعنا أنّ حكوماتنا تقوم بمثل هذه الأمور طوال الوقت، وليس ثمّة مفاجأة هنا!". وهكذا حُيّدت الصدمة الناجمة عن عمليات الكشف بالرجوع إلى حكمة من هم أقوياء بما يكفي للإبقاء على نظرة رصينة على وقائع الحياة... علينا في مواجهة

مثل هذه "الواقعية" أن نبيح لأنفسنا بأن يصدمنا بسذاجة وكلّيا فحش وهول الجرائم التي كشفها WikiLeaks. تكون السذاجة أحياناً خير الفضائل.

الأصوات الرئيسية الداعية إلى إعادة التطبيع هي ما يُدعى "المتفائلين العقلانيين" مثل مات ريدلي Matt Ridley الذي أتحفنا بأخبار جديدة: كان العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين أفضل عقود البشرية إذ يتراجع الفقر في آسيا وأفريقيا ويتناقص التلوّث وما شابه.[177] إن كانت هذه هي الحال، فمن أين يأتي المناخ المتنامي لنهاية العالم؟ أليس حصيلة حاجة مَرَضية ذاتية التوالد للتعاسة؟ حينما يخبرنا المتفائلون العقلانيون بأنّنا نبالغ في خوفنا من المشكلات الصغرى ينبغي أن يكون جوابنا أنّنا على العكس من ذلك لا نخاف بما يكفي. وكما تصوغ ألينكا زوبانتشيتش المفارقة: "لقد بدأت نهاية العالم بالفعل ولكن يبدو أنّنا لا نزال نفضّل الموت بدلاً من السماح لتهديد نهاية العالم بأن يميتنا خوفاً"[178]. تتبادل لحظات الهلاك والتوقعات المستكينة بالنهاية مع قدرة التحمّل الجسورة الزائفة ("سنتجاوزها بطريقة ما، لكن لا تفقدوا أعصابكم ولا تصابوا بالذعر").

177 انظر:

Matt Ridley, "We've Just Had the Best Decade in Human History. Seriously," the *Spectator*, December 29, 2019, https://www.spectator.co.uk/2019/12/weve-just-had-the-best-decade-in-human-history-seriously/

178 Alenka Zupančič, *The Apocalypse Is Still Disappointing* (manuscript).

من السهولة أن نرى هنا كيف أنّ التفاؤل العقلانيّ وأنبياء الهلاك ليسا سوى وجهي العملة عينها: يخبرنا الأول أنّ في وسعنا الاسترخاء وأنّه ما من داعٍ للذعر وأنّ الأمور ليست بهذا السوء على وجه الإجمال، والآخرون يخبروننا أنّنا فقدنا كلّ شيء بالفعل وأنّه ليس في وسعنا سوى الاسترخاء والاستمتاع بالمشهد على نحو معاكس. كلاهما يمنعنا من التفكير والفعل ومن اتّخاذ قرار واعتماد خيار. للأسباب المذكورة جميعها في هذا الكتاب، لا تزال الشيوعية هي الاسم الأفضل لهذا الخيار، ليس لأنّ الشيوعية أحد الخيارات الممكنة؛ إنّها الخيار الوحيد. الخيارات الأخرى المعروضة علينا (مثل "إعادة الضبط الكبيرة" التي تدعو إليها الشركات الكبيرة) هي مجرّد وسائل لتغيير شيء ما فلن يتغيّر أيّ شيء في الواقع. حالما نختار الشيوعية سندرك أنّ علينا اختيارها. مع الشيوعية، نختار بحريّة ما يتعيّن علينا فعله وما هو ضروريّ لعمله. هذا هو ما يوصل إليه الادّعاء الهيغليّ القديم بأنّ الحرية ضرورة

مسلّم بها: ليس أنّ الشيوعية ستحدث لا محالة – قد لا تحدث وقد ننتهي بعربدة مدمّرة للذات أو برأسمالية شركات لها سمات إقطاعية حديثة – ولكن حالما نختارها سنرى أنّها المَخرج الوحيد.

حول الكتاب

نبذة

المحرّك الدائم لعصرنا هو الفوضى التي لا هوادة فيها.

يتفحّص جيجيك بهدوء وتجرّد شديد تصدّعات اليسار، والوعود الفارغة للديموقراطية الليبرالية، والتنازلات الواهية التي قدّمها الأقوياء. ومن رماد هذه الإخفاقات، يؤكد الحاجة إلى التضامن الدولي والتحوّل الاقتصادي.

يتّسم هذا الكتاب بالثراء المتميز في المفارقات والانعكاسات، ويتعامل بالعمق التحليلي نفسه مع دروس رامشتاين وكوربين وأورويل ولينين. كما ينقّب عن الحقائق العالمية من المواقع السياسية المحلية في فلسطين وتشيلي وفرنسا وكردستان، وما وراءها.

هل يمكن أن تكون كوارث اليوم حافزاً للتقدم أم أنها تحوّلت إلى شيء فظيع لا يمكن إصلاحه؟

قيل في الكتاب

*«لا يكفّ عن الإبهار» Daily Telegraph

*«أخطر فيلسوف» The New Republic

عن المؤلف

سلافوي جيجيك فيلسوف وناقد ثقافي سلوفيني. من أكثر الفلاسفة والمنظرين الثقافيين شهرة في العالم. قدم مساهمات في النظرية السياسية والتحليل النفسي. تهدف أعماله الإبداعية والاستفزازية إلى تحدي الحكمة التقليدية والحقائق المقبولة على كلّ من اليسار واليمين.

